لطيف يحيى



كنت ابنا للرئيس



لطيف يحيى





عدي صدام

يروي قصة السنوات الخمسة التي عاشها بالقرب من

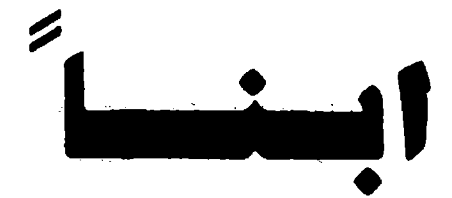


صدام

نوركا للنشر ـ النمسا NORKA VERLAG

لطيف يحيى بالتعاون مع كارل ڤندل





للرئيس

الناشر

نوركا للنشر

NORKA VERLAG

نوركا للنشر
1994
ڤيينا - كلوستر نويبرج

الطبعة الأولى
نوركا للنشر

كنت ابناً للرئيس

كنت
ابناً
للرئيس

لطيف يحيى

بالتعاون مع

كارل فندل

الطبعة الأولى

١٩٩٤

الناشر

نوركا للنشر

NORKA VERLAG
KLOSTERNEUBURG. 3403
AUSTRIA

Printed in Germany

1

ظهر المخاوف

○ اليوم هو الثالث والعشرون من أيلول عام 1987.. الشمس المتحلقة في كبد السماء تعلن عن إنتصاف النهار.. عيناي معلقتان بمؤخرة رأس سائق السيارة الغارق في الصمت.. ليموزين مرسيدس كاحلة السواد، زجاجها الغامق يحجب الرؤية وضوء النهار الساطع.. كما لو أنها آتية على التو من المصنع، ولا ذرة غبار واحدة؛ رائحة نفاذة تنبعث من المقاعد الوثيرة وسجاد الأرضية، التابلوه مكسو بلون الخشب.. ينساب صوت المكّيف في هدوء، وكذلك المحرك.

تهادت السيارة لتعبر بطريقة «ملوكية» ساحة القصر الجمهوري.. تنافس منطقة القصر في بغداد بأبهتها وفخامتها أرقى المناطق في أجمل العواصم الأوروبية: مبان الوزارات، بيوت الوزراء.. والمطار الخاص، ساحات التريض، قاعات للعرض المسرحي والسينمائي.. دور الاستشفاء ومساحات ممتدة تحفل بالخضرة وتتناثر في أرجائها نافورات الماء المتراقص في وضح النهار.. مسابح فيروزية محاطة جوانبها بالمرمر.. وفي قلب المكان «مركز عصب صدام السري».

كل شيء يجعلك تفغر فاهك مندهشا.

لا أعرف إلى أين أقاد.. ولا قدرة لي على السؤال.. تنتابني المخاوف.

ألحظ عبر النافذة المتشحة بالسواد ليموزين أخرى تتبعنا.

هناك على الجبهـــة لم أكن أحس كل هذه المخاوف.. الآن أتصبب عرقـــاً.

أدس يديَّ في طيبـات حلتي الخضراء، أجاهـــد لأزيـــل لزوجـــة العرق، تتزاحم السؤالات داخـــل راسي: لمـــاذا أنـــا؟!.. وكذلك الهواجس:

دائمـــاً يختفي أناس في العراق، تطرق الأبواب عند الفجر أو في منتصـــف النهـــار سواء بسواء.. يساق من ساء طالعهم إلى المجزل.. إلى المحارق.. ليكونوا مادة يمارس فيهـــا السجانون متعـــة الإذلال.. يتسابقون إلى تعذيب الأجساد والأنفس.. هناك مصيران لا ثالث بينهمـــا.. إهراق الحياة على الفور أو السجن مدى الحيـــاة.

لا أحـــد يعرف لماذا؟! حوائط صلـــدة تقتل الحقيقـــة.. كل ما تتناقلـــه الهمسات المسحوقـــة مجرد ظنون، ونسيج حكايـــات مبتورة.

تسللت كراهيـــة العسكرية إلى نفسي مع مطلع اليوم الأول، كنت أدرك أن الواحد والعشرين شهراً من الممكن أن تتمدد إلى عشر سنوات. في العراق القوانين ليست سوى سحابات دخان ينفثهـــا غليون «الرئيس القائد» وفق هواه ـ عندما يحتاجون الرجال للجبهـــة تطول مدة خدمتهم.. يختزلون مصيرهم في عبارة شديدة الإيجاز «الوطن يحتاجكم». لا تبدو في الأفق أي علامات؛ متى ولا كيف سوف ينتهي ذلك النزاع الدامي على الحدود بين العراق وإيران.. يصعب التكهن بذلك.. خاصـــة لمواطن عادي مثلي.. يعرف فقط أن صدام يسعى للسيطرة على شط العرب ذلك المدخل البحري، الذي يمثل أهميـــة فائقـــة للعراق، وكذلك يسعى الإيرانيون.

الحرب المشتعلة نيرانهـــا تبتلع الجميـــع.. كل من أعرفهم.. الأقارب.. الأصدقاء.. الجيران.. دفعوا جميعهم إلى مناطق القتال.

دلالات الحرب تزحم شوارع بغداد.. وجوه محرّقة، أيدٍ وأرجل مبتورة، ملامح يائسة ترتسم على وجوه يعتصرها الألم.. شبان قلقون أضجرهم طول إنتظار الشاحنات العسكرية التي تأتي لتنقلهم إلى مناطقهم العسكرية.. يعبثون في «كلاشينكوفاتهم» تعبيراً عن هذا القلق.. أبداً لم أحاول أن أتوقف لأتبادل الحديث مع أي من هؤلاء ـ الحرب لا تهمني ـ عندما كنت ألحظهم وأنا أتجول بسيارتي وسط بغداد كنت أطالع على وجوههم علامات التعب والضجر، دفعوا للقتال دون قناعة لا يقيدهم سوى الإكراه.. ماذا بوسعهم؟.. الفارون من الخدمة ومن يعصون الأوامر مصيرهم الإعدام.

السجن رقم 1 في معسكر الرشيد إزدحمت جنباته بآلاف الهاربين من آمرية الإنضباط العسكري إنتظاراً للإعدامات الجماعية، سواء في الساحات التي أعدت خلف الجدران.. أو في صدر الميادين العامة حيث يسعى النظام إلى ترويع الجميع.. أمهات وآباء يحتضنون صغارهم .. الألم يعتصرهم، لا يقوون على الوقوف الذي أجبروا عليه.. عليهم أن يشهدوا تساقط فلذات أكبادهم.. فتية في عمر الزهور وصمهم صدام بـ (خائن البلد) ، وعلى ذويهم أن يقروا بذلك، ويتحملوا ليس فقط العار.. بل وأيضاً كلفة الطلقات التي أعدم بها صغارهم.

لكن ما نعرفه على وجه اليقين؛ أن الطريق إلى المهالك مرصوف بكلمة تنفلت في ساعة غفلة من بين الشفاة المنطبقة.. نكتة.. أو مجرد ملاحظة عن الرئيس، أو عن العائلة.. أقلب في المخيلة صفحات حياتي.. أفتش سطورها.. ربما إرتكبت جرماً في حقهم.. لا شيء.. لقد كنت وفياً للنظام.. يأبى القلق أن يفارقني.. يضيق المقعد بجسدي

الهموم.. ركبتاي تنغرسان في مؤخرة مقعد السائق .. سقف السيارة وأرضها والجوانب تشكلت من جديد.. استحالت إلى زنزانة تخنق أنفاسي.. يتمدد القلق في جوانب رأسي وينساب إلى الأوردة والشرايين؛ السؤالات لازالت تلاحقني: هل نبست شفتاك بالطيف بكلمة ما هنا أو هناك.. أمام أصدقاء يتمازحون.. بحت لرفاقك على الجبهة بما تكنه من كراهية للحرب.. ربما تقاعست مرة عن إطاعة أمر.. أو أديت واحدة من المهمات بشكل غير مرض. ملعونة أيتها السيارة الزنزانة.. ملعونة أيتها الحرب.. ملعون أيها المجهول.

قبل عدة أشهر من عام 1987 جندت في الجيش العراقي والحرب العراقية – الإيرانية في قمة إشتعالها.. كانت قواتنا قد استطاعت إحتلال 1800 كيلومتراً من أرض الإيرانيين.. إزدحم شط العرب بكم هائل من العتاد.. أربعين كتيبة مدفعية ثقيلة وخفيفة.. بطاريات للهاونات.. إزدحمت نقاط التماس على الحدود بالألوية والفرق المدججة بالسلاح.. الصواريخ المنصوبة على جانبي المواجهة تنطلق لتحدث الخراب الهائل.. صفارات الإنذارتصرخ في أرجاء البلاد.. تعوي الصواريخ في سماء بغداد.. تخرق الجدران.. سحابات قاتمة تتصاعد في الأفق.

كم حلمت بيوم تخرجي.. ها أنا قد أنهيت دراستي الجامعية في كلية القانون السياسية.. وبت أسرتي الإحتفال بتفوقي بشكل لائق.. لكنها الحرب.. كان علينا أن نحتفل بعرسنا في الغرف المقيدة الضوء.

ملعونة أيتها الحرب.. كم حلمت بهذا اليوم. يوم الوداع لقاعات الدرس.. والدخول إلى عالم التجارة مع أبي.. لكنها الحرب.. على أن أنتظم في سلك العسكرية.. هكذا يقضي القانون.. كل من يبلغ سن

الثامنــة عشرة عليــه أن يلبــي نــداء الوطن.. عليــه أن يغتال أحلامــه... يدوسهــا بالحذاء العسكري الثقيل.

ولا عزاء.. هكذا قرر النظام.

ألحقت بمدرســة القوات الخاصــة والتي تستقبل خريجي الجامعــات، وكذلك الذين لم ينهوا الدراســة.

المشرف على تدريبنا (أياد سعــد) أمــر بإعدادنــا كضباط قوات خاصــة في أسرع وقت ممكن. ونجــح إلى حــدٍّ كبير في تأهيلنــا خلال الشهور الأربعــة الأولى من التدريب الشاق إلى الدرجــة التي تجعلنــا قادرين على خوض العمليات العسكريــة.

دورتنــا حملت الرقم 23 ومسمى (صدام العــرب)، وبدأت في 16 كانون الثاني عام 1987 داخــل معسكر الرشيد الواقــع في ضواحي بغــداد.

في الشهر الأول تدربنــا إلى درجــة الإرهــاق.. كل يــوم أربــع وعشرون ساعــة من غسيل الدمــاغ حتى الإفراط؛ ننهض عند الرابعــة صباحــاً، وفي الخامســة يجري التعداد.. الحاضرون والغائبون.. ثم توزع الأوامر لتبدأ رحلــة التدريب القاسي.. نركض نصف عراة.. نجاهــد لإنتزاع أقدامنــا التي تغوص في رمــال الساحــة.. الشناء، القرفصــة، الركض، الزحف على الأسفلت، التسابق ركضــاً والقفز على العوارض.. تلك كانت ملامح برنامجنــا اليومي.

أكثر ما كان يؤلمنــا سيل الشتائم التي كنا نتلقاهــا من ذلك المدرب الغامق البشرة، الضخم الجسم ومخارج الكلمــات.. أتو بــه من جنوب العراق ليسومنــا سوء العذاب.. لم تكن تكفيــه فظاظــة ألفاظــه

وقاموس شتائمـــه المفرط في البذاءة.. بل كان يتجاوز فيجلـدنـا بالكابـل إذا مــا قصرنــا في التدريب.. تسللت كراهيــة «سالم الجبوري» إلى أنفسنا بسبب ما كنـا نلقــاه على يــديــه من قسوة، لا نذكــر لـــه فضيلـــة... إلاّ فضيلـــة العــدل في توزيـــع الشتائم وضربـــات الكابـــل.. كان الجميـــع عنـــده سواسيـــة.. مجرد حيوانات.

كان يشاركنـــا التدريب إخـــوة مسلمون مغاربـــة.. يتعرضون لما نتعرض لـــه، ويقاسون ما كنا نقاسيـــه..

لا فسحـــة للراحـــة من الإرهـــاق، فقط لحظات قصار لتنـــاول وجبـــة الغذاء عند الثانيـــة ظهراً.

المشرفون على تدريبنـــا وضعوا نصب أعينهم تحطيم شخصيتنـــا، وتطويعنـــا لنكون مجرد أدوات عسكريـــة مؤهلـــة للقتال.

التدريب رغم قسوتـــه.. كان هيناً إلى جوار حرماننـــا من أي إتصال بالأهـــل والأصدقـــاء.. كان علينـــا أن لا نعرف عالمـــاً آخر خارج أسوار معسكر الرشيد حتى ننهي دورة التدريب الأولى.

شهر كامل.. بعده أطلقوا سراحنا لمدة يومين.. نزور فيهمـــا الأهل.. ونتنفس ريـــاح الحريـــة.. ثمـــان وأربعـــون ساعـــة نعرف فيهـــا معنى الإنسانيـــة، ثـــم نعود لنفقدهـــا من جديد مع بدايـــة الدورة الثانيـــة، وهي الدورة الأكثر أهميـــة، هكذا أخبرنـــا المدرب.. ألحقونـــا بجناح خاصٍ يسمى «الصاعقـــة».

وبدأت رحلـــة التدريب على استعمال الأسلحـــة الخفيفـــة.. كيف نفك «الكلاشينكوف»، كيف نزود خزانتـــه بالطلقات، الطريقـــة المثلى لتنظيف

السلاح.. والبراعـة في التعامل مع الأعطال المفاجئـة.. كل يوم كنا نكرر الفك والتركيب والتنظيف لدرجـة أننا ملكنـا القدرة على القيام بدقائـق تلك العمليات، حتى صرنـا قادرين على ممارستهـا ونحن غارقون في النعاس.

وكان علينا إضافـة لكل ذلك أن نتقـن لعبـة الكراتيـه، الدفاع عن النفس، القتال الأعزل ـ القتال بالسلاح الأبيض ـ دون إحداث جلبـة وفـي لمـح البصر.. درّبنـا كذلك على ما يسمى بـ «حرب الشوارع»، وكيف نتسلل إلى صفوف العـدو دون أن نحدث ما يلفت أنظاره خاصـة عند الليـل.

كان علينا في نهايـة الدورة أن نتحمل البقاء أطول وقت مستطاع دون ماء أو غذاء. كنـا نحشر في «جملون» كبير يتسع لأكثر من ألف شخص.. المكان غارق في الروائـح الكريهـة.. رائحـة البول وطفح المجاري وتخثر الفضلات.. عليك أن تتماسك حتى لا تخرج ما في أمعائك.. آلاف الأشخاص مروا من هنـا .. وقليل منهم نجـا سليم النفس ململم الفؤاد، عنده قليل من الثقـة بالكون وخالقـه.

أرض التدريب حافلـة بتراب كثير، يتوسطهـا حوض ممتلىء حتى الحافـة بمياه المجاري، تطفو على سطحـه جثث القطط والكلاب النافقـة. في مواجهـة الحوض وعلى منصـة عاليـة كان يجلس المدّربون، محصنـة أنوفهم وأفواهم بالكمامات الواقيـة من الروائـح المنبعثـة من كل جوانب المكان:. كانوا يكرهونـا على إلتهام الحشرات التي تحفل بهـا الساحـة، صراصير، بعوض ، وأفاعي كانت طعامنـا لأسبوع كامل.. وكان الحوض مسبحنـا نشارك حيواناتـه النتنـة الطفو والغطس دون أن يكون مسموحـاً لنا بالتأفف، فضلاً عن المعارضـة..

الركـل والضرب المبرح عقاب مألوف لمن تراوده نفسـه الإحجام عن تنفيـذ التدريب.. وكانت معركـة تتسم بما تتسم بـه صراعات الحياة أو الموت.

ستار زميل دراستي وشريكي الآن في هذا الجحيم، ضعيف البنيـة، رقيق المشاعر، شاء سوء حظه أن تضبطـه نظرات المدرب وهو يجاهـد كي يتجنب متأففاً الحشرات التي تسعى في المكان.. زعـق المدرب بصوتـه الجهوري الأجـش: ستـار.. كل هذه الصراصير التي عند أقدامـك!! إقبض عليهـا والتهمهـا.. المسكين ستار قبض بين راحتيـه حفنـة من الصراصير، ضـم الكفين بكل قواه فسالت العصارة على ساعديـه، زعقات المدرب تدعونا جميعـاً إلى مشاركـة ستار الوليمـة: إقبضوا جميعـاً على الصراصير.. أعصروهـا وكلوا هنيئـاً مريئـاً جاهـد ستار ليمتنع عن التقيء، إصطكت أسنانـه، أطبق شفتيـه بكل قوة، تنافرت عروقـه، وأحمرت وجنتاه. سالت الدموع من عينـه، ثم بدأ يرتجف كالمحموم.. تقيأ كل ما في أحشاءه واقفاً مرة وجاثماً على ركبتيـه مرة أخرى.. فعلهـا ثلاث مرات.. صاح المدرب: أرفعوا هذا الخبيث.

تولى شخصان منـا إطاعـة الأمر فأوقفـا ستار، وأتى ثالث ليمسـك برأس المسكين، تسابقت الأيدي تحشر الصراصير في فمه، وزعقات المدرب الآمرة تطن في أذنيـه: إبلـع هذه الحشرات.. أنت جندي عراقي ، حاول ستار وفشل.. عاوده القـيء.. وعاودوا إجباره على إبتلاع الصراصير حتى نجحوا في إرضاء إلحـاح الأمـر.

أهلكني التدريب الشاق.. أصاب الشلل عقلي.. أصبـح جسدي يتلقى مباشرة الأوامر ويطيعهـا دون إعتراض من مراكز الإحساس التي

نملت. تحملت عضلاتي بلا كلل السير لمسافـة تتعـدى 60 كيلومتراً ـا مثقل بكل لوازمي العسكريـة.

نجح مدربونا في مهمتهم.. حولونـا كما أرادوا إلى حيوانات أجيـد ترويضهـا وإعدادهـا لتكون أدوات قتال.. كان مدربونـا يفاخرون بقدرتهـم على صنع وحوش قادرة على مصارعـة العدو.. كانوا يتفاخرون بزعمهم أن إسرائيل ذاتهـا تخشى القوات العراقيـة الخـاصـة.. ويطالبونـا أن نشاركهم هذا الافتخـار.. كانوا يقولون لنـا: يجب أن لا يكون للخوف مكان بينكم، دعوا ذلك للعدو..

ولطالما رددوا على مسامعنا ما يجب أن نفاخر بـه: أنتـم طلاب هذه الدورة فريق واحـد، سمح لكم بالدراسـة في الجامعـات العراقيـة ووقع عليكم الإختيار كي تكونوا مرآة للجيش العراقي تعكسون قوتـه وشجاعتـه.. كانوا يمنونـا بالوصول إلى أعلى المراكز.. كانوا يعظمون قدرنـا: القوات الخاصـة العراقيـة لديهـا طريقـة لحمايـة الوطن تفوق طرق الجيوش العالميـة جميعهـا.. بالغـوا في نفـخ أوداجنـا: صفكم هو الأقوى، يفوق الصفوف المناظرة في كل الجيوش.

في الخامس من نيسان إنتهى تدريبنا الأساسي فمنحنا إجازة لأربعـة أيـام.. سابقت الريـح لأكون بين أهلي في بغـداد.

حاولت جاهـداً أن أبـدو منشرح الصدر، موفور العافيـة.. جاهدت حتى لا يلحظ أفراد أسرتي آثار التدريب القاسي . وكان هذا موضع فخـر لأبي.. فخر أن يحمل ولده السلاح.. السلاح في عالمنـا العربي جزء من الرجل، هو أكثر من أداة قتل، هو تعبير عن القوة والثقـة بالنفس، عن السلطـة والجـاه.. أمر طبيـعـي ومعتاد أن يحمل الرجـل السلاح، لا يخلو منزل، أو عائلـة منه، مسدس، بندقيـة أو كلاشنكوف..

السلاح جزء من الرجـل.. ومن لا يملك سلاحـاً فليس برجـل ـ هكذا لقننا صـدام.

تسامرت مع أبي كعادتنـا، ولم نتوقـف طويلاً عند فترة التدريب التي إنتهت، تحدثنا أكثر عن ما هو آت.. حدثته أنهم أخبرونـا أننـا سوف نتدرب خلال الثلاثين يومـاً القادمـة على الهبوط بالمظلات وراء خطوط العدو، وعلى القيام بعمليات هجو ميـة.

إنتهت الأجازة وبدأنـا من جديد.. مدربنـا كان خشنـاً قاسياً، لكنـه كان يقوم بعملـه كما ينبغي، حال دوننا والخوف من اللحظات الأولى، كان يكرر علينـا القول: أننا مميزون، ويطالبنـا بأن نفكر دائمـاً في ما نفعـل وفقط، داوم النصـح: «يجب عليكم أن تتعرفوا على الخـوف. إذا لم تعرفوا الخوف فلن تستطيعوا التعامل معـه، تعرفوا عليـه كي تنسوه وتتجاوزوه».

يتوسط المعسكر برج يرتـفع إلى أكثر من مائـة وثلاثين متراً، بـدت لنا درجاتـه الحديديـة ممتـدة إلى مالانهايـة.. وكانوا يدفعونـا للصعود إلى القمـة.. والجلـد بسوط حديـدي عقاب من يحاول التلكؤ أو التملص من الصعود.. تلال من الخوف والرهبـة أصابتني وأنـا واقف عند القمـة مثقل الظهر بالمظلـة.. على أن أقفز من هذا العلو الشاهق، ولا خيار آخر. كان المدرب يتوعـد من لا يقفز بإعادة التدريب كاملاً.. جاءني عبر مكبرات الصوت المثبتـة عند قمـة البرج صوته مشجعـاً : لا تخف.. كن قويـاً.. ركز جيداً».. أرخيت عضلاتي.. أخـذت نفسـاً عميقـاً وقفزت وأنـا أصرخ «الصاعقـة».

اليوم التاسع من أيـار 1987 كان يوم إنتهـاء دورتنـا.. دورة «صدام العرب» ـ خمسمائـة مجنـد تعثر منهم ستون لم يوفقوا

كضباط، عليهم أن يعيدوا الدورة كاملــة.

اصطففنا في ساحة المعسكر لنمنح رتبنا العسكريــة.. النشيــد الوطنـي العراقي تصدح بـــه آلات الفرقـــة الموسيقية العسكريــة.. اتسم حفل تخرجنــا بالمهابــة.. القائــد العسكري الهــام عبــد الجبار شنشــل حضر ليسلمنــا الأوسمـــة، ويقــدم لنا التهاني والمباركــة بإنخراطنــا في الجيش العراقـي.

إنتفخت أوداجي لحظتهــا.. وزالت كل آثار التدريب الشاق، أحسست بأهميتــي، أنــا الآن ضابط في جيش العراق ولم يتعــد عمري الثالثة والعشرين بعد.. هــا أنــا قــد وضعت أقدامي على الطريق إلى المستقبل في المجتمــع العراقي، النفوذ والمـــال.. إجتاحتنى الفرحــة، كنت أعرف أنني ذاهب إلى الجبهـــة فقــد تسلمت الأمــر بذلك مع وسام التخرج . ولم يقلل هذا من فرحتي.. تداخلت واختلطت مشاعري.. ولت أيـــام التدريب.. حلـــة زاهيـــة مرشوقـــة بوسام لامـــع.. وفوق ذلك أربعـــة أيـــام جديدة سوف أقضيهــا مع الأهــل في وضعـي الجديــد.

كان يوم الثالث عشر من أيار 1987 شديد القيظ يدفع إلى الإختناق ونحن محشورون في عدد من الباصات العسكريـــة في طريقنــا من بغــداد إلى موسى بن نصير، الفرقـــة (35) شرقي دجلـــة الواقعـــة في محافظـــة البصرة جنوب العراق.. في القرنه.

لحسن المصادفـــة كان قائــد الفرقـــة محمد طاهر توفيـــق من منطقتنـــا في بغــداد، تبادلنــا التحية مرات قليلــة هناك، وهي الآن كافيــة لتقرب بيننــا، بانت عليّ علامـــات القلق وإمـــارات التعب.. الخـــوف مما هو آت.. وقـــد لاحظ قائدي ذلك جليـــاً.. خاطبنـــا بـــود: «لديكم الآن أربع وعشرون ساعـــة لتستريحـــوا من متاعب

الرحلــة.. ثم لتواصلوا إلى مكان آخــر.. إلى الجبهــة».. هذا كل ما قالــه.. وانصرفنا إلى بطن المعسكر المشيد في عدة طبقات تحت الأرض.. الحر الخانق ولسعات البعوض ليست وحدهــا التي حالت بيني وبين النوم.. الانفجارات المتلاحقــة استنفرت حواسي جميعها.. ها أنــا أسمع لأول مرة دوي المدافــع بكل هذا القرب إنها الحرب إذن. تلامس مراكز أحاسيسي.. تهزهــا.. تأرجحهــا في كل اتجاه.. أنا الآن في قلب الأتون المتأجج.. ولا مهرب.

مــع إشراقــة اليوم الثاني نقلت إلى منطقــة المراقبــة رقم 5 – 2 في العزير عند منطقــة المستنقعات.. ثلاثــة كيلو مترات تفصل بيننا وبين الإيرانيين ـ الخمينيين كمــا كنا نسميهم ـ أصواتهم تأتينــا واضحــة عندما تهدأ الريــح ويخف التراشق.. كانــوا يتوعدوننــا بقطــع الرقبــة عندما تحين لهم الفرصــة المناسبــة.

دأبوا على السخريــة منــا.. كان نداءهــم المفضــل الموجــه تجاهنــا: يا جيش ميّ أكرم.. ميّ أكرم عاهرة في واحــد من بــارات بغــداد.. تجاوز نشاطهــا مناضده لتوزع خلاعتهــا على ثلاثــة أربــاع الملاهي المنثورة في أحياء بغداد المختلفــة.. ملاءٍ فاقت في مباذلهــا مثيلاتهــا في مدن المباذل الأوروبيــة والأمريكيــة.. وكانت ميّ ملكتهــا المتوجــة. كانت الترجمــة الموجزة لعبارتهم تعني «أنتم جنود العاهرةالملحــدون».

كلّفت بمراقبــة تحركات الإيرانيين من أعلى برج محاط بالمستنقعات من جوانبــه الأربعــة ، وكانت وسيلتنــا للوصول إلى البرج، أو على الأحرى كوخ المراقبــة قارب صغير يتأرجــح على صفحــة الماء الآسن..

مصطبتان همــا كل أثاث الكوخ، وكانتــا كافيتان لنومنــا ونصب

لاسلكي المراقبـة.. كانت مساحـة الكوخ «ثلاثـة أمتار» تكفي بالكاد، للنوم والمراقبـة وزاويـة إقتطعناهـا لتكون مكانـاً للطهي.. كان علينـا أن نتكيف واضعين نصب أعيننـا أننا في مواجهـة مـع ما أسميناهم بالخمينيين الشياطين.

فريق الكوخ تحت إمرتي جنديـان، مكلف لاسلكي اسمـه إسماعيل طـه، يكبرني بسنوات قليلـة، تمرس لطول المـدة على الحرب، ومجنـد عادي يدعى محمد مطشـر جاء من أطراف بغـداد، مهارتـه في الطهي أفادتنا. ساعات طويلـة من المراقبـة الدائمـة لمواقـع الطرف الآخر.. أثنان وعشرون يومـاً من الضجـر.. الدقات الرتيبـة المنبعثـة من جهاز الإرسال اللاسلكي كادت أن تحطم أعصابي.. عليّ أن أتماسك وأقاوم الضجـر والملل حتى لا أخطيء في رصـد التحركات الإيرانية وإبلاغ القيادة بهـا على الفور عبر الجهاز الرتيب.. كانت رسائلي بمثابـة جهاز التوجيـه لمدفعيتنا الثقيلـة.. الأوامر الدائمـة لنا كانت تقضي أن نسارع بالانسحاب لو تعرض موقعنـا للهجوم، فتسليحنـا الخفيف لا يسمح بالمقاومـة.. وزاد من وقـع الملل علينـا إخفاقـنا في رصـد أي تحركات ذات شأن على الجانب الآخر.. فقط شاحنات صغيرة تنقل الطعام لمواقعهم المتناثرة.. الغبار المتناثر من حول الشاحنات يطمس معالمهـا.. كنـا نشم أنفاسهم دون أن تتجسـد أمام عيوننـا ملامحـهم.. صامتة الجبهـة إلا من بعض طلقات متفرقـة تومض في مسارهـا كالشهب المحترقـة.. سماء زرقـاء ممتدّة، تنعكس على صفحـة المستنقعات ليختلـط الأزرق بلونهـا الآسن.

تسللت إلى داخلي تلال من السأم.. كرهت الحرب التي لا تأتي.. الحرب التي بلا ملامح.. وبلا عدو منظور ومحدد.. توقفت عند عدو آخر ألامسـه

وأعايشــه هو الضجر.. كرهت الألواح الخشبيــة التي أنام وأعمل عليهــا.. كرهت أزيز اللاسلكي.. وزاويــة الطبخ، والقتامــة المرتسمــة على ملامح رفيقايّ في المرصد.. كرهت طول الانتظار.. يالهــا من حرب سخيفــة.

أخيراً تحرك الماء الآسن وساعداي يجدفان بقوة فائقــة لأصل بالقارب إلى اليابســة.. هبت ريــح الحريــة.. أخيراً منحت أجازة لمدة أسبوع، أسابق الريح لأكون هناك.. ألامس أنامل أبي، أقبل جدران بيتنــا.. جنتنــا الواسعــة.. كم هو عظيم ورائــع ذلك المنزل الذي شببت على الطوق في ساحتــه. كان الاعتياد في السابق لا يكشف لي كل هذه الروعــة التي عليهــا منزلنــا الكائن في حي الأعظميــة الراقي.. الآن أدرك كم هو كبير وواســع.. بعــد أن خنقتني الأمتار الثلاثــة التي قيدت فيهــا حركتي.. الأمتار المعلقــة ما بين السماء والأرض.. البرج، أو كشك المراقبــة كما أسميناه.

حاولت أن أنتزع إجابات من ذلك الحكيم أبي علّهــا تعينني على الخروج من الحيرة التي ملأت جنباتي.. لماذا نحارب يا أبي؟!.. أنظر إلى بيتنا، لدينا كل ما نحتاج.. الشعب العراقي لا ينقصــه شيء. لماذا إذن قــدر علينا أن نموت هناك؟! اعطني الجواب يا أبي.. لكن أبي يراوغ: «ياولدي الخدمــة العسكريــة واجب وطني، والهروب معناه الموت». إذن لا جواب.. لا يربطني بتلك الحرب الملعونــة سوى الخوف من العقاب وجلب العار والألــم للعائلــة.. وعدت إلى هناك.. إلى البرج والماء الآسن.. هذه المرة لا ضجــر.. يومان فقط.. في العاشر من حزيران عام 1987 هجم الخمينيون من كل الجهات.. اللهيب المتصاعد أحال زرقــة السماء إلى ألوان مختلطــة.. الأحمر فيها الغالب.. كان هدفهم القضاء على

الفرقـــة 35، أمرت المسؤول عن اللاسلكي أن يرسل المعلومات التي توافرت لي فوراً إلى مقر القيادة.. أمرونـــا بالإنسحاب الفوري.. هرولنا إلى الماء.. هاجمت المروحيات البرج فدمرتـــه.. حوصرنـــا نجاهـــد بحثاً عن مخرج.. جدفنـــا صوب موقع آمن دون فائـــدة.. استسلمت المواقـــع الواحـــد تلو الآخر، أسروا عدة ألوية مشاة.. فصلوا الضباط عن الجنود.. قادونـــا موثوقـــة أيادينـــا إلى ملجيء قديم، ضربونـــا بقساوة.. تبارى حراسنـــا الستـــة في التنكيل بنا.

غسان حمود مساعد قائـــد فرقـــة المدرعـــات العاشرة.. واحـــد من أبطال جيشنا، يحمل عدة أوسمـــة تجســـد البطولـــة.. نجح في هجوم معاكس في فك أسرنـــا.. هرول حراسنا الستـــة مع فلول الخمينيون عبر المستنقعـــات إلى مواقعهم السابقـــة.. خلفوا معداتهم متناثرة عند الحواف وغاصوا طلباً للنجاة.. لم يهنئوا بنجاح هجومهم أكثر من ساعتين.. تحولوا بعـــدهـــا إلى فارين أو أسرى.

إنتفخت أوداج جيشنا لهذا الإنجاز.. إستعرض صدام حسين فرقـــة المشاة العسكريـــة وسط مظاهر وعلامات النصر، مئات المصورين، والبث المباشـــر ينقل إلى شعب العراق وقائـــع الاحتفال.. تسابقت صحفنـــا في الإشادة بمقاتلينـــا المغاوير، نالت فرقتنا جميعهـــا أوسمـــة خاصـــة بهذه المناسبـــة.. رقيت أنا إلى رتبـــة الملازم الأول.. وكان عليّ أن أتلبس روح المنتصر وأزهـــو برتبتي الجديدة.. لكن الخجل والحزن على ما أصاب صديقي الملازم الأول ناظم تبن حالاً دون ذلك.. ناظم كان واحداً من زملائي في الدورة العسكريـــة.. تآلفنـــا أثناء فترة التدريب.. ناظم تعرض لضربـــة مفاجئـــة أثناء الهجوم المضاد من جندي إيراني كان منبطحـــاً على الأرض.. كان ناظم يحرس الجندي المنبطـــح.. فجأة

هب الإيراني من على الأرض وعاجل ناظم بحجر اصطدم بوجهه فأحدث فيه جرحاً غائراً .. صرخ ناظم من الألم.. سالت منه الدماء وأختلطت بالرمال التي تكوّم عليها.. واحد من رجالي فتح على الفور النار من سلاحه المشهر فأصاب الإيراني في مقتل.. لأول مرة أرى الموت هكذا مجسداً.. إنسان يزحف وهو يصارع الإحتضار.. لحظات خاطفة وتتوقف الانفاس المتلاحقة.. العيون الجاحظة تتوقف عن الدوران.. أنها الحرب المعلونة.. مشاعر مختلطة إجتاحتني.. صديقي ينزف.. آخر يموت، عدو غادر.. لكنه بشر، ملعونة أيتها الحرب.

بعد أيام قلائل.. في الخامس والعشرين من تموز 1987 نقلت إلى بطارية هاونات خفيفة.. وحدتي تحمل الرقم (954).. تتمركز عند أطراف الجبهة.. لاحظت التسليح السوفيتي جيد الصنع المتوفر لوحدتي.؛ مدافع حديثة (85 ملم) يصل مداها إلى أكثر من أربعة كيلومترات.. ضباط أكفاء يتميزون بالذكاء أشاعوا في داخلي الاطمئنان والراحة؛ آمر الوحدة الرائد محمد غالب إنسان تعلو الطيبة وجهه فتشيع إلى من حوله.. مقدر من الجميع لبطولته في كثير من المعارك التي قاد فيها الهجوم على العدو.. نصير بكر، وسعد أحمد ضابطان يحملان رتبة الملازم الأول وكانا من بغداد.. لاحظت عليهما النحافة وطول القامة.. وشوارب كثيفة.. يتميزان بالقدرة العالية، والتفكير المنظم والمتطور كما لو كانا قد تلقيا الدراسة في أعرق الجامعات الأوروبية أو الأمريكية.. لاحظت محاولاتهما للتآلف معي، من اللحظة الأولى ضماني إلى مجموعتيهما.. حرصا على حضوري إجتماعاتهما الهامة، ومشاركتهما الطعام في غرفة القيادة التي كانت

بمثابة المطعم.. وكنا هكذا ندعوهـا.. كان اسمها الذي ألفناه.. المطعم.. حتى كدنـا أن ننسى أنهـا غرفـة القيادة.. بعض مناضد خشبية متناثرة في مساحتهـا الصغيرة، وتتحلق المناضد كراسي خشبية أعدهـا الجنود على عجل واضح.. مركزنـا القابع تحت سطح الأرض يضم طوابق عـدة، تعمه الفوضى.. تلال من الأخشاب المتنوعـة الأحجام.. أكياس رمـل عند المداخـل والمخارج وفي الممرات.. مكتظ وخانق نعم.. لكنـه يدعو إلى الراحـة كلمـا تذكرت ذلك البرج الخشبـي اللعين الذي عايشتـه قبل نقلي إلى هنـا..

جلسـة شاي هادئـة ضمتني والرائد محمد غالب.. انكشف فيهـا غطاء ما غمض عليّ في البدايـة.. جاءني الجواب الذي فتشت عنـه.. لماذا قرباني إليهمـا من اللحظات الأولى! .. وها أنـا أدرك بوضوح المعنى الكامن وراء التلميحات المبتورة في سياق الحديث اليومي.. الاحترام إلى حـد الخشيـة.. الود المقارب للتملق.. الحملقـة في قسماتي ومتابعـة مسلكي بانتباه ملحوظ.. وفي كل الأوقات حرص زائـد على تحاشي ما يسيء إلى الرئيس القائـد.. المبالغـة في تجنب أي حديث عن الحكام.. عن صدام.. العائلـة.. وكانوا يتصرفون وكأنهم في حضرة واحـد من هذه العائلـة.. الآن أدركت.. أنهم تصرفوا على ذلك النحو وفق قناعـة تلبستهم أنني بالتأكيد واحـد من آل صدام.. ضللتهم ملامحي شديدة الشبـه بـ «عدي» ابن صدام.. أو هكذا ظنوا، معرفتهم بعديّ جاءت عبر التلفاز والصور التي تنشرهـا لـه صحف العراق.. لم يجهدوا أنفسهم لتحري حقيقتي.. عاملوني من اللحظات الأولى بزعم أنى واحـد من العائلة المتربعـة على عرش بغـداد.. الكلام في حضرتي ملفوف بالحرير.. قال محمد غالب وهو يقبض على راحتي ويرفـع

كأسـه ويبتسم: «أكيـد لك علاقـة جيدة مع أناس ذوي سلطـة في بغداد. فأنت تنتمي إليهم».

غالبت ضحكاتي التي كادت أن تنفجر.. إكتفيت بنصف إبتسامـة، شاركتـه اللعبـة.. لم أنبس بحرف.. تركتـه يتمادى في تملقي، أخذت رشفـة من كأسي، ومسحت شاربي بأطراف أصابعي.. تسليت بالنظر إلى غالب المغلوبـة قدرتـه في مواجهـة واحد من العائلـة المقدسـة كما صورت لـه مخيلتـه.. فاق تملقـه أو في الحقيقـة رعبـه الكامن بين جوانحـه الحـد، عرض عليّ أن أتولى القيادة السياسيـة للوحـدة.. قابلت طلبـه برفض متأدب.. كنت أعرف دوافعـه.. لكن كنت أعرف أن للعبـة حدود.. القيادة السياسيـة للوحدات يقررها حزب البعث.. أيـام قلائل وجاء ضابط شاب بعثـه الحزب ليتولى ذلك الأمـر.

السكون في وحدتي.. برقيـة عاجلـة وتحمل درجـة السريـة.. وأكثر من ذلك جاءت من مكتب الرئيس.. وكانت تعنيني.. موجهـة لذلك الذي راودت ضباط الوحدة ظنون تقارب اليقين أنـه واحد من أسرة صدام.

بغداد في 20 أيلول 1987.

سري وشخصي جداً

استعلامات القصر الجمهوري

يرجى حضور الملازم أول لطيف يحيى لطيف إلى مقر استعلاماتنا حين استلام هذه البرقية خلال ٧٢ ساعة ويعاقب المقصر .. انتهى.

برقية شديدة القصر.. غامضـة.. أثارت دوائر السكوت بين صفوف

ضباط الوحدة.. دعاني غالب إليــه وهو شديد الإضطراب: لطيف، هل فعلت شيئا؟ هل خالفت القوانين؟!.. أجبت قبل أن أعرف بخبر الرسالــة: لا، أبــداً، لماذا؟.. تبسم في حنو أبوي: لطيف، عليك أن تذهب على الفور إلى بغداد، القضيــة تتعلق بمهمــة سريــة هامــة.. قطع عليّ محاولتي السؤال: لا أسئلــة، لطيف.. صديقي.. إرحــل.. إغتصب إبتسامــة ليؤكد إطمئنانــه إلى أن حدسـه عن نوع المهمــة صحيح.

أربعة عشرة ساعــة مسافــة الرحلة إلى المقر الرئيسي في بغداد.. في تمام السادســة مساءً كنت هناك.. العرق ينضح من حلتي العسكريــة، ما أن دلفت إلى قاعــة الاستقبال الواسعــة حتى وجدتــه أمامي.. كان في انتظاري.. خزعل حرب التكريتي عضو حزب البعث الحاكم.. صافحني وقال: إجلس سوف تصل السيارة حالاً.. تمدد الصمت بيننا عشر دقائق تفوق في ثقلهــا عشر سنوات.. فاجئني على غرة: ماذا عن الجبهــة.. قلت: مدهشــة.. لي كل الفخر أن أكون هناك.. كنت أعرف أني أكذب، وعلى الأرجح محادثي يعرف ذلك أيضاً.. الكذب في عراقنــا أصبح عادة.. صار جدارنا الواقي في مواجهــة المجهول.. الكل يكذب، والكل يعرف أن الكل يكذب.. أصبح الصدق عملــة غير قابلة للتداول.

عشر دقائق أخرى ونودي عليّ لأستقل السيارة الواقفــة في محاذاة مدخــل القاعــة.. أدار السائق الصامت المحرك قاصــداً القصر الجمهوري.. المرسيدس الأخرى تتبعنا كظلنــا.. ركابهــا الثلاثــة متجهمون، تلوح الجديــة على ملامحهم.. يبدو أن الأمر غير عادي.. أكبر من جرم اقترفــه شخصي وبساق من جرائه إلى السجن.. تلاحقت أنفاسي.. القلق يعتريني.. رجوت السائق لفافــة أنفث مع دخانهــا بعض مخاوفي لكنــه رد في اقتضاب.. قال: عذراً سيدي أنا لا أدخــن..

عليّ أن استخرج من المخيلة مساري العسكري.. وربما من ساعة مولدي.. هل تلفظت يوماً بما لا يليق في حق الرئيس.. أبداً لا.. هل تذمرت بالطيف من الحرب.. البتة لم أفعل.. ربما وأنت تتسامر مع الوالد أخذت راحتك فتسربت منك كلمة ما في حق واحد من أسرة المهيب الركن، تسربت من فمك لتلتقطها آذانهم المبثوثة خلف الحوائط.. أبداً.. أبداً.. لا يبقى إذاً سوى احتمال واحد.. ربما وأنت في رقادك تتقلب في فراشك، تغط في نومك وتحلم بصوت مرتفع.. قلت في أحلامك ما لا تقدر عليه في الصحو.. يالهول الكارثة ربما كان الأمر متعلقاً بأبي.. أو واحد من أسرتي.. لا.. لا.. نفضت الخاطر سريعاً من رأسي.

غالب..آه ربما غالب.. ربما أخضعوني لإختبار ولاء.. نفخوا أوداجي بأن أكدوا المشابهة بيني وعدي ليستدرجوني إلى فخ الطمأنينة فتنساب من اللاوعي كوامني.. لماذا كل هذا القلق بالطيف.. ربما كان الأمر مجرد سوء فهم.. [illegible] بالله عليك، وحاولت.. حملقت عبر النافذة أرقب أسفلت الطريق [illegible] يجرى في الإتجاه المعاكس للسيارة.. أدرت رأسي أتابع السائق الصامت.. رغبت في مبادلته الحوار.. ربما يعرف شيئاً ما عن الأمر.. لكني تراجعت.. ضبطته هو أيضاً يتابعني عبر المرآة.. هذا المتسربل بالصمت من المؤكد أنه يعرف الكثير.. حمل بسيارته آخرون غيري إلى المجهول.. وجوده في مدار الأسرة الحاكمة أتاح له معرفة الكثير عن الإتهامات والجرائم.. عشرات القصص والحكايات التي يتداولها سكان بغداد، القصص المتراوحة بين الحقيقة والخيال.. يعرفها بالتأكيد كلها.. ياله من ملعون.. لماذا إذاً هو صامت.. لماذا لا يروي بعضاً من عطشي إلى الإطمئنان.. قفزت إلى مقدم

رأسي صورة مشهد عاينتــه الأسابيع الماضيــة عندما كنت في إجازة في بغداد.. أربعــة رجال مقيدون بالزناجير وسط ميدان متسع، يحوطهم العسكر المدجج بالسلاح.. نسوة أصابهن الهوس، أظافرهن الملطخــة بالطلاء تخمش وجوه الرجال المقيدين.. بصقات وركلات ذات اليمين وذات اليسار يلقاهــا المساكين.. لحظات ويقاد المقيدين إلى المشانق المنصوبــة في قلب الساحـــة.. تأرجحت أجسادهم بعد أن ودعتهــا الحياة.

الحشد الذي كان يشهد العرض والإعدام جرتـــه أقدامـــه إلى الشوارع الجانبيـــة.. أدى واجبـه تجاه النظام.. شهد عقاب التجار المجرمين سارقي قوت الشعب.. هكذا وصمهم القائـــد صدام في حديث إلى الشعب وقواتــه المسلحـــة بثـــه التلفاز.. قال: هؤلاء الأقذار والطامعون أرادوا أن يستغلوا الشعب وباعوا سلعــاً بأسعار عاليـــة.. الناس سواء الذين تجمعوا في ساحـــة الإعدام أو من بقوا في منازلهم يعرفون أن الأمر غير ذلك.. يعرفون أن الضحايــا الأربعــة ساقهم سوء الحظ إلى الدخول في ساحـــة المنافســة مع تجار العصابــة الحاكمـــة فكان نصيبهم الإزاحـــة.

أعرف أن الخوف متبادل.. صدام يخاف الشعب.. والشعب يخاف صدام.. وأنهار الدم التي تجري تؤكد تلك الحقيقـــة.. وكان عليّ أن أتعلم.. أن أكون أشد حرصاً.. لكن.. ربمـــا لم أكن حريصاً إلى الحد اللازم.. ها أنـــا في قلب المصيدة.. تأخذني الدوامـــة إلى الأعماق. قفز إلى رأسي خاطر مفزع: ربما استبدلوني بشخص آخر.. ألصقوا بي تهمـــة أرادوا أن يبعـــدوها عنـــه. وان أعاقب أنا بجرمـــه... يا إلهي.. هل هي النهايـــة؟.

وربما كانت البدايـــة؟!.

توقف صوت المحرك فانتبهت والسيارة واقفة في مواجهة قصر نسر بغداد، مقر عدي صدام حسين.. القصر يبدو مألوفاً لي.. رأيته مرات يتصدر صفحات صحفنا السيارة.. وعبر التلفاز.. ساءلت نفسي.. ماذا يريد بي عدي؟!.. فتح لي السائق الباب ودعاني بأدب إلى النزول دون أن ينطق، أو ينظر تجاهي.. وكان في إنتظاري رجلان مهذبان ساقاني إلى داخل القصر، وتركاني واقفاً أنتظر.. أخذت أتأمل ما حولي.. في المواجهة مرآة كبيرة تعلو أرائك مصنوعة من الجلد الأبيض، ومطرزة بالذهب.. الأناقة تسود المكان، وتأخذ بالألباب.. لم يطل أنتظاري.. دقائق قصار وانفتح الباب.

خطا متمهلاً إلى حيث أقف محملقاً.. ابتسامة واسعة يفيض بها وجهه، يقبض بين إصبعيه سيجار الهافانا الكبير.. يا ألطاف اللـه.. من يقف في مواجهتي؟! لطيف يحيي أم عدي صدام، أو أن طول تحديقي في مرآة الحائط الكبيرة أحال صورتي المطبوعة على سطحها الرائق إلى دم ولحم مجسد يبتسم ويقبض على الهافانا..



2 الجنة

○ أنا أعرف عديّ منذ سنوات.. وقت أن كنا زملاء في مدرسة واحدة.. كلية بغداد النموذجية.. وكان والده في ذلك الحين نائباً لرئيس الجمهورية.. عديّ يصغرني بأربعة أيام.. ولد هو في 18 حزيران 1964 وأنا في 14 حزيران.. أيامها لم أكن أحس أن هناك فارقاً بيننا.. وضعية أبيه لم تكن تهمني.. أسرتي موسرة، ولنا بيت عظيم.. بالغ الكبر والفخامة.. يقع في الأعظمية أرقى مناطق بغداد.. أهلي من الاثرياء.. أبي كان صاحب معمل.. ويملك أيضاً ثلاثة متاجر للأدوات الكهربائية.. ويتاجر إضافة لكل ذلك في المرمر وأحجار طبيعية أخرى.. كنا في مصاف الطبقة العليا في مجتمع بغداد.. وكنت الولد الأكبر في العائلة وموضع فخر عند أبي وأمي.. كل ما أبتغيه أحصل عليه.. كذلك كان إخوتي البنات والبنين.. جوتي، روبي، أميد، جولا وجوان.. لم نشعر أبداً أن شيئاً ينقصنا.. كنا نمرح في الجنة.. بيتنا الرائع.. وبغداد الزاهية.. كنت أحب الذهاب إلى المدرسة.. والدي كان شديد الأهتمام بي، دائم المساعدة لي، يتابع دروسي ويرعى مواهبي.. ألقى منه الرعاية المناسبة لوضعي كابن أكبر.. أثناء العطلة الصيفية يصحبني الوالد إلى حيث يعمل.. أرقب حركة البيع والشراء.. أتمرس على فن التجارة.. كان حلمه أن أواصل على دربه.. كان يعدني لأكون تاجراً كبيراً.. وكنت من جانبي شديد الحرص على أن أكون عن حسن ظنه.. أنهيت السنوات

الإبتدائيـة الستـة بتفوق واضـــح.. أول صفي.. معلمتي السيدة فوزيـة كانت دائمـة الاطراء لمواهبـي وقدراتي.. كانت تؤكـد لي في كل حين أنهـا تتوقـع لي مستقبلاً زاهراً.

كنت شغوفاً عند زيارتي لمتجر الأدوات الكهربائيـة بمشاهدة العمال وهم يعملون في إصلاح الأعطال، أراقبهم وهم يعملون على إصلاح الأعطال، أراقبهم وهم يفككون آلات التسجيل، التليفزيونات وأجهزة الفيديـو.. كنت أرغب في تعلم كل شيء.. التعرف على كل قطعـة.. أقضي في البيت جـل وقتي أمارس هوايتي المفضلـة.. رسم اللوحـات الكبيرة.. أصبـغ بألـوان فاقعـة القماش المشدود أشكل بفرشاتي المساجـد والبيوت والأشجار المتراقصـة على شاطىء دجلـة.. من الذاكرة أجـسد ملامح معلمتي واخوتي.

كليـة بغداد النموذجيـة.. أفضل مدرسـة في العاصمـة.. لا بل في كل العراق.. لا ينال شرف الإلتحـاق بهـا سوى أبناء العائلات الموسرة والقويـة، وأبناء الصفوة السياسيـة والعسكريـة.. لاينال غيرهم هذا الحظ.. لكن قد يواتي بعضاً منـه قلـة معدودة من أبناء الطبقات الوسطى ميزهم نبوغ بارز ومواهب ملحوظـة.. هنا فخر العراق.. الشباب المنتخب ليكون الصفوة القادمـة.. التي عليهـا أن ترقى بعراقنـا الحبيب درجـات.

تتألف المدرسـة من المقر الأساسي وعمارتين إضافيتين.. تجاوز مساحتهـا الكيلومتر المربـع.. ملجـأ كبير بناه الكوريون أسفلهـا.. ممرات وغرف شديدة التحصين.. راعـوا عند تشييده أن يصمـد في مواجهـة الغارات النوويـة.. كما حرص مشيدوه على أن يضم بين جنباتـه وسائل الرياضـة والترفيـه.. كما كانت تحفل بأشهى أصناف

الطعـام.

لم يكن المبنى مجرد مدرسـة يلقن فيهـا الطلاب المعرفـة.. أرادوا لهـا أن تكون أكثر.. أن تكون مركزاً لـه أهميـة خاصـة.. معمل تفريـغ للكوادر التي على عاتقهـا سوف تقع مسؤوليـة بناء مستقبل العراق.

لذا حرصوا أن يوفروا لهـا معلمين على درجـة عاليـة من الكفاءة.. أكثر من ذلك اضطلع صدام شخصيـاً بمهمـة إختيارهم..

الطريق إلى المدرسـة الواقعـة في حي الأعظميـة مزدحم بالحواجز.. عند كل حاجز يقف الحراس شاكي السلاح.. يراقبون.. يسألون.. يتحققون من الهويات.. حراس الحواجز والأسوار تابعون لجهاز الأمن الخاص وهو واحـد من الأجهزة الأربعـة التي تشكل العصب الأمني للنظام.. نشعر طول الوقت أننا مقيدون في حجرة زجاجيـة.. معزولون عن العالم خارج المبنى.. لا زوار يتخطون الحواجز.. لا رفاق يجسرون على التفكير في القدوم.. ومن يجسر منا نحن أيضاً على توجيـة دعوة أو يصطحب رفيقاً يلقى العقاب الفوري وربمـا يكون الطرد من المدرسـة من نصيبـه.

حُدد للمدرسـة هدفان.. أن تقدم لطلابهـا القسط الوافر من العلوم، وأن تعدهم ليكونوا أعضاء في الحزب.. تشربهم أيدلوجيتـه السياسيـة وتطوعهم ليكونوا جنوداً للنظام.

الاحساس بالتوجس.. الخوف كان يتمدد في الحجرات.. يزحم الطرقات.. يتحسس المعلمون خطواتهم.. ينتقون ما ينبسون بـه.. كانوا على يقين من أنهم خاضعون للمراقبـة.. وكان هذا جـداً حقيقياً.. المعلمون أعضاء لجنـة الحزب بالمدرسـة يضطلعون بمهمـة مراقبـة

أعمال المعلمين الآخرين.. وكان يتولى أمر هذه اللجنـة ذلك المعلم الضخم البنيان المسمى فازع.. رأس واضـح الضخامـة.. عضلات مفتولـة بفضل احترافـه في السابق للملاكمـة.. سنواتـه تراوح الخمسـة وأربعين.. يخطو في حيويـة خشنـة .. يشيع الفزع والرهبـة فيمن حولـه بكلمـات شديدة الفظاظـة.. يحرص في كل مناسبة على أن يهابـه الكل.. لابـد أنـه جاهد بدأب ليحظى بعضويـة الحزب وبالوظيفـة. نجح في أن تصيب عدوى غلظتـه المعلمين الآخرين فانقلبوا من أشخاص طيبين إلى عدوانيين.. لكن علينا نحن الطلاب.. وكان للقسوة ما يبررهـا في نظرهـم.. لسنـا مجرد طلاب عاديين.. إنمـا طلاب في طريقهم لعضويـة الحزب.. القسوة والخشونـة أدوات للصقل والتهذيب.. التطويـع للدرجـة الأولى في العضويـة.. درجـة مؤيد.

الصف الأول كان بالـغ الصعوبـة.. عالم جديد عليّ أن آلفـه.. عليّ أن أدرس كثيراً.. وتوافق هذا ورغبتي في أن أكون أول الصف.. كما كان عليّ أن أنتبـه للواجبات الحزبيـة.. فالحزب كان الأهم.. الواجبات.. المشاريـع.. برنامج الحزب «التقرير المركزي للمؤتمر القومي التاسـع لحزب البعث»، يحوي بين سطوره قصـة الحزب، النشأة والمسار.. وكان واجب على كل عراقي أن يلم بهذا البرنامج ويردد مقولاتـه.. ويرفـع من شأنـه.. يجعلـه في مصاف الكتب المقدسـة.

عمرى إثنتا عشرة سنـة.. لا أجـد صعوبـة في حضور جلسـة التمرين في اللقاء الحزبي.. لقاءان كل أسبوع.. يستغرق اللقاء ساعتين.. يشدد علينـا المعلمون كي نقوم بواجباتنـا الحزبيـة بدرجـة كاملـة.. إمتحانات متلاحقـة كان علينا أن نؤديهـا.. ليختبروا مدى قدرتنـا على تمثل روح الحزب.. كلمات البرنامج.. شعاراتـه..

كانوا يعلموننـا أن أول درجـة في الحزب هي المشاركـة الوجدانيـة.. تليهـا الفعاليـة الحزبيـة.. ثم الدرجـة النضاليـة.. يحوز بعدهـا الفرد العضويـة الكاملـة.. وينفتح له الطريق إلى التدرج.. من مؤيد بعد ذلك إلى نصير ثم نصير متقدم.. ثم عضو عامل.. ثم عضو قيادة فرقة.. ثم عضو في قيادة فرع.. إلى أن يصل الفرد إلى عضو قيادة قطرية أو عضو قيادة قومية.

حماستي وقناعتي في ذلك الوقت جعلت رحلـة المتاعب الحزبيـة محببـة ومقبولـة.. لي رفاقي.. تعرفت خلالهـا على رفاق مهمين، علي محمد صالـح مثلاً ، والده واحـد من قادة الحزب.. وميض السعدون إبن لضابط كبير في جهاز الأمن الخاص.. أسـامـة قحطان ينتمي إلى عائلـة مدير البنك العراقي المركزي.. وكان أهم أولائـك الرفاق زياد ميشيل عفلق.. إبن ميشيل عفلق.. مؤسس حزب البعث العربي وفليسوفـه الكبير.

زياد كان شاباً لطيفاً مهذباً.. وكان مميزاً: يمشي مختالاً يتكلم بتؤده.. ويتعامل مع الآخرين بتحضر بالـغ العلو.. ملامح شخصيتـه الكاملـة تفوق سنواتـه الأربع عشرة.. أدركت أن علاقتي بزياد لهـا أهميـة عاليـة، لـذا سعيت إلى مصادقتـه.. حاولت أن أدخـل عالم رفقته على مهل.. أنتهز كل فرصـة سانحـة لأبادلـه الحديث.. في تشرين الثاني 1978، وكان يوم إثنين، كنـا قد أدينـا إمتحاناً بالغ الصعوبـة.. جاء إليّ بعـده.. عرض على أن نلتقي خارج المدرسـة.. في نادي العلويـة.

نادي العلويـة.. يالـه من حلم.. مجرة أخرى تسبح في فضاء آخـر.. يقع النادي خلف الشيراتون.. تتجلى في ساحاتـه بغداد الأخرى.. بغـداد الغنى والترف.. كان محط الأنظار يقع في قلب المنطقـة التي

يرتادهـا إلى جانب صفوة العراق المستثمرون القادمون من بلاد الغرب.. جاءوا إلى بغـداد يحملون في حقائبهم أحلام الثراء.. يتاجرون ويتعاملون بمليارات الدولارات.. وفدوا إلى بغداد التي أصبحت محط أنظار الغرب وشركاتـه العملاقـة.. تنافست الشركات ليكون لهـا موضع قدم في العراق.. أضحت بغداد عاصمـة من عواصم الاستثمار.. يتسارع الجميـع إليهـا: رجال أعمال، تجار أسلحـة، محبو اللهو والتسليـة .. يأتون إلى فنادقهـا.. نواديهـا الليليـة.. إلى الحانات.. يعبوا من خمرهـا.. ويسامروا الجميلات لقاء نقود قليلـة. لم أتجاسر على سؤال زياد عن قيمـة الأشتراك الشهري في نادي العلويـة.. سمعت أن القيمـة ربمـا تصل إلى ثلاثـة آلاف دولار على الأقل للشهر الواحـد.

اليوم الجمعـة.. الشمس الحارقـة تتوسط كبـد السماء.. على الرصيف المواجـه لبيتنـا وقفت أنتظر زياد.. جاء في الموعـد تماماً.. سيارتـه المرسيدس وقفت في محاذاتي.. قال إصعد.. وصعدت.. نهب الطريق غير عابيء بقانون السرعـة.. القانون لطبقـة غير طبقتـه.. كنت مرتديـاً أفضل حلـة لدي، زياد كان مرتديـاً حلـة من الكتان الفاتح أبدعتهـا أنامل المصمم «إرماني»، وربطـة عنق من صنع ايف سان لوران وحذاء من صنع «نحوشي».. رائحـة العطر النفاذ تعبق المكان من حولـه.

مدخل النادي بالغ الروعـة: بوابـة كبيرة يحرسها عملاقان يطالعان الهويات وبطاقات الدخول.. لحظ واحد من حراس البوابـة علامـة العضويـة على الزجاج الأمامي لسيارة زياد فأشار في أدب يدعونـا إلى الدخول.. في موقف السيارات المزدحم توقفت سيارة زياد.. هبطنا.. أظهر بطاقتـه لواحـد من حراس الموقف.. قبل أن يهم الحارس بسؤالي

سارع زياد إلى تسوية الأمر، وضع يده على كتفي وابتسم للحارس.. قال هذا صديقي فانصرف الحارس مكتفياً.

خطونا إلى الداخل.. ورحت جمهوراً .. إنها الجنة.. مطاعم.. ملاه.. ألعاب بالكمبيوتر.. طاولات بليارد.. صالات لإقامة الاحتفالات تستأجر في الأعياد والأفراح.. مسابح تتراقص الأضواء على مياهها الفيروزية.. ملاعب بولو.. حقل واسع للعبة «الكروكيت» وآخران لكرةالسلة.

توقف زياد مرات عديدة للمصافحة.. الجميع هنا يعرفونه.. يتبادل الحديث بودّ زائد.. أصغيت باهتمام لحديث دار بينه وبعض أصدقاء لوالده، محور الحديث كان عن أحدث السيارات.. وتطرقوا إلى الثرثرة عن نادي الصيد.. نادي الصيد الأفخم والأرقى بين نوادي بغداد العامرة.. ياألطاف الله.. حتى هذه اللحظة كنت أحسب أن العلوية لايعلى عليه.. التقطت من الحديث المتناثر أن نادي الصيد هو الأرقى.. لا يرتاده غير عائلة صدام وعوائل الوزراء وكبار رجال الحزب، حكى زياد عن المرة التي ارتاد فيها النادي بصحبة والده.. قال بحماس زائد: إنها الجنة.. أبهى من كورنيش Sunset وأروع من Oleandive في ميامي بيتش.. رشف رشفة من كأس اختلط فيه الجين والتونيك؛ مع الثلج والليمون ثم واصل حديثه والكل يراقبه في انبهار.. العشب أخضر خضرة غير عادية.. عندما تلحظه تجول بخاطرك ملاعب الجولف الإنجليزية.. قطرات الندى تتناثر على أوراقه الغامقة اللون.. لحظات من الاندماج طبعت ملامح زياد.. كانت يمناه تقطع الفضاء كممثل قرر أن يحتوي كل الجمهور.. يسلبه فؤاده.. يشده إلى شاشة فضية تتحرك على سطحها الحوريات.. لا أحد يجرؤ على

المقاطعة، أو يودها.. واصل زياد: مسابح صيفية وأخرى شتوية.. كلها مغلفة بالموزييك.. الماء أزرق رائع.. وعاد ليؤكد خصوصية المكان.. فقط الوزراء الذين يعرفهم الحراس جيداً يذهبون إلى هناك.. مرة دخلت إلى هناك سيارة مرسيدس 500 SEL .. في البداية لم أتعرف على السائق.. كانت السيارة تسير وكأنها خالية منه.. لحظات وتوقفت.. واندفع من كان يقودها ولم تلحظه في البداية.. صبي في الثانية عشرة يرتدي حلة سموكنج ناصعة البياض، يتدلى من خاصرته مسدس كبير، ويرافقه أربعة حراس.. الصبي كان إبناً لأحد الوزراء.

وددت أن أستمع إلى زياد حتى الأبد.. قال بجدية: عندما ترتكب ولو غلطة بالغة الصغر.. تطرد على الفور.. أياً ماكان والدك.. ومهما كانت عائلتك واسعة النفوذ.. أي جرم صغير يدفع بك إلى الهاوية.

قال واحد مخاطباً زياد: كيف البنات هناك؟.. أصاب الانزعاج زياد.. قطب جبينه.. تنفس بعمق ولمس براحته مقدم رأسه ثم خاطب السائل: أي مغفل أنت!!.. إنهن غير قابلات للمس على الإطلاق.. حاذر أن تبتسم.. أو تلتفت إذا سعت للتعرف عليك واحدة منهن.. وجه ناظريك إلى الأرض أو إلى السماء.. الأفضل أن ترحل سريعاً.. البنات هناك من عالم آخر حتى بالنسبة لي.. عاود زياد التنفس بعمق.. أطبق قليلاً شفتيه ثم واصل بطريقة تعليمية: أخرج وتسلى، إلعب البليارد أو كرة السلة.. إياك والتحرش بهن.. قال بصورة أقرب إلى الهمس: إنهن مراقبات طول الوقت، إذا نظرت إليهن، أو تكلمت إلى إحداهن سقطت أنت أيضاً في طاحونة المخابرات.. ولجت باختيارك وادي التيه.. أضعت حاضرك والمستقبل.. لن يدعوك وشأنك.. ويالها

من مصيبـة حلت بك لو كانت إحداهن صديقـة لعـدي.

أتاح لي زيـاد عالماً شديد الإثارة.. يوم مشحون بكل ما هو غريب ومشوق.ناس النادي، الحكايات، الغداء.. وهؤلاء الشبان الدارجون إلى عالم الكبار.. في طريق العودة رجوت زياد أن يتوقف رغم أن شارع بيتنـا لم يكن قـد إقترب.. لماذا طلبت ذلك لا أعرف ؟!.. أردت أن أكون وحيداً.. ربمـا.. وربمـا ملأني إحساس أني أقـل شأناً من ذلك الزياد المنتمي إلى عالم آخـر.

قال زياد وسيارتـه تسارع إلى الانطلاق: لطيف، لسوف أُسَرُّ إذا استطعت أنت نيل العضويـة الفخريـة للنادي.. دبر زياد الأمـر بطريقتـه ولم أرغب أن أسألـه كيف فعـل.. المهم أنني نلت شرف العضويـة.. وتتابعت زياراتنا لـه سويـا.

مرة كنا هناك.. اليوم نهـار جمعـة.. شمس الظهيرة تميـل إلى الخلف.. انهمكنـا في لعب كرة السلة.. سمعنا فجأة صوت طلقات ناريـة آتيـة من جهـة المسبح.. اندفعنـا إلى هناك.. حول المسبح تزاحم لفيف من الصبيـة، على أجسادهم «دشاديش» بنيـه غامقـة.. يتوسطهم واحـد بدا أصغرهم، يقبض على رشاش.. عرفنا أنـه حسم بـه نزاع وجلبـة سادت حول المسبح.. أطلق دفعـة من طلقات رشاشـه إلى السماء فخرست الأصوات.. سألت أحـد السعاه.. من يكون الصبي.. تنفس.. قال هامساً: «هست.. هذا عدي صدام».. قلت لنفسي:.. هذا هو إذن.. إبن صدام حسين المشهور.. ورغم أني لم أره إلاّ من جانب واحـد فقد لاحظت أن ثمـة تشابـه بيننـا.. العيون، الأنف، لـون الشعر.. كأن الواقف على مقربـة مني هو أنـا.. في البيت حرصت أن أكتم أحداث اليوم.. لم أحدث بهـا أحداً من إخوتي.. أو

أبي.. جاهدت لأنسى.. لماذا أطلق عدي النـــار؟ لا أريــد أن أعرف.. قفز إلى رأسي حديث زياد وتحذيراتـــه في أول زيارة للنادي.. تذكرت جملـــة قالهـــا بصوت آمـــر: إذا لاحظت أي شيء ، لا تنظر، لا تصغى، حاول أن تبـــدو غير مهتم.. لا تحاول أن تتقرب منهم.. أنهم الأقـــوى.. هم العراق.

بعد عام.. في منتصف الفصل الدراسي الثاني 1979، قال لنـــا معلم الصف أن طالبـــاً جديداً سوف ينضم إلينـــا.. أنـــه قادم من ثانويـــة المنصور.. وكان عدي.. عدي صدام حسين.. اختار لـــه والده صفنـــا.. بعد أن نقلوا إليـــه أننـــا أكثر الصفوف إجتهاداً وجدارة.

ذات صباح ونحن جلوس نتابع بأنتباه مؤشر المعلم وهو يتحرك على السبورة انفتـــح باب الصف دون أن يطرق كالعـــادة.. دخـــل عدي للمرة الأولى.. دخل مرفوع الرأس دون أن يلقي التحيـــة.. إندفـــع إلى آخر الصف حارسان واضحـــا الضخامـــة، وبقي عند الباب آخران.. بينمـــا جلس خامس إلى جوار عـــدي يكتب لـــه الدرس، زاغت أبصارنـــا، وانصرف انتباهنـــا بعيداً عن الدرس وعن المعلم إليـــه.. إلى عدي الجالس في خيلاء.. وكان علينا أن نألف ذلك كل يوم.. طقوس كل يوم.. الحارسان المندفعان إلى المؤخرة، والباقيان إلى جوار الباب، والخامس الذي يكتب الدرس.. عدي كان أكثر الأحيان يأتي مرتديـــاً الجينز والقميص الكابوي.. مشعث الشعر.. إعتدنـــاه كما هو.. كان يأتي ويذهب دون أن يعيرنـــا التفاتـــاً.. حتى المعلمين.. كان الإرتباك والخشيـــة تطبع علاقتهم بـــه.. لم يكن يولي الدروس أو المراجعات أو الإمتحانات أي اهتمام.. على خلافنا نحن الـ 24 صبياً.. كنا نجتهد لنصبح متفوقين.. وهو لا يعنيـــه الاجتهاد.. وليس بحاجـــة إلى التفوق.. في واحدة من

المرات تجرأ معلم وطالبــه أن يتوجــه إلى السبورة ليكتب.. سار متمهلاً.. قبض بأصبعــه قطعــة تباشير وقذفهــا تجاه المعلم ثم أردف قائلاً : دعني وشأني يارجل.. وعاد إلى جوار الحارس.. كان يأتي وليس في صحبتــه أي من كتب الدرس.. يأتي متى شاء ويذهب عندما يريــد.. آخر العام نــال درجــة أول الصف.

قوانين المدرســة الصارمــة كانت تهوى كقطع البلور تحت أقدامــه.. يدوسهــا غير عابيء.. تحت عجلات سيارتــه البورش..

ذات يوم اندفـــع إلى داخل الصف ترافقه صديقته التلميذة في ثانويــة البنات المواجهــة لثانويــة الصبيان.. سلو أحمد السبتي.. شعرهــا أسود كثيف، بشرتهــا في بياض الثلج، عيناهــا خضراوان.. تبرز مفاتنها خلال ثنيات الفستان المكثم.. أخذتنا المفاجأة فأخلدنا إلى الصمت.. فقط نسترق إليهـما النظرات.. تجلس إلى جواره بادية الانزعاج وكأنمــا أجبرهــا على المجيء.. كنا نرقب قدوم معلم الصف.. كيف يجابــه هذا الخرق الصارخ للنظام المدرسي.. أتى المعلم.. سار إلى عدى.. وقف هنيهة، ثم انحنى.. قال بصوت واهـــن: سيـــد عـــدى، هذا لا يصير.. كان الرجل يغالب انفعاله.. ودون أن يغير من جلستــه صاح الصبي في وجهــه آمراً إذهب يارجل وقم بعملك.. إبـــدأ الدرس.. قال ذلك ثم أخذ يربت على يـــد صديقتــه ويضحــك بصوت مرتفـــع.. ويدحرج قلمه الذهبي على النضد..تابــع المعلم الذي ســـار منكسراً إلى السبورة.. بدأ درســـه وكأن شيئاً ما لم يحدث.. نصف ساعـــة حفلت بالتوتر غادر بعدهـــا عدى الصف.. أخذ الصبيــة المبتسمــة في خجـــل ومضى.. نصف ساعـــة جسدت لنا القدرة الهائلــة التي يحوزهـــا ذلك الفتى.. إبن صدام حسين.. الذي أصبح في ذلك الوقت رئيس جمهوريــة

العراق.. في اليوم الثاني أصبح المعلم سيء الطالع في خبر كان.

أحب الحجرات إلى كانت حجرة الرسم.. كنا نذهب إليها مرتين في الأسبوع.. ساعتين نقضيهما في سعادة.. كان الرسم هوايتي المفضلة.. يأسرني.. يفجر كوامن نفسي.. أذكر أول لوحات رسمتها.. كانت لوحات من الطبيعة الحية.. مشاهد من كردستان سجلتها ريشتي عندما صحبني والدي بسيارته الفولفو إلى هناك.. ذهبنا سويا إلى «سرسنك» و«شقلاوا».. في تلك المنطقة نشأ جداي.. كانت موطنهما قبل أن يغادرا إلى بغداد، ويمارس جدي التجارة.. لازال لنا أقارب يعيشون هناك في شمال العراق. أشعر بارتياح عندما أزورهم خلال العطل الصيفية.. وأسجل مشاعري بألوان بهيجة أطبعها على القماش المشدود.

أقام معلمنا معرضاً للوحات صفنا.. ودعا له الزائرين.. شدت لوحاتي الأنظار.. وظفرت بجائزة «أجمل لوحة».. كانت اللوحة عن كردستان.. تسارع الرفاق يقدمون إليّ التهنئة.. حتى عدي.. جاء إليّ وعانقني.. ربت على كتفي.. سألني قائلاً: أريدك أن ترسم لي لوحة، صورة شخصية لأبي الرئيس، أريد أهديها له.

كان هذا في عام 1980، صدام حسين كان قد تولى الحكم رئيساً في 16 أيار 1979، وأيضاً السكرتير العام لحزب البعث، وقائد القوات المسلحة.. جمع الخيوط في قبضته القوية بعد أن تخلص من الرئيس أحمد حسن البكر الذي قالت الحكاية الرسمية أنه مات إثر نوبة قلبية مفاجئة.. لكن الرواية التي تدور على الشفاه أنه قضى عليه بالسم.. قبلها صرعت شاحنة مجنونة زوجة البكر وولده الأصغر بعد أن داست بالقصد سيارتهما الصغيرة.. ملامح المؤامرة بدأت مبكراً.. منذ سنوات يرتب صدام ليعلو سدة الحكم.. ضاق بوضعية الرجل الثاني، رغم أن الرجل الأول لم يكن أكثر من خيال ظل.. هيأ

لقفزتــه طويلاً.. دوام على الحديث عبر التلفــاز.. ألح على الناس.. حتى اختال عليهم الأمر.. قــدم نفســه لهم في صورة المخلص القادر على إحياء بابليون أخرى.. كان يؤكد لهم أن العراق الحاضر هو الخلف الحديث لإمبراطوريــة بابل القديمــة.. لم ينزعج الناس في البدايــة من الإعدامات التي افتتــح بهــا ولايتــه.. ظنوا أنهــا ضرورة.. يزيــح القائــد الأشواك التي تعترض الطريق إلى المستقبل.. لمس الناس إلى جانب وعود كثيرة تحسناً وانفراجــاً في الأسواق وسبل الحياة.. فقد سيطر الرجــل على النفط وعائــداته سريعــا فزادت المداخيــل.

لهذا عندما سألني عدى أن أرسم صورة شخصيــة لوالده ملأني الفخــر. وقفزت إلى رأسي صور الاحتفالات التي عمت بغداد يوم أن تولى صدام الحكم رئيساً للبلاد.. ركضنــا جميعاً في الشوارع والطرقات نصرخ ونتعانق.. ملايين تصيــح بمفردة واحــدة.. صدام.. صدام.. حتى والدى كان فرحــاً.. قال بفخر: الآن سوف يصبح كل شيء أفضل.. سوف يكون العراق الدولــة العربيــة المتقدمــة.. ليس غريباً أن ينخدع والدي.. ذلك المتسم بالحكمــة دائمــاً .. لقد أنخدعنــا جميعاً في ذلك الحين.. الصورة الزائفــة التي أجيد صنعهــا عبر التلفاز.. الخطوات المتلاحقــة ضللتنــا.

كم كنت فخوراً عندما طلب عدى أن أرسم صورة والده.. أن أرسم فخر العراق.. يالــه من شرف كبير.. كل فنان في العراق يطمــح إلى نول هذا الشرف.. الكل تسارع يرسم.. إمتلأت كل الساحات.. حملت البنايات ومداخل الطراق صوراً ضخمــة... صدام الفلاح.. صدام الجندي.. الرئيس.. العظيم.. القوي.. تطالعــك ملامحــه مطبوعــة في كل مكان.

جاهدت كي أظهر أن الأمر عادي.. قلت لعــدي.. حسناً، سوف أرسم اللوحــة أحضر لي من سيارتــه عدة صور شخصيــة لأبيــه.. قلت لــه أحتاج إلى أربعــة أيام . هز رأســه موافقاً. أنهيت اللوحــة في ثلاثــة

أيام.. ووقفت أتاملهـــا.. كانت رائعـــة.. سر بهـــا عدي.. أمطرني بالمديـــح.. قال كلمـــات كثيرة.. بطريقتـــه الشائهـــة التي تكسر الأحرف بعيب خلقي لازمـــه منذ الولادة.. أسنان بارزة تجعلـــه غير قادر على التلفظ كما يجب.. أيام قلائـــل.. وجاءت المكافأة التي رتبهـــا عدي تقديراً لموهبتي.. اتصل بصالـــح الجبوري المسؤول في الحزب وأمره برفـــع مرتبتي الحزبية.. كنت في ذلك الوقت مؤيداً.. صرت نصيراً.

تكسرت المسافات بيننـــا.. أراد أن يقربني إليـــه.. كل يوم يحادثني.. رغب أن نخرج سويـــاً.. بذل لي وعود كثيرة.. هواجس عديدة كانت تجيش بهـــا نفسي وتوعز عليّ بالانصراف عن صحبتـــه... الشبـــه الشديد الذي كان بيننا كان يزعجني.. كان الضيق يلم بي عندما كان الرفاق يشيرون إلى متندرين: أنظر.. هاك عدي.. لم تعجبني طريقتهم في المزاح وكان أهلي ينصحونني بالابتعـــاد عنـــه.. يعرفون ككل أهـــل بغداد ما يتناقـــل عن سيرتـــه.. عبثـــه وجنونه.. كان أبي يخاطبني بقولـــه في هذا الخصوص: كـــن لطيفـــاً ومهذبـــاً ولكن عن بعـــد.. كان يحذرني.

بعد البكالوريـــا قدمت أوراقي إلى كليـــة الهندســـة.. حلمت دائمـــاً أن أكون مهندساً.. لما علمت أنـــه أيضاً تقدم إلى نفس الكليـــة.. سارعت بالانسحاب.. إندرت إلى القانون.. واختفى عـــدي من حياتي ولم أعـــد أسمع عنـــه إلاّ ما تتناقلـــه الأحاديث المتفرقـــة هنا وهناك.. في عام 1986 أنهيت دراستي الجامعيـــة بتفوق كبير.



3 التطويع

○ ها نحن من جديد.. أنا وهو بعد سنوات طويلة.. لازالت الملامح التي خلفتها في آخر لقاء بيننا كماهي.. عيناه البنيتان الواسعتان.. حاجباه البارزان بشعرهما الكثيف.. أنفه المستقيم... شعر رأسه فقط لم يعد كالسابق مشروشاً.. ووجهه مزين بلحية قصيرة بالغ في تنميقها.. حرك سيجاره الهافانا الكبير بين أصابع يمناه.. تعالت ضحكته الصاخبة.. دعاني للجلوس.. أشار إلى أريكة خضراء في مواجهة كرسيه الجلدي.. جلس فجلست.. خلف مقعده مرآة كبيرة مذهبة الإطار..

بدا لطيفاً وهو يبادلني الحديث.. سألني عن أحوالي.. الطمأنينة تتسلل إلى نفسي المحمومة.. تراجعت هواجسي إلى حين.. «كيف وجدت الجبهة» قال ذلك وهو يظهر الاهتمام.. أضاف بلغة العارف: لقد سمعت أنك أصبحت عسكرياً جيداً.. حاولت أن أجعل إجاباتي شديدة القصر.. حرصت على تنميقها حتى لاأنزلق إلى إجابة تودي بي أنا الآن في حضرة من يملك القدرة والجسارة على تدميري.. قلت بأدب وتواضع، أني مرتاح في وظيفتي.

لحظات من الصمت والترقب... راودتني الخواطر.. سنتان أو ثلاث أعود بعدها إلى عالمي.. تجارة أبي.. عليّ أن أتجنب الحديث عن الحرب الضروس التي تأكل رجالنا.. وتلتهم أعمال الباقين وأحلامهم.. لكن طول الجلسة والود الذي طبع حديث عدى جعلاني أنزلق إلى صراحة كنت

أحسب أنها مهلكـة.. قلت لـه الحقيقـة.. أنا لا أهتم بالجيش.. عالمي في دنيا الأعمال.. تقبل ذلك موافقاً: رائـع.. رائـع، أنا أيضاً رجل أعمال.. أود أن تعرف ذلك.. أنا أحب التجار المستقلين.

مال إلى الخلف.. سحب عدة أنفاس من السيجار وأخـذ ينفثهـا لتحلق في سماء الغرفـة الواسعـة.. عاود الاعتدال في جلسته.. حدق إليّ.. قال بشكل مباغت: لا تحاول أن تجمل الوضع، لا تخفي شيئاً، أنا أعرف كل شيء عنك.. فهمت.. كل شيء.. قال جملـته الأخيرة بحـدة ظاهرة.. كان قاطعاً كالسكين.. عاودني القلق.. وقفزت الوساوس من جديد إلى مقدم الرأس.. آمر وحدتي.. ضباطها.. نصير بكر وسعد أحمد، حديثهم الدائم عن ملامحنا المتطابقـة.. كانوا يتجسسون عليّ.. يراقبون خطوي وكلامي.. كانوا رجال عدي.. زرعهم في طريقي.. هكذا قلت لنفسي عندما حوّمت جملتـه القاطعـة حول رأسي.

«هل تريد عصير البرتقال؟» أخرجني من لجـة أفكاري جاوبتـه: نعم.. نعم.. من فضلك.. دخـل الخادم في سروال حالك السواد تعلوه سترة بيضاء.. ويماثل بياض القفازات التي يرتديهـا بياض السترة.. جاء يحمل عصير البرتقال في ذات اللحظـة التي أجبت فيهـا بنعم.. ولم ألحـظ أن عدي ضغط بأصبعـه جرس أو هاتف يطلب الخادم.. كيف.. لا أعرف.. لكنـه أتى لي بعصير طازج.. أعطاني إيـاه دون أن ينبس.. أو ينظر تجاهي.. هكذا درب خدم السادة.. عليهم أن يتحاشوا النظر إلى مخدومهم أو إلى ضيوفه.

الأوراق التي تغطي حوائط الغرفـة تصرخ بألوان الباستيل.. الأرض مغطاة بسجاد نقوشـه غايـة في الإتقان.. الأثاث المتناثر متناغم مع الحوائط وسجاد الأرضيـة.. باقات من الورود النضر يحفل بها المكان..

تخنت رشفة من العصير الطازج.. تلاقت نظراتنا طال الصمت بيننا لحظات.. كان يتأمل ملامحي.. يطالع فيهـا صورتـه.. الشعر الأسود الجعـد.. العينان البنيتان تكحلهمـا رموش طويلـة.. الحاجبان الكثيفان، الرأس البيضاوي.

أشعل من جديد سيجار الهافانا.. شاربـه الكثيف يغطي شفتـه العليا.. لم تعـد أسنانـه البارزة التي عرفناه بهـا في المدرسـة الثانويـة واضحـة.. حجبهـا الشارب البالـغ الكثافـة واللحيـة الكثـة. اللحيـة والشارب مدخلنا عند السادسـة عشرة إلى عالم الرجولـة في العراق.. لقد حرمتني العسكريـة من لحيـة مهندمـة كنت أنا أيضاً أحرص عليها.. غير مسموح بهـا.. تعوق قناع الغاز الذي يصاحبنا دائمـاً.

أردت أن أسألـه . كيف كانت دراستـه في الهندسـة.. بدا لي السؤال في غير موضعـه.. لقد تقطعت السبل بينا منذ أن افترقنا بنهايـة البكالوريـا.. لم أره بعد تخرجنا من المدرسـة الثانويـة.. لحظات خاطفـة كنت ألمح سيارتـه تتمهل أمام الجامعـة لينتقي صاحباتـه.. يخطف إليهن النظر، ويترك مهمـة إحضارهن للحراس.. ياويل من كانت تتجرأ على الرفض أو الممانعـة.. انحبس السؤال عند سقف الحلق ولم تطاوعني الكلمات فعدت إلى الصمت.. عاد إليّ يخاطبني وابتسامـة باهتـة تعلو ملامحـه: لطيف.. أنا إنسان صريح.. لا أحب المراوغـة.. ثم هب واقفـا.. دار في الغرفـة بخطوات متمهلـة... أسند يسراه على الموقـد البارز من الجدار.. قال مباغتـا: أريدك أن تعمل معي.. كان لجملتـه وقع الصاعقـة.. يالعبث الأقدار.. لقد جاهدت كثيراً لأكون بمنأى عنـه.. استدرت إلى دراسة القانون عندما أختار

الهندســة.. سنوات طويلـة فرقتنا.. الآن يريد أن يقوبني إلى قفصـه الذهبي.. تسربلت بالصمت علني أهضم المفاجأة.. حاولت أن أتمالك.. أرتب لجواب جملتـه.. قلت متمهلاً أنني هنا لا أتكلم مع ابن الرئيس.. أتحدث إلى زميل الدراسـة.. مع الرجل الذي أبدى إعجابـه الواسع بالصورة التي رسمت.. هل تذكر؟.. كنت أحاول أن أنفلت بعيداً عن جملتـه.. قاطعني: نعم.. نعم.. ولكنـه عاد إلى السؤال: هل تريد أن تعمل معي؟.

بإمكاننا أن نتكلم بصراحـة.. قلت هذا وتوقفت برهـة ثم واصلت.. ماذا تريد مني؟..

قال: أريدك أن تكون الفدائي عني.

فدائي؟؟ أي فدائي يريد هذا الرجل.. هوت الكلمـة كالمطرقـة تدق رأسي.. يريدني أن أكون بديلاً يتخفى خلفـه.. يريدني عدي آخـر..

جاء الجواب أخيراً للسؤالات التي أصابتني بالحمى.. عرفت الآن معنى المراسم التي استدعيت بهـا.. الرجل الصامت في مركز الحزب.. المرسيدس التي أقلتني.. ساحـة القصر التي ولجت إليهـا.

فدائي.. أي كلمـة هذه.. إنها تعني ببساطـة أن لطيف أصبح في عداد الموتى.. الآن يوجد عديان.. الأصل والصورة.. الأصل والبديـل الذي يدفع إلى مناطق الخطر ليكون كبش فداء.. وكان ذلك معهوداً في عراق صدام.. الناس كلهم يعرفون أن لصدام أكثر من بديل.. أول بديل سقط في عمليـة قصد بهـا اغتيال صدام عام 1984.. في منطقة الدجيل خارج بغداد. غامت الصور أمام ناظري.. تداخلت لوحات الغرفـة لتصنع لوحـة سرياليـة تسرخ ألوانها المنعكسـة على المرآة الكبيرة خلف عدي الأصل فتصيبني بالدوار.

تذكرت ذلك اليوم الذي فاجأني فيه قائد وحدتي عن فواز العماري.. قال هل تعرفه..لم أنتبه يومذاك لمعنى السؤال.. من لا يعرف أن فواز العماري هذا هو البديل الأساسي لصدام.. قلت ساعتها أن الرجل لا يعني أكثر من المداعبة.. أو معاودة التلميح للشبه الذي يجمعني وعدي..

جاهدت لأجد جواباً لسؤال عدي.. جواب لا يدفعني إلى التهلكة.. صار جسدي يرجف.. محاولاً كسب الوقت قلت: أنا لا أفهم سؤالك.. هل عليّ أن أحميك.. أو ماذا تعني؟.

رفع رأسه.. تنفس بعمق.. ألقى سيجاره على المنضدة.. وفتح ذراعيه في حركة تمثيلية.. قال: هذا يمثل لك شرفاً.. أن تكون تحت إمرة ابن الرئيس.. قال ذلك بعصبية واضحة.. علامات الضيق بتلكوي بانت واضحة على وجهه.. عاد إلى سيجاره الهافانا.. أخذ عدة أنفاس متلاحقة.. حومت سحابات الدخان حول رأسي.. قلت معلقاً على جملته الأخيرة: ولكننا كلنا أبناء الرئيس.. جملة تعلمتها في دروس السياسة الحزبية.

الآن عليه أن يكون حاسماً.. نحى اللباقة المصتنعة جانباً، قال بحدة: هذا لا يفيدك بشيء.. لقد تركناك طويلاً تحت المراقبة.. نحن نعرف كل شيء عنك.. إلى أين تذهب.. مع من تتكلم.. كل شيء عن أهلك نعرفه.. حتى حساباتهم في البنوك نعرف دقائقها.. وبالطبع حسابك أنت.. عليك أن تفهم.. أنا أريدك لأنك المناسب.

سؤال متلعثم تكسر قبل أن يصل إليّه: أقدر أن أحميك.. أنا؟!.

قاطعني بحدة: ليس المطلوب أن تحميني.. المطلوب أن تعيش دوري، تكون تحت إمرتي.. صورة لي.. حدق فيّ.. نظراته تخرق جسدي.. تصيبني بالحمى.. زاده صمتي انفعالاً.. صاح بي: ماذا، أنت لاتريد أن

تكون ابن صدام حسين؟!.. الآن هو يهددني.. لقد صبر عليَّ طويلاً.

كانوا في العادة يختارون البديل من العائلـة.. إبن العم . إبن العمـة.. إلى غير ذلك.. فعلوا هذا لقصي الابن الثاني لصدام.. لكن عدي مختلف.. لم يجدوا لـه البديل المناسب في العائلـة.. وقع اختيارهم على رفيق دراستـه.. عليَّ.. أنا لطيف يحيى.. وكان الواجب أن أفرح.. أشعر بالغبطـة لهذا الاختيار.. شرف يطمـح الكثيرون أن ينالوه.. لا أن يدفعهم إلى الهم والكرب.

23 أيلول عام 1987.. يوم المهالك.. هكذا استقر اليقين داخلي.. لامهرب.. دُفِعت إلى الزاويـة.. لا معارضـة هكذا أرادوا.. طلباتهم مقدسـة.

في محاولـة أخيرة للتملص.. قلتُ: فخر لي أنك اخترتني لأعمل معك.. لكن لا أستطيع أن أكون غير شخصي.

جرب أن يرتدي قناع الحكمـة: خذ وقتك.. ليس عليك أن تقرر على التو.. صمت للحظات وأضاف: سوف أتركك الآن لتفكر، وعندما أعود أود أن أسمع الجواب النهائي.. نعم أو لا.

تركني أتمزق وخرج.. القبول يعني التهلكـة والرفض أيضاً .. الدقائق تمر متثاقلـة.. أقلب الأمر في رأسي علني أجد مخرجـاً.. كيف عليَّ أن أحاور هذا العدى الذي لا يعرف غير لغـة الأوامر ولا ينتظر غير الانصياع.. أصاب الشلل رأسي.. تهالكت على المقعد.. حاولت اجترار المصاعب التي واجهتهـا قبلاً.. القرف الذي غرقت في لجتـه وقت التدريب في غرفـة الصاعقـة.. الصراصير والأفاعي.. الماء الآسن والحيوانات النافقـة.. غلظـة المدرِّب وفجاجتـه.. تعرضت لمحن متلاحقـة.. لكني الآن أمام المحنـة الأعظم.. وبل الطامـة الكبرى .. أتململ في مجلسي.. التوتر والقلق يدفعاني إلى الجنون.. أردت أن أشعل سيجارة لكني توقفت.. أقوم وأقعـد.. أذرع الغرفـة وألتصق بالحائط..

انتبهت بغتـــة على حارس يمرق إلى الداخل.. يسألني في أدب: هل يريد سيدي شيئاً.. طلبت كوب ماء.. جاء بـــه على التو.. لم ألمســـه.. إنصرفت إلى المرآة أطالع صورتي.. الأوساخ تغطي حلتي العسكريـــة.. وجلدي أيضاً .

قال إنه سيعود بعد عشر دقائق.. مرت ساعـــة كاملـــة ولم يأت.. إنها لعبـــة الانتظار المألوفـــة.. هكذا يفعلون في غرف التحقيق.. يتركونك تنتظر لتتساقط إرادتك.. يحرقك القلق.. يأتون بعد أن تكون قد فقدت القدرة على المقاومـــة.. نصف ساعـــة أخرى ثم جاء .. دخل ضاحكاً.. كلماتـــه تسبق خطواتـــه: لماذا أنت قلق ياصديقي.. أدركت أنـــه كان يراقبني.. من المؤكد أن بالغرفـــة كاميرات خفيـــة جعلتني رهن المراقبـــة.

قلت متشوقاً للجواب: ماذا لو وافقت؟

قال باسماً: عندها تصبح أخي، تحصل على ما تشاء، كل طلباتك نافذة، سوف تتفتح أمامك حياة واسعة.. كل ممتلكاتي سوف تصبح ممتلكاتك أيضاً.. هل تفهم، سوف تصبح أخي.. قلت: هذا بالتأكيد شيء رائـــع، ولكني لا أستطيع، أنا ضابط في الجيش، سنوات أعود بعدهـــا إلى حياتي.. كما قلت لك أرغب أن أكون تاجراً.. ما تطلبه أكبر من طاقتي.. أضفت في رجاء: سيدي.. لا أستطيع.. بركان من الغضب يوشك أن يقذف بالحمم.. اندفع تجاه باب الغرفـــة.. فتحـــه بقوة ووقف.. استدار إليّ.. حاول أن يلجم غضبـــه.. قال والقرف يطبع ملامحـــه: هذا ليس بمشكلـــة.. سنبقى أصدقاء على كل حال.. قال جملتـــه وأغلق خلفـــه الباب بعنف.. دقائق وعاد الباب للانفتاح.. دخل حارسان.. عزام التكريتي وسلام العوسي.

قبضا عليّ بقوة المتني.. مزقا نجوم رتبتي العسكريـــة.. دفعاني إلى الخارج معصوب العينين.. إلى سيارة واقفـــة أدخلاني.. أي سيارة هي

لاأعرف.. لكني خمنت.. ربما المرسيدس التي أتت بي.. هي بالتأكيد.. أحس نعومــة المقعد.. صوت المحرك.. صوت الأبواب وهي تغلق.. وانطلقت السيارة.. لا أعرف كم مر من الوقت أو إلى أين نسير.. حاولت التوكأ على سمعي بعد أن أفقدتني العصابــة نعمــة الإبصار.. أحاول أن أسترجع مشاهد مررنا بهــا عندما أتينا.. كأن السيارة تدور حول القصر.. لم أسمع صوت مزلاج البوابــة الكبيرة.. لم نعبر الجدار المكهرب الذي يحصن مركز صدام.. بالقطع لم نغادر بعد منطقة القصر الجمهوري.

أخذت في التذكر.. القصر يقع في الجهة الثانية لبغداد جهة الكرخ على شاطيء دجلــة.. كيلومترات عدة تحتلهــا منطقة القصر.. ويصنع النهر مانعــاً طبيعيــاً للقصر.. لكن هل قاربنا النهر.. لا أظن.. صوت مياهــه لا تصل مسامعي بعد.. أسمع فقط صوت انسياب السيارة على الطريق.. أسترجع ملامح قصور العائلــة الحاكمــة التي يمر أمامهــا الطريق.. أضخمها وأكثرهـــا شموخــاً القصر الجمهوري.. قصر صدام.

عندما كنا على الجبهــة عرفت أن شركــة فرنسيــة قامت بتجديد القصر.. زودتــه بأفخم الأثاث.. زودتــه بأحدث الأجهزة الأمنيــة.. حصنتـــه ضد صواريخ الإيرانيين التي كانت تستهدف ساكنـــه.. للقصر أربــع مداخل رئيسيـــة.. الأول على الجهـــة الغربيــة عند الجسر المعلق.. سموه البوابــة العائليــة.. يدلف خلالهـــا ركب صدام والعائلــة.. والوزراء وعائلاتهـــم أيضاً.. لقد دخلت بي المرسيدس في المرة الأولى عبر هذه البوابــة.. المدخل الثاني عند الجسر الجمهوري شمال القصر إسمه بوابة بغداد، وكان مخصصاً لأعضاء القيادة القطرية والقيادة القومية وأعضاء مجلس قيادة الثورة.. وهناك بوابــة ثالثــة تصل مابين الجناحين الشرقي والشمالي.. خصصت لأفراد القصر.. البوابــة الرابعــة.. إسمها بوابــة الأسد.. خصصت لمدير وأعضاء جهاز

الأمن والمخابرات.

المسافـة بين البوابات ومبني القصر 1500 متر على الأقل.. وكانت محكمـة إلى درجـة تعجز حتى الدبابات على اقتحامهـا.. الباحـة التي حول البوابات وعلى إتساع 900 متر أمام كل بوابـة ثبتت قواطـع مدببـة واسعـة القطر.. ترقد في بطونهـا المسامير الحادة.. تقفز إلى أعلى بلمسـة زر يقوم بها حارس المراقبـة.. القواطع قادرة على اعتراض أي سيارة ملغومـة تحاول الانفلات إلى القصر.. حول القصر ينتشر فضاء واسع يزيد على ثلاثـة كيلومترات.تعسكر فيـه أفواج من الحرس الخاص.. أفضل الفرق وأحسنهـا تدريباً.. من الفوج الثاني إلى الفوج التاسع.. المباني التي حول القصر أفرغت من شاغليهـا.. سفارات عدة كانت تحتلهـا نقلت إلى أماكن أخرى في بغداد.. مستشفى ابن سينا القريب حول إلى مستشفى خاص بأهل القصر.

توقفت السيارة بغتـة.. لا أعرف أين.. أمرت بالنزول.. دفعني الحراسان بغلظـة أمامهـما.. صعدنـا بضع درجـات.. دلفنـا عبر مداخـل ضيقـة.. في غرف توقفنا.. رفعوا الغطاء عن عيني.. الغرفـة بالغـة الصغر.. متر ونصف بالكاد . لا نوافـذ فيهـا.. خاويـة تماماً من أي أثاث، حوائطهـا مدهونـة بلون أحمر ناري.. الأرض أيضاً عليهـا بساط بلون الحوائط.. السقف بالغ الارتفاع يتدلى منـه مصباح مطلي باللون الأحمر.. اصطك باب الزنزانـة.. أحكم الحارسان الرتاج من الخارج.. سجين أنا إذن.. أغلقت عيناي... آلمني اللون الأحمر.. لون الحوائط والأرض وضوء المصباح.. آلامي تتزايـد.. أتكور على البساط.. أقوم وأقعد أنظر إلى السقف البعيد.. رغبت في قضاء الحاجـة.. الغرفـة خاويـة.. ثلاثـة أشياء لا رابع لهـا.. أنا والسجادة ومصباح السقف.. هكذا أرادوا «ضغطت بيمناي على مثانتي لأمنع الألـم».

كم مضى من الوقت وأنا هنا.. لا أعرف.. تعطلت حواسي كلهـا.. غامت المرائي.. غرقت في اللجـة الحمراء التي أغرقوني فيهـا.. خطوات ثقيلـة تروح وتجيء.. الحراس يقطعون الممر.. اسمع صوت المفاتيح تقتحم أقفال الغرفـة المجاورة.. عاثر حظ آخر.. ترى هل هو قادم أم مأخوذ إلى الهاويـة.. تقوقعت في الزاويـة المقابلـة للباب الموصد.. تسارعت دقاق قلبي.. أسمعهـا صاخبـة تؤلم صدري.. أحكمت إغلاق عيني.. تمنيت أن أحوز في هذه اللحظـة مسدساً.. أن أصوبـه تجاه الباب.. أضغط باصبعي الزناد.. أفجر القفل الموصـد.. أو رأس الحارس إذا جاء.

انفتح الباب وكنت أقبض على الفراغ.. دخل عزام يحمل بيمناه صينيـة.. تعرفت عليه خلال الضوء الأحمر.. قال في خشونـة: كُل شيئاً.. ثم استدار عائداً.. أغلق خلفـه الباب.. جلست ألتهم الطعام.. كان الطعام شهياً رغم رداءتـه.. أكلت بنهم بالغ.. أكلت وأنا مكوّم على الأرض.. أكلت في استعجال.. خفت أن يأتي الحارس من جديد وينتزع مني الصحن قبل أن أنتهي من الطعام.. توالت أيام لا أعرف عددهـا.. يتمدد الألم داخلي.. يخترق عظام الفخذ والمرفقين.. نار موقدة تتأجج في ظهري.. تصطك أسناني من الألم.. تنسال دموعي من الحرقـة.. اللون الأحمر يعشي بصري.. صوتي يتحشرج حشرجات متقطعـة.. جفاني النوم رغم حاجتي لـه.. تعرفت على رداءة الطعام على عكس المرة الأولى.. كل يوم الوجبات ذاتهـا.. طعام الغداء قطعـة خبز وماء.. حبات أرز معجونـة في الماء.. الماء قاسم مشترك.. منحوني إياه بأريحيـة.. أرادوا أن أملأ جوفي وأبول.. أين أيهـا الخبثاء.. لوسألتهم لقالوا الغرفـة واسعـة.. الرغبـة والحاجـة تقتلانني .. أنساب البول على السجادة اختلط بلونهـا الأحمر.. رائحتـه النوشادريـة تزكم أنفي.. قلت متأففاً لن أفعلهـا ثانيـة ولوكان في ذلك موتي.. لكني فعلتهـا

مرات.. الألم يدفعني إلى الصراخ.. أدق بقبضتي الحوائط الصلدة دقات مجنونـة.. أصرخ برجاء، أتوسل.. بالله عليكم كفى إهانـة لشرفي.. أدرك أن صرخاتي تقبر في الفضاء الموحش من حولي.. توقفت عن التوسل فقط صرخات بلا معنى.. دقات تؤلم القبضـة والرأس وبطن القدم.. الرائحـة النتنـة المنبعثـة من فضلاتي تحرق أنفي.. عيناى الغائمتان المحملقتان إلى الحوائط الحمراء تضبطان خيوط دم قان مطبوعـة.. أصابعي تلامس البقع الجافة.. ربما هى لشخص آخر سبقني إلى هنا يوماً ما.. تنفست الصعداء.. لم أصل إلى هذه الدرجـة.. لم أنزف بعـد.. لم تتلطخ الحوائط بدمي.. أحس رطوبـة الأرض بعد أن فقدت البساط.. صنعت منـه غطاءً لفضلاتي التي في الزاويـة.

أحاول أن أجمع شتات نفسي.. أحسب الأيام.. استعنت بمرات الطعام.. 7 قطع من الخبز.. و 7 مرات أرز.. إذن هي سبعـة أيام.. سبعـة أيام في هذا الجحيم الأحمر المعبق بالنتن.. ثم دق الباب وانفتح.. انتبهت.. ليس وقت قدوم الخبز أو حبات الأرز.. حدقت في المواجهـة.. كان عدى.. صورتـه غائمـة أمام بصرى.. تعرفت على صوتـه الأجش وهو يخاطبني ساخراً: أهلاً لطيف.. كيف حالك هنا.. قالهـا وانصرف.. عصب الحراس عيني بقوة آلمتني وسحبوني إلى الخارج.. عبروا بي ممرات وغرف متلاحقـة.. أحس لسعات شمس أيلول تضرب رأسي.. تدوس قدماي العاريتان العشب الرطب..أوقفني الحراس.. نزعوا العصابـة.. الضوء الباهر آلمني.. أحرق أهداب عيني.. أحسست النار في مقلتي.. غطيت بالكفين عيني لأمنـع الألم.. من بين فتحات الأصابع لمحتـه أمامي.. ينظر إليّ في سخريـة.. لا زال اللون الأحمر مطبوعاً في مقلتي.. العشب أحمر.. كذلك الأشجار وصفحـة السماء.. وعدى.. قميصـه وسروالـه.. وحتى أسنانـه البارزة بدت لي حمراء ناريـة.

انتظر لثوانٍ حتى تعود كفاى إلى موضعهما الأول.. قال وهو يعبث في

شعيرات لحيتــه: هل فكرت بعرضي؟.. أضاف: من المؤكـد أنك غيرت رأيك.. أليس كذلك؟ قال ذلك وهو يعرف ماعانيت.. يثق في وسائل قهر الإرادة التي يستعين بهـا على تحطيم الآخرين.

قفز الغضب إلى رأسي.. اختلط بالألم الذي سكن حدقتي تقافزت الكلمات من بين أسناني.. قلت في مواجهتـه: ضباط الجيش العراقي غير مسموح أن يقبض عليهم دون علم وزير الدفاع.. هذا قانون.. أنا لم أقتل أحداً.. الغضب والانفعال جعلاني أتمادى: لم ألطخ بالأوساخ عائلتك.. يجب على الوزارة.. قاطعني مهتاجـاً: يجب ماذا؟ ألف ضابط مثلك لا يساوون حذائي.. كلمات التهديد الهادرة تتلاحق: أنا قادر على أن أطلق كلابي عليك وعلى أخواتك البنات.. إذا أعدت قول ذلك ثانية.. أخواتك البنات هل تفهم.. قال ذلك بصوت صارخ.

أدركت أني هالك إذا تماديت في المعاندة.. كلابـه الشرســه جاهزة للانطلاق سمعت حكايات وحكايات.. كلهـا شديدة البشاعـة.. الكلاب كانت وسيلـته للقهر حتى عندما كان لا يزال طالباً في الجامعـة.. نهلـة ثابت بنت جميلـة.. كانت تدرس في أكاديمية الفنون الجميلة.. أرادهـا فتمنعت.. خطفهـا حراسـه من أمام الجامعـة.. قادوهـا إلى شمال بغداد.. إلى حقل الكلاب المتوحشـة.. أول الكلاب كان عدي.. انتهك عرض نهلـة.. مارس عليـها ساديتـه.. ضربهـا بقسوة بعد كل جماع.. ولما ارتوى.. تركهـا للكلاب المتوحشـة تنهش الجسـد البغض بشراسـة.



التمرين 54

أشعة الشمس الحادة تلمع.. تخرق زجاج السيارة.. لم يعد الضوء يؤلمني.. عبرت القافلة بوابة العائلات إلى خارج القصر.. لم تتوقف عندها.. اكتفى سائقو السيارات الأربع بتخفيف السرعة ليتعرف الحراس على كنه السيارات.. كانت سيارات عدي.. أدى الحراس التحية للقافلة وأشاروا لها بالمرور.. انحرفت القافلة يساراً.. قطعت بضعة كيلومترات وتوقفت إلى جوار المكتب رقم (7).. واحد من ممتلكات عدي الخاصة، دققت النظر في هيئة سائق السيارة.. متسربل بالصمت.. تحسبه تمثال من الشمع توحد مع عجلة القيادة.. هكذا رأيته عندما أتى بي إلى القصر في المرة الأولى .. وها هو على حاله الآن أيضاً.. نفس السيارة ونفس الحارس.. الجديد هذه المرة أني جالس بين حارسين..

أحس الخواء داخلي.. جذوة حريق تلسع حناياي.. شعور بالهوان يتمدد داخلي.. الأوساخ العالقة بجسدي والحلة تصيبني بالانكسار، الكابوس الذي عشته طيلة أسبوع كامل لا زال يكتم أنفاسي.. المرائي تتداخل في الرأس.. لم أعد قادراً على الفهم.. هدني التعب والإرهاق.. كل ما أعرفه أني وافقت على العرض.. بعت نفسي لعدي، الذي تسللت كراهيته إلى جسدي المنهوك ونفسي المستباحة.. شعور بالانتصار أصابه بالنشوة عندما نطقت بالموافقة.. ضحك بفجاجة سوقية وقال: «انظر.. من الآن أنت لست صديقي فقط.. بل أخي أيضاً»، ياله من شرير.. يعرف أن جملته زائفة.. ويعرف أني وافقت مرغماً.. ليس بفعل الألم فقط.. وإنما بفعل الخوف أيضاً.. الخوف على عائلتي.. ذلك الوحش قادر على

تدميرها.. يودون بالمئات دون آن تطرف عيونهم.

كراج واسع للسيارات تزحمه السيارات ولايرى من الشارع.. الخضرة المعتنى بها تتحلق المبني كبساط أخضر.. البوابة الخشبية مزينة بنسر عراقي واضح الضخامة يحمل ألوان العلم العراقي.. الأحمر والأخضر والأسود والأبيض.. تعلو النسر ثلاث نجوم سوداء مصنوعة من السيراميك.. الكاميرات على جانبي البوابة ظاهرة.. البوابة لا تحمل مسمى مالكها.. فقط علبة زجاجية بداخلها جهاز نداء آلي.

عندما جاورت أقدامنا البوابة أنفتحت إلى الجانبين أتوماتيكياً، قدت إلى الداخل.. سار بي حارساي في بهو الطابق الأول.. بهو كبير واسع يقود إلى مسبح رخامي.. على يمين المسبح بار حوائطـه من الرخام الأسود اللامع، تتخلل سوادة بقع بيضاء غير منتظمة.. حول الحمام بضع مقاعد من البامبو عليها وسادات بياضها ناصع.. تحمل زخارف ذهبية.. عدة ممرات تتقاطع على شكل نجمة تصل المسبح بالغرف.. الغرفة التي على اليمين اتخذها عدى مكتباً لإدارة أعماله.. قادني الحارسان إليها.. واسعة ومستطيلة.. حوائطها خلت من الزخرفة وأثاثها بالغ البساطة.. في الزاوية منضدة عليها لوح لامع للكتابة، وإلى جوارها مقعدان لونهما فاتح.

في الخلف إلى جوار المنضدة خزانة محشوة بكتب الأدب العربي.. أجزم داخلي أنه لم يتصفح واحداً من هذه الكتب.. وضعها للزينة.. للمباهاة.. على ظهر المكتب وثائق وقلم حبر كارتييه وقداحـة.. وكابل كهربائي أسود.. سميك ومبروم.. يصل طوله إلى ثلاثة أرباع المتر.. أريكة واسعة كافية لجلوس أكثر من عشرين شخصاً، أمامها طاولة جلدية.. على الطاولة إناء زهور من الحجر الأسود.. لفائف تبغ.. قطع من الحلوى.. أطباق لوز وجوز متناثرة على الطاولـة.

كان الثلاثة ينتظرون في الغرفة.. يعرفون أني قادم:

منعم حمد التكريتي مدير المتابعة السرية الخاص.. نحيل.. أطول مني قليلاً.. رمادي الصدغين.. حياني بلطف.. أراه للمرة الأولى.

الثاني أعرفه ككل أهل العراق.. زياد حسن هاشم الناصري صديق صدام، وصهر روكان حارس الرئيس الخاص.. زياد حسن هاشم الناصري، عيون رماديـــة ووجــه حاد.. أنف مقوس مثل أنف النسر.. الرجل قاس في برود.. قاتل بالجملــة.. متوحش.. شارك في تنفيذ معظم الإعدامات التي أمر بها صدام.

الرجل الثالث.. سعدي دحام هزع الناصري.. إبن عم لصدام حسين في مقتبل العمر، تعلو ملامحه علامات الذكاء.. لكنه غير ودود..

تولى عزام حارس عديْ تقديمي للضباط الثلاثـة.. خاطبني منعم.. قال بود: إجلس.. استرح.. لقد كلمنا عدي عنك.. قال إنك محارب شجا ع.. إني مسرور أنك أتيت من تلقاء نفسك.. من تلقاء نفسي؟! أي استهزاء هذا يارجل.. قلت ذلك لنفسي.. مد الرجل خيوط الود.. عباراته المنمقـه تسعى لتهدئـة خواطري.. عاملني معاملة رفيق رحلة صعبة تلوح في الأفق.. أسرتني مودتـــه، قلت لنفسي: هذا أول ضابط عراقي لا تلوح عليه علامات الجنون، لا يلازمه الغرور، مبال بالآخرين.. يتكلم بهدوء.. ينطق العربية السليمة.. لاحظ علامات ارتياحي لحديثــه.

:عليك أن تتعود.. لطيف قال ذلك رابتاً على كتفي في حنو.. حرك الضابطان الآخران رأسيهما علامة الموافقة.. سرنا جميعاً نتبع منعم.. قال موجهاً الخطاب إليّ: تعرفان بعضكما منذ وقت الدراسة.. أليس كذلك؟.. أجبته بنعم.. أشار إلى المسبح الأزرق.. قال لي: تستطيع استعماله في أي وقت يحلو لك.. أشار لي إلى غرفة اللباس والمناشف.

وراء البار بعض غرف مفتوحة بها كبائن تحوي سلال تحفل بالمناشف النظيفة السميكة، دوش وتواليت ومغسلة ومرآة كبيرة.. إجتاحتني على الفور رغبة عارمة واسعة.. قال إنها لنوم الضيوف.. دخلناها.. سرير

واسع من طراز فرنسي مزدوج يفترشه غطاء مطرز متناغم مع الستائر.. إلى جواره خزانة للملابس.. مكتبة ومقعد جلدي وجهاز تليفزيون سوني.. إلى جوار الغرفة درج يؤدي إلى الطابق الأول.. تجاوزناه إلى غرفة واسعة.. قال منعم ضاحكاً: هذه غرفة عدى.. الآن هي لك يالطيف.. هذا ما أمر به عدى .. قال هي الآن لأخي لطيف.

تبدو الغرفة مماثلة في اتساعها لغرفة نوم الضيوف.. لكن الفراش أكثر اتساعاً .. إلى جواره طاولة مستديرة تتحلقها عدة مقاعد .جهاز ڤيديو إلى جوار التيلفزيون الكبير.. على الطاولة جهاز تليفون.. ملحق بالغرفة بهو واسع تتناثر فيه أنواع مختلفة الأشكال والأحجام من قطع الأثاث.

صعدنا إلى الطابق الأول.. واجهتنا صالة واسعة للاحتفالات ازدحمت جنباتها بمقاعد للمشاهدة صفت في مواجهة مسرح كبير مجهز بآلات صوتية.. الحوائط مدهونة بلون أحمر قان.. الأحمر ثانية.. قفزت آلام الزنزانة التي خلفتها ورائي إلى رأسي.. الرغبة في التقيؤ غشتني.. حاولت المقاومة.. استدرت على عقبي منفلتاً من الصالة الحمراء.

لحق بي منعم وقال ملاحظاً: لطيف.. تحتاج الآن إلى قليل من الراحة.. اذهب أولا لتغتسل.. رافقني إلى غرفة نوم عدى.. غرفتي.. تركت وحيداً.. بلا رفاق.. بلا حراس.. ألقيت بجسدي على السرير.. انتابتني نوبة من ضحك متواصل.. نهضت من رقدتي.. مشيت إلى الباب.. جذبت مقود الستائر.. تلفت إلى اليمين وإلى اليسار عبر النافذة.. لاأحد قرب المسبح.. لكني أشعر بأنفاسهم تلفحني.. أدرك أن هناك عيوناً مبثوثة في مكان ما بالغرفة.. تراقبني.. تعريني.. وربما عدى ذاته.. جالس هناك في واحدة من الغرف يتسلى برؤيتي عبر شاشة المراقبة.

حدقت إلى الهاتف الراقد على المنضدة.. راودتني رغبة جامحة أن أتناول السماعة.. أدق أرقام منزلنا.. خطفتها.. ألقيتها.. وعدت

لاختطافها ثم ألقيتها من جديد.. مرات عدة قاومت الخوف والحذر.. ضغطت الأزرار.. تسعة، ثلاثة أصفار.. أسمع الأزيز القادم من الجانب الآخر.. الخط مشغول.. محاولات عدة.. لكنها عاثرة.. تيقنت من اللعبة.. الجهاز لا يعمل.. أي حماقة.. وعلى الأدق أي سذاجة صورت لي أن الأمر طبيعي.. أن يتركوا لي هكذا بسهولة وسيلة اتصال مع العالم الآخر.. لازلت أسيرهم.. محاولات الود ليست سوى قشرة تخفّوا وراءها لكسر إرادتي.. المناوبة بين العنف والهوادة أشهر الوسائل التي يتبعها الطغاة من أمثالهم للترويض.. واجهت المرآة المنصوبة على الجدار.. تأملت ملامحي.. لحيتي التي استطالت.. خاطبت نفسي بصوت مسموع: هذا لطيف يحيي إذن.. ضابط الجيش العراقي.

دلفت إلى الحمام.. أطلقت الماء الساخن على جسدي.. تنفلت الأوساخ الملتصقة بالجلد خيوطاً سوداء تتلامس تحت قدمي.. دوائر من التراب تغرق في البالوعة.. أتمدد في البانيو الواسع.. أسكب الشامبو بغزارة.. أدلك الجلد بالرغوات.. تمنيت أن أبقى غاطساً في الماء سبعة أيام.. في مقابل السبعة التي قضيتها في الأوساخ.

سحبت المنشفة المعطرة.. جففت البلل.. واستقمت أمام المرآة.. غسلت أسناني بالمعجون.. هذبت شعر الرأس واللحية.. دهنت شعري وصففته.. وعدت إلى الفراش منتشياً.. غرقت في نوم عميق حتى صباح اليوم التالي.

نسمات الصباح الباكر جعلتني أستيقظ.. حدقت في التقويم المعلق على الحائط.. اليوم أول تشرين الأول 1987.. أدرت ناظري في الغرفة.. حلتي القذرة وملابسي الداخلية ألقيتهم بالأمس هناك عند الطاولة.. وكذلك الحذاء العسكري.. كلها اختفت.. جاؤوا وأخذوها.. قمت عارياً إلى الخزانة.. إلى جوارها وفوق مقعد صفوا لي ما أرتديه. ملابس

داخلية.. قميص ناصع البياض وحلة فاتحـة ومعطف.. وحذاء أسود لامع.. على الطاولة طعام معد للإفطار.. جلست إلى المائدة.. أكلت بنهم.. واحتسيت كوباً من الشاي الساخن.. إرتديت ملابسي وانتظرت.. جاؤوا عند التاسعة، أخذوني الى مكتب عدي.. أعطاني منعم حمـد مكتوباً من صفحتين وقال: إقرأ بتمعنٌ ثم وقـع.. جلست على الأريكـة الصفراء وقرأت: عقد بين الحكومـة العراقيـة والملازم أول لطيف يحيي:

ـ أنا، لطيف يحيي، ملازم أول، أقسم بأني لن أبوح بأي شيء عن حياة عدي صدام حسين إلى أي أحـد.. كل ما أسمعـه خلال تعاملي معـه، أراه وأعيشـه في تلازمنا سوف يكون في طيّ الكتمان. وأن أحرص على الوثائق والصور وشرائط التسجيل الصوتية والمرئيـة والمخطوطات، وأتعهد أن لا تصل إلى شخص ثالث وأي نقض لهذا العقد عقابـه الإعدام..

لطيف يحيى، بغداد في 2/10/1987

ألقيت القلم جانباً بعد أن وقعت .. جلست صامتاً .. وهم كذلك .. قطع الصمت الطويل منعم حمـد.. قال ناصحاً: أنت الآن عدي صدام حسين.. ابن الرئيس، لاتتكلم مع أحد من الخدم، حاول ألا تحتك بهم قدر استطاعتك.

عشرة أيام قضيتها رهن الراحـة.. بين الغرفـة والحمام.. أتذكر كلمات منعم حمـد في كل لحظـة.. أتجنب الخدم.. وهم أيضاً.. الطاهي والخادمات الأربعـة يوفرون حاجاتي دون طلب.. الطعام.. الملابس.. كل شيء.. أمد يـدي وأتناول ما أشتهي.. نظرات الخدم متجهـة دائماً إلى

الأرض.. لا ينبسون بكلمة.. كالأشباح يروحون ويجيئون في خفة.. إنها الجنة.. قفص ذهبي أنور فيه.. أعب الشراب وألتهم الطعام وأتمدد.. لا يزعجني سوى الوحدة.

العجز عن الاتصال.. أرغب أن أهاتف أهلي.. الجهاز قطعة ديكور.. أسابيع ثلاثة افتقدت فيها أبي وإخوتي.. أعزي نفسي بأنهم يعتقدون أني هناك.. على الجبهة.. الحرب تمنع الاتصال.. لكن ليس الحنين وحده الذي يجعلني أرغب في الاتصال.. تجتاحني الرغبة في الحكي.. أود أن أحكي لهم ما أنا فيه من نعيم.. أصف لهم تفاصيل الجنة.. قفصي الذهبي.

يومي موزع بين المسبح والغرفة.. أغوص في الماء جلة النهار.. وأقضي من الليل نصفه الأول أتابع التلفاز.. إلى جانب الفراش بضعة كؤوس.. جن وكونياك.. أتقمص شخص عدي.. أشير إلى الخدم فيهرولون.. في البداية كنت أختم النداء بكلمة «رجاءاً وشكراً» لكن كلما تقمصت الدور أكثر ملت أكثر إلى العنت مع الخدم.. «لا.. كثيراً من الثلج».. أصرخ في وجه الخادمة «لقد قلت لك ذلك أكثر من مائة مرة» تعتذر في أدب وتهرول لتصحح الخطأ..

أعب من النعيم المتاح لي حتى الثمالة.. أتمشى في البهو.. أدلف الى كل الغرف.. أبدل ملابسي مرات عديدة في اليوم الواحد.. أتأنق كأنني ذاهب إلى احتفال.. هذا العطر نفاذ.. هذا الثاني أطيب.. بين الراحتين وتحت الأبط وعلى صفحة الوجه.. يفوح العطر مني.. يفيض إلى الفراغ الذي أنور فيه وحيداً.

اليوم 12 تشرين أول، بعد الظهر بقليل، دق الهاتف فجأة وأنا مستلق على الفراش.. أمسكت السماعة.. ألصقتها على أذني.. جاءني صوت عدي.. قال آمراً: احضر إلى مكتبي..

إرتديت ملابسي على عجل وهرولت إليه.. كان هناك في غرفة المكتب الواسعة وإلى جواره منعم حمـــد.. وآخران.. بدت لي ملامحهم غير عربية.. أولهم أطول مني قليلاً، شعر بني ووجـه مستدير.. ملامحه باهته.. الثاني أقصر، عريض المنكبين، لا يميل إلى السمنة.

أقبل إلى عدى.. حياني في مودة ظاهرة.. قبلني في وجنتيّ قبلة حارة.. قبلة أخوية.. قدمني إليهما.. صافحاني.. قال أنهم أطباء أخصائيون.. سيفحصونك.

أندهشت قليلا.. سليم البنية أنا.. هكذا قلت لنفسي.. ولكن لم لا.. أجبته على الفور: حسناً، أين يريدون ذلك، هنا.. وافقني: أجل .. عقب منعم: هذا فحص روتيني، لا شيء خاص، بإمكانك أن تكون مرتاحاً تماماً..

قال أحدهما شيئاً ما بلغة لا أعرفها.. ربما الروسية أو البولونية.. نقل منعم إلى العربية جملة الرجل: إنزع ثيابك رجاء..

أتعرى.. لم يكن ذلك مريحاً.. لكن وجب عليّ أن أفعل.. وقفت على الميزان.. وأمام مقياس الطول.. حدق أحدهم في مقلتى وتطلع الآخر إلى أسناني وسقف الحلق.. الأذنين ومنابت الشعر.. دقوا الركبتين وتصنتوا على دقات القلب.. راقبوا الضغط.. طلبوا بولي وأخذوا قليلاً من الدم.. ساعتان خضعت أعضائي جميعها خلالهما للتدقيق.. طلبوا أن أتكلم.. على تؤدة وعلى عجل.. أصرخ.. أضحك.. أنوح.. طلبوا كل الأصوات.. سجلوها كلها على الكاسيت.. تبادل الطبيبان بعض الكلمات بلغتهم.. إستعنت بمنعم لأفهم لكنه اكتفى بالابتسام.. كان عدى قد غادرنا مبكراً.. قال وهو منصرف بعد الدقائق الأولى من بداية الفحص: سأطلع على النتائج فيما بعد ياسادة.

في اليوم الثاني جلسنا في مكتب عدى.. منعم حمد يقرأ نتائج الفحص

علينا.. لون الجلد يطابق لون جلد عدى بنسبة 99 ٪، شكل الوجه، الشعر، الأذنان، الأنف، الهيكل العام للجسم.. نسبة المطابقة عالية.. الطول أقل ثلاثة سنتيمترات.. الوزن 81 كيلوجرام.. أقل باثنين.. علق منعم: الطول ليس مشكلة.. يراعي ذلك بأحذية خاصة.. والوزن أيضا له حل.. ملامح عدى منفرجة تعلوها البهجة وعلامات الرضا.

يواصل منعم حمد: الصوت مطابق مائة بالمائة.. يتجاهل منعم شيئاً يعرفه ثلاثتنا.. عدى لا ينطق الراء جيداً.. أسنانه البارزة تتآكل بسببها الكلمات.. تساءل عدى: هل الأسنان قابلة للإصلاح.. هز منعم رأسه موافقاً.

العينان أضيق قليلاً.. أوضح منعم: الماكياج يعوض هذا.. وأضاف وكأنه يعتذر لي: فقط أسنانك.. يجب أن تتغير هيئتها.. هل أنت موافق؟

قلت: طبعا.. طبعاً.

المعارضة داخلي انسحقت.. أجبت بالموافقة على التو.. لم أعد أملك خيارات..

أخذت في اليوم التالي إلى مستشفي ابن سينا عند مشارف القصر.. مستشفى صدام حسين والعائلة.. أخذوني إلى مكتب الطبيب أحمد السامرائي الذي تخصص في طب الأسنان في الولايات المتحدة الأمريكية.. عاد ليكون طبيب العائلة الخاص.

تمددت على المقعد المتحرك.. تفحص الطبيب أسناني واحدة واحدة ثم أرسلني إلى قسم الأشعة.. وطلب أن أعاود في اليوم التالي.

في الزيارة الثانية أدخل في فمي كتلة من مادة رخوة.. زهرية اللون.. أخذت تنتفش.. أخرجها ثم أدخلها ثانية.. ثم أخرجها بعد أن اطمأن أنها شكلت قالباً لهيئة أسناني.. يستعين به ليقارن بينها وبين أسنان عدى.

بعدها بأربعة أيام عدت إليه من جديد.. هذه المرة لإجراء عملية جراحية.. أزال بآلة خاصة أسناني الأمامية.. صنع قالباً جديداً.. أزعجني الهواء البارد الذي أخذ يدفعه إلى فمي.. يومين حرمت من الطعام فيهما.. سوائل فقط..

جلست من جديد إلى الكرسيّ المتحرك.. دقائق قليلة ونجح الطبيب في تثبيت الأسنان الأربعة الجديدة.. الطبيبان الأجنبيان اللذان غلقت على لغتهما وقفا من حوله يراقبان النتيجة.. بدا الارتياح على ثلاثتهم.. أمرني الطبيب أحمد أن أعض على أسناني.. طالبني أن أتكلم.

لمست الأسنان الجديدة بلساني.. أحسست بروزها.. غريبة مخارج الألفاظ بدت عند الكلام.. في المرآة لاحظت ارتفاع شفتي العليا.. تغيرت هيئة الفك وحركته.. صرت عدى آخر.. سُـر عدى الأصل من النتيجة.. قال بعصبية: يجب علينا الآن أن نبدأ التمارين فوراً.. كررت قوله بنفس الطريقة التي يكسّر بها الألفاظ: «س.. س.. سنبدأ التمايين».

في الصباح جلست منتصباً على المقعد.. المزين يقص شعر الرأس.. يقصه كقصة عدى.. ويضع لي ذقناً كذقنه.. ولما انتهى.. رافقتهم إلى المبنى الرئيسي للمخابرات.. صعدنا إلى الطابق الثاني.. دخلنا الغرفة التي سيتم فيها التدريب.. كانت واسعة.. عند الحائط على يمين المكتب خزانة خاوية من الكتب.. تشغلها شاشات تلفزيونية أكبر قليلاً من العادية إلى جانبها أجهزة ڤيديو.. أمام الخزانة طاولة صغيرة تناثرت عليها أشرطة.. في وسط الحجرة صفت مقاعد بطريقة منتظمة للمشاهدة.. الستائر تغطي النوافذ.. مكبرات صوت متباينة في الزاويا.. الغرفة مهيئة لتكون استوديو تسجيل.. لوحة هائلة تبرز منها مئات الأزرار.. حمراء، صفراء وبيضاء.. أمسك منعم يدي وقال موضحاً: هنا سوف نقضي

الأسابيع القادمة.. قال ذلك ثم استدار.. وقف في ركن قصي يتبادل مع أحد الضباط الحديث بصوت غير مسموع لدقائق ثم خرجا معاً.

مددت يدي وتناولت واحداً من الأشرطة.. الشريط يحمل عنوان المحتوى: «26 أيار 1987 ـ السيد عدي صدام حسين في التجمع الرئيسي لرابطة الرياضة العراقية ـ تسجيلات مصورة عن قرب.. أيد.. وجه.. طريقة سير».

عاد منعم يرافقه ضابط قدمه إليّ .. قال اسمه بعجلة فلم يثبت في ذاكرتي.. الضابط واضح الطول.. له بشرة غامقة وشاربان عريضان.. عيناه بنيتان.. بدت لي عينه اليسرى أكبر من اليمنى.. صافحني برقة لا تناسب هيئته.. بطريقة ناعمة رجاني أن أتبعه.. سرنا معا إلى غرفة أخرى في الطابق الأول مشابهة لغرفة استوديو الطابق الثاني.. قال موضحاً: عليك الآن أن تجلس وتنتبه إلى ما سوف تراه.

أدار جهاز الفيديو.. نقاط سوداء تتراقص على الشاشة لثوان قليلة.. ثم امتلأت الشاشة بصورة رجل في الثلاثين من العمر.. حليق الرأس.. تلمع فروته وكذلك الذقن.. الجسم مشدود، موثوق على كرسي خشبي مثبت في الأرض بالمسامير.. يزعق الرجل من الألم.. تطلعت إليه.. حدقت في الوجه الشاحب.. العينين المغمضتين والوجنتين الغائرتين.. ملت برأسي إلى مرافقي محاولاً السؤال فأشار إلى الشاشة.. فهمت الإشارة.. عليّ أن أشاهد.. أشاهد دون أن أسأل.. عليّ الإنتباه للمشاهد المتلاحقة.. يقبض الرجل على الكرسي بكلتا يديه.. تكاد شرايينه أن تقفز من الألم.. عظام القفص الصدري شديدة البروز.. شعر الصدر الطويل مثقل بملاقط حديدية.. ملاقط أخرى مغروزة في أماكن متفرقة.. في الحواجب الحليقة.. في الأذنين.. وحتى في عضو ذكورته.. الملاقط موصولة بكابلات من

البلاستيك قادمة من بطارية ضخمة.. بطارية كهرباء.. ألمح رجل جالس في الركن إلى جوار البطارية.. يدوس على زر.. تنتفض الكابلات الحمراء والسوداء.. تركز الكاميرا على الرجل.. رجل الكهرباء الضاغط على الزر.. يدان كبيرتان يغطيهما شعر كثيف.. تعلوهما القذارة.. تتابع الكاميرا ضغطاته على الزر.. ثم تنفلت إلى الجالس مصلوباً على المقعد الخشبي.. تتوقف وتتابع صعقات الكهرباء.. يتأوه الرجل.. يتلوى.. يحاول أن ينفلت من الوثاق المشدود.. يصرخ الألم في الوجه والصدر وتحت الإبطين.. تصطك الأسنان.. تنغرس الأظافر في خشب الكرسي.. الرغوات البيضاء تنسال خارجة من بين الأسنان.

الوجه يملأ الشاشة.. العينان الغائرتان المطبقتان يزداد انطباقهما.. يمنعان الحدقتين من الانفلات.. والدم من التدفق.. عظام الأنف والوجنتين، ومؤخرة الفك تجسد كلها معاً صورة المعاناة والمكابدة.. يفقد الرجل ما تبقى له من بقايا قدرة على المقاومة.. يهز رأسه إلى اليمين وإلى اليسار.. يفتح فمه ويصرخ.. صرخات تصم أذني.. رغم أن الجهاز يبث صورة بدون صوت.. تنسال آلام الرجل.. تقفز من الشاشة الفضية.. تحوم في فراغ الغرفة.. تصطدم بالجدران.. تتلوى في الفراغ.. تحلق حول رأسي.. تندفع إلى أذني.. تجري داخلي.. أشارك الرجل آلامه.. أصرخ في صوت مكتوم.. وتأتي النهاية.. نقاط سوداء تغطي الشاشة من جديد.. تتراقص لتعلن الختام.. الضابط يتأملني.. يراقب ملامحي.. أنتبه.. أرسم على وجهي علامات اللامبالاة.

يفاخر الضابط أنه ورفاقه يتلقون التدريبات على فنون التعذيب على أيدي خبراء من المخابرات السوفياتية والألمانية الشرقية.. نعم.. أعرف أن علاقات وثيقة تشدنا إليهم.. أكثر من عشرة آلاف خبير عسكري سوفيتي

يوجدون في جيش العراق.. يعملون علي أجهزة الكمبيوتر في مراكز الصوايخ والقاذفات.. يشرفون على تدريب جيشنا على السلاح القادم من بلادهم.. الألمان الشرقيون يشاركون في مهام حساسة.. ماهرون في أعمال التجسس اللاسلكي والهاتفي بشكل خاص.. ليس سرا أن بغداد تجلب الخبراء من بلدان كثيرة.. على الأخص البلاد التي تدور في فلك موسكو.. كوبا.. أنجولا.. وبلاد أخرى.

تدور الآلة من جديد:

تعس آخر يملأ الشاشة.. يبدو أكثر تماسكا.. تساعده هيئته الرياضية.. يحاول أن يتجنب الانحناء.. عار حتى الخصر ومقيد أيضا إلى الكرسي.. ينظر إلى الأرض كأنه يتجنب الكاميرا المسلطة تجاهه.. يتدلى من نصفه الأسفل سروال أخضر.. يرفع رأسه فجأة ويحدق.. ربما أمروه بذلك.. عيناه الواسعتان تحجرت بقايا دموع على أهدابهما.. قال الضابط:.. كان شرطياً.. لم يطع الأوامر.. أي أوامر؟!.. لا يعرف أو لايفصح.. عشرات بل مئات يلقون الموت بتهمة عصيان الأوامر.. أصبح الموت مهمة روتينية.. تستدير كاميرا المصور إلى الظهر.. خطوط زرقاء تتشابك ترسم ملامح الألم.. قطرات دم جاف. جروح متقيحة صفراء.. الصورة تتغير.. رجل كثور هائج.. يلوح بكابل.. يهوي بالضربات على الظهر المتقيح.. أغلق عيني.. أقاوم القيء المتقافز في حلقي.. مثل هذا الكابل كان.. أحاول أن أتذكر.. نعم.. رأيته ممدداً على مكتبه.. على مكتب عدى.. كابل أسود لامع مفتول.. كل كوابلهم متشابهة.. أحكم أغلاق العينين.. أصم الأذنين.. لكن رائحة القيح المتفجر تندفع إلى أنفي.. تنساب إلى رأسي.. تختلط بركام القاذورات.. نتن الزنزانة.. بقايا بولي.. فضلاتي.. مئات الامتار من الماء الساخن وأجود أنواع الشامبو فشلت.. غسلت الجلد

فقط.. تسلل القذر إلى الداخل.. تحوصل في رأسي.. عادت القانورات لتفيض مع ضربات الكرباج على الشاشة.. تفجرت كنفط احتبس طويلا في بطن الأرض. لم أضرب في الزنزانة.. لماذا لا أعرف؟! خافوا.. قطعاً لا.. ربما فعلوا لوكنت تماديت.. رفضت العرض.. أو أن الحاجة لي جعلتهم أكثر حرصاً.

العرض الثالث:

الآن على الشاشة رجلان.. مكبلان بالجنازير وسط ساحة عسكرية.. معسكر الرشيد على مايبدو.. منصة إعدام منصوبة.. يقاد إليها الرجلان.. تشد الحبال على الرقبة.. يتأرجح الجثمان المشنوق.. وتتوالى العروض..

الشريط الرابع:

رجل عار أوقفوه منفرج الرجلين تحته زجاجة خمر فارغة.. يأمر بالجلوس على رأسها المستطيل.. تتابع الكاميرا إختفاء الزجاجة في دبر الرجل.. يصرخ مستغيثاً.. تتعالى الضحكات من حوله.. والنكات أيضاً.. الشبق يعلو ملامحهم عندما تنسال خيوط الدم من دبر الرجل.. تجتاحهم السعادة عندما يغشى عليه.

الشريط الخامس:

رجل عار أوقفوه على مدفأة الغاز.. ثم أججوا اللهب.. الجلد يحترق.. يتقافز الرجل صارخاً.

الشريط السادس:

مروحة مثبتة في زاوية مشدود إليها رجل من القدمين.. رأسه مدلى إلى أسفل.. تدور المروحة بالرجل دورات متعاقبة.. ضربات بمطرقة خشبية تلاحق رأسه.

الشريط السابع:

التعذيب بالحرق.. تمتد النار.. تأكل شعر الرأس.. الحواجب.. الذقن والشوارب.

الشريط الثامن:

سجين أحكمَ وثاق يديه حول سخان كهربائي.. يلتهب الجلد والعروق وتحترق الأظافر.

الشريط التاسع:

الكى بالنار.. بسيخ متوهج الى درجة الاحمرار.. تكوى به اليدين والرجلين والظهر.

الشريط العاشر:

الحفر على الأيدي والأرجل بمثقاب الكهرباء.

الشريط الحادي عشر:

تكسير عظام الأنف بمطرقة.

الشريط الثاني عشر:

تكسر الفك.

الشريط الثالث عشر:

رجل موثوق إلى كرسي من الحديد.. تنزع أظافره بالكماشة.

وتتوالى العروض:

الشريط الرابع عشر:

بتر الأطراف بالمنشار الكهربائي.. وأحيانا بالفأس.

الشريط الخامس عشر:

نفخ الدبر بالمنفاخ.

الشريط السادس عشر:

ربط اليدين من الخلف إلى آلة تتحرك صعوداً وهبوطاً.. لتتكسر عظام الكتفين.

الشريط السابع عشر:

رجل يجلس موثوقاً والماء يندفع من صنبور على رأسه.. لساعات حتى يفقد وعيه.

الشريط الثامن عشر:

الحبس في بئر مملوء بالأوساخ لأيام.

الشريط التاسع عشر:

الضرب بعصى غليظة على الرأس وبين الساقين.

الشريط العشرون:

عصب العينين والتوقيف في غرفة خالية.. وأصوات المكبرات تصرخ في الأذنين..

الشريط الواحد والعشرون:

الوقوف الى الحائط.. الرأس محشور بين لوحين من الخشب ثبتت فيهما الأذنين بالمسامير.. يجاهد السجين ليبقى واقفاً وإلا تمزقت أذنيه لو حل به تعب يدفعه إلى الجلوس..

الشريط رقم 22:

قيد السجناء في غرفة محكمة الإغلاق.. لا يدخلها الهواء.. ترتفع درجة الحرارة فيها الى مافوق الخمسين درجة.

الشريط 23: حفر الأضراس وخلع الأسنان بلا تخدير.

الشريط 24: إدخال المسامير بين اللحم والأظافر.

الشريط 25: رش المواد الحمضية على الجسد.

الشريط 26: إلقاء جثث القتلى في غرف المسجونين.

الشريط 27: ادخال الكلاب الشرسة على المسجون وإحكام الزنزانة

الشريط 28: سد الأنف لأسابيع والإجبار على التنفس من الفم.

الشريط 29: خدش اللسان بالمسامير..

الشريط 30: صب الزيت المغلي على الأطراف..

الشريط 31: رش العيون بمبيد الحشرات.

الشريط 32: تعليق النساء من شعر الرأس وإجبار الأزواج والأطفال على المشاهدة..

الشريط 33: الاغتصاب أمام الأزواج.

الشريط 34: تعلق المرأة أثناء دورتها الشهرية من رجليها وتبقى معلقة إلى أن تنتهي الدورة..

الشريط 35: أطفال مسجونون عراه في غرفة ونحل ينطلق من خلية يلسعهم.. وإجبار الأهل على الفرجة..

ضغط الضابط على الزر وتوقفت العروض.. هل وصلت محاضرة الرعب إلى نهايتها؟! نظراته المتلصصة تثقب ظهري.. تلهب أنفاسه الحارقة قفاى.. استدرت إليه.. إلتقت نظراتنا.. عيناى متحجرتان.. عزمت على التماسك.. إظهار اللامبالاة.. أنا ضابط في الجيش العراقي، ممتاز بلقب ملازم أول، منحت هذه الرتبة لكفاءتي، جهودي الخاصة ضد العدو.. لقد تخيلنا العذاب.. تعرضنا لبعضه ونحن على الجبهة.. لكن لم أكن أتخيل أن هناك بشراً بكل هذه الوحشية.. يعذبون بشر مثلهم بكل هذه القسوة..

الضابط يبتسم بسخرية.. أحس بالاشمئزاز تجاهه.. حيوان.. ينفذ الأوامر بطواعية.. يستمتع بقهر الارادة.. يعشق الدم.. ماذا جال بخاطر عدى عندما أمر لي بمحاضرة الرعب والخسة هذه..؟! لا أعرف.. اختلطت الرؤى أمامي.

الضابط يواصل العروض.. يفصلون العضو التناسلي لرجل بمنشار كهربائي.. يتدفق الدم.. هذا مزرٍ.. خسة بالغة.. يقذفون في العرض التالي برجلين إلى الماء.. تلاحقهما الضربات.. يزعق رجل من الألم.. تتدلى ذراعه المقطوعة إلى جانبه.. كماشة حديدية تضغط على الرأس.. تتكسر عظام الجمجمة.. ينسال سائل الدماغ.

يعيدني الضابط إلى غرفة الفيديو الأولى.. يسألني منعم حمد إذا كان كل شيء معي يسير على ما يرام.. أكذب.. أهز رأسي: نعم، ولماذا لا يكون كل شيء على ما يرام؟! إني فعلاً بخير.. أود أن أعرف.. ماذا بعد.

منعم يشرح بطريقته الهادئة اللبقة كيف سنتابع.. لا يستخدم يديه وهو يشرح.. يقول مايريد مباشرة. يقوله بلا مداورة.. منعم حمد.. ليس شرقي الطباع.. هو أقرب إلى الانجليز.. بعضاً من بقاياهم.. خلفها استعمارهم الطويل للعراق.

«مجموعة أشرطة عن عدي صدام حسين».. أشار إلى حزمة مصفوفة فوق الطاولة.. أضاف: شاهدها بانتباه.. لاحظ كل صغيرة وكبيرة، وقلد عدي كأنك ببغاء.. بالقذارتهم.. وبالهواني.. الآن أنا مجرد ببغاء.

يضغط منعم الزر..

ويدور الشريط الأول:

26 أيار 1987، عدي يظهر في تجمع للجنة الرياضية فرع كرة القدم، عدي يجلس الى طاولة المفاوضات وسط ستة أشخاص - أعضاء فريق كرة القدم العراقي.. هو رئيس اللجنة.. لماذا إختار لنفسه ذلك.. وهو غير رياضي بالمرة.. الشيطان وحده يعرف.. منصب شرفي.. وظيفة للتباهي.. كل العائلة وزع على أفرادها صدام وظائف.. ليسوا أهلا لها.. مجرد شكليات.. يصنعون هياكل يتخفى خلفها أفراد العصابة.. وشائج واهية للظهور أمام الشعب.. وكرة القدم لعبة شعبية.. عدي يتفضل بحضور مباريات كثيرة.. يجلس في منصة الشرف وحوله المريدون والأتباع..

على طاولة الاجتماع توزعت زجاجات الشراب ومنافض السجائر.. عدي يبدو أصغر المجتمعين.. جالس في استرخاء.. الآخرون مشدودي الظهر إلى كراسيهم.. يتحدث واحد منهم عن تمويل مطلوب لأحد نوادي

كرة القدم.. أراقب الرجل لبعض الوقت، أنصرف عنه إلى مراقبة عدى.. ألحظ أناقته المفرطة.. حلة قطنية فاتحة، قميص أبيض وربطة عنق ملونة.. تتناسب معها «محرمة الجيب»، سحابات متقطعة من دخان سيجاره الهافانا تدور حول المجتمعين.

يأمرني منعم أن أجلس مقلداً جلسة عدى.. أن ألف يسراي على يمناي كما يفعل.. أفعل هذا بسهولة.. كنا نقلده وهو يمارس هذه العادة عندما كان معنا في المدرسة.. كنا نفعل ذلك خفية.. الآن أفعل ذلك مأموراً.. العيون تتابعني.. أجلس باسترخاء.. يمناي على ذراع المقعد.. ويسراي كما لو كانت تقبض على الهافانا.

منعم يضحك: لطيف، السيجار، نحن الحمقى، نسينا السيجار.. يصرخ منعم حمد: أحضروا لنا علبة سيجار.

يأتي الخادم مهرولاً.. ينحني في أدب.. يضع علبة «مونتي كريستو» على الطاولة وينصرف.. يقدم منعم لي سيجاراً.. آخذه ولا أشعله.. فقط أقبض عليه.. أمسكه بين أصابعي بطريقة جامدة.. مستقيمة.. يلفت منعم انتباهي: أثني الأصابع قليلاً.. هكذا.. أستجيب لملاحظته.

أتابع العرض.. وأقلد عدى.. أضم القبضة.. أضحك.. ترقد يمناى على فخذى.. أتابع عدى.. يأخذ السيجار إلى فمه بمتعة.. يشد الأنفاس بعمق.. يحرك الدخان في فمه ويميل برأسه الى الوراء بطريقة مسرحية.. يميل بها إلى الجهة اليمنى.. ثم يطبق شفتيه.. أسنانه البارزة تفشل شفاهه المطبقة في إخفائها.. يبدو لي مضحكاً.. كالشامبانزي.. والآن أنا أيضاً.. أسناني الجديدة من البورسيلان تجعلني شامبانزي كعدى.. أحس آلاماً خفيفة والسيجار مضغوط بين أسناني.. أنا لطيف يحيى ولست عدي

وأسناني من البورسيلان.. لكنها لحظة.. غفوة.. أعود بعدها إلى تقمص الدور.. أجاهد لتكون حركاتي نفس الحركات.. أن أكون هو.. أروض عقلي ليستجيب أسرع في إعطاء الأوامر لأعضائي..

منعم ينصحني: لا تقلق.. دائماً هكذا في البداية.. لاحقاً سوف تفعل دون حاجة للتفكير فيما تفعل.. أنت الآن كمن يتعلم لغة جديدة.. يركز في البداية على مخارج الحروف.. يحاول أن يعتاد اللهجة.

أربع ساعات متواصلة جلست خلالها أتابع العروض.. أتابع عدي.. أرقب بانتباه كل حركة والتفاتة.. حركات الجسد.. تعابير الوجه.. طريقة السير والجلوس.. ضحكاته الصاخبة الخشنة المشوبة بالسخرية.. يهتز معها كل جسمه ويتدلى فكه الأسفل مع كل هأهأة.

وهكذا ثلاثة أيام متعاقبة.. من التاسعة صباحاً وحتى اقتراب موعد صلاة العشاء.. لا عمل لي إلا الجلوس مشدوداً أمام جهاز العرض أتابع وأتابع.. لا يقطع المتابعة إلا برهة من الوقت لتناول الطعام.. وأداء فريضة الصلاة.. كانوا لا يمانعون رغبتي في أداء الصلوات الخمس.. لكن كانت ملامحهم تنطق بالسخرية.. لا إيمان لهم إلا بمعبود واحد.. الجبروت.. وهذا ليس بغريب.. علاقاتهم بالدين مقطوعة.. وضعوا لهم مثل عليا لا تمت للمجتمع المسلم بصلة.. شاهت علاقة العراق في عهدهم بالعالم الإسلامي.. إدعوا أنهم يبنون مجتمعاً اشتراكياً.. وهو ليس سوى إدعاء.. إشتراكية لهم.. للحزب والعصابة.

ثلاثة أيام متعاقبة.. أتخمت فيها بكل مايجب أن أعرفه عن عدي كيف يفكر.. أحاسيسه ومشاعره.. ردود أفعاله.. لوازمه.. واقفا وعند الجلوس.. مترجلاً وراكباً.

ثم أتت المرحلة الأشق.. التحدث بطريقته.. براءٍ محطمة أو حتى بدونها..

أفتح فمي على آخره.. زاوية الفك منفرجة.. منعم حمد يرقب طريقتي في إخراج الحروف.. ويوجهني.. يكرر دائما: لطيف.. كن ببغاء.

تدريبات متعاقبة حتى أتقن طريقة عدي في الكلام.. حركاته عندما يشرع في إفتتاح اجتماع، أو يتبادل الحديث مع أصدقائه.. يذكرني منعم حمد بأن أحذو حذو عدي.. في كل حركة.. في كل التفاتة.. يلفت نظري إلى أن عدي لا ينظر تجاه محدثه.. ويتجنب المصافحة.. يكتفي بالإيماء في كبرياء.. مقل في الكلام وحتى الابتسام.. تملؤه الخيلاء.. ويشعر من حوله دائما أنه ابن الرئيس.. يعامل حراسه بخشونة وصلف.. يحاول أن يتخفى وراء نظارة «الريبان» الشمسية التي تلازمه.. كان علي أن أنتبه للدرس القادم.. درس تأمين المغادرة.. عدي واحد من العصابة التي تعيث في الأرض فساداً.. وتخشى من جراء مظالمها انتقام من طالهم الظلم.. لهذا تعيش رغم أقنعة القوة التي تتخفى وراءها في هلع دائم من التعرض للاغتيال.. تحرص على تأمين قصورها وتجعل منها قلاع حصينة علّها تمنع عنها الحراب المسمومة.

الخبراء في شؤون الأمن يعرفون المفاصل الضعيفة في خطط الأمان.. من هذه المفاصل الضعيفة لحظات المغادرة لمكان ما.. إجتماع أو مقابلة.. أو احتفال.. يدركون أنها لحظة مناسبة كثيراً ما تنتهز من قبل قناص متربص في الظلام.

كيف كان عليهم أن يأمنوا «عدي» من لحظة كهذه.. على هذا تدربت.. ينتهي الاجتماع أو اللقاء.. يهز عدي رأسه مودعاً.. يحوطه حراسه.. يغادر مسرعاً الخطى إلى سيارته الواقفة إلى قرب.. الباب المجاور لعجلة القيادة مفتوح للقادم.. لعدي.. يجلس إلى المقود.. يقبض عليه بيمناه.. ويشد باليسرى الباب المفتوح ويتركها مستلقية عليه.. ركب عدي يضم إضافة لسيارته أربع سيارات تشابهها ماركة ولون.. إثنتان إلى الأمام

وإثنتان في الخلف.. ويتلقى حراس السيارات الأربع التعليمات التي يلقيها عدي عبر اللاسلكي.. على الثالثة أن تسبق الثانية، واحدة ترجع إلى الوراء، خذ مكان الثالثة.. وهكذا تتناور سيارات الركب كي يستحيل التعرف على السيارة التي تقل عدي.. دربوني على المرسيدس الرصاصية والبورش الزرقاء الفاتحة.. ولم يكن مستطاعا أن أدرب على كل السيارات التي يضمها كراجه.. فهو يملك أكثر من مائة سيارة.. أنواع مختلفة وألوان متباينة.. وكان يختار منها ما يناسب لونها لون الحلة التي يرتديها.

أحاول أن أتقن دوري.. فالكاميرات تتابعني.. كل همسة.. كل التفاتة يجري تسجيلها.. وتخضع المشاهد للتحليل والمقارنة.. ويتابعها عدي بنفسه.

اليوم 15 من تشرين الأول1987، يستدعيني منعم حمد الى غرفة مكتب عدي.. ينقل إلي ما عبر عنه عدي.. قال إنه راض عن تقدمي في التمرين.. راض؟!.. يالهم من خبثاء مناورين.. كل ما أبذله من جهد لايستحق إلا بعض الرضى.. لا يعلو إلى درجة الاطمئنان لنجاحي.

على الطاولة التي يجلس إليها منعم رسالة يستقر في رأسها النسر العراقي.. رسالة رسمية هي إذن.. يقول منعم حمد: سوف نُعلم الآن الرئيس.. اللواء الركن فنار الناصري كتبها وقدمها لأوقعها.

منعم يطلعني على المكتوب.. يالها من مفاجئة مؤلمة.. المجرم.. ابن أمه.. الطفل المدلل.. فعلها وضباط عصابته دون أن يعلموا الرئيس.. خطفوني وعذبوني.. وهاهم يخضعونني لتدريب قاس.. يبنيون ماضي ويشكلون لي حاضراً مختلفا دون أن يعلموه.. يعملون لحسابهم.. أو على الأصح لحسابه.. أو ربما أراد أن يسوق الدليل لصدام الوالد أنه قادر على حماية نفسه.. وجدير بخلافته على عرش الطغيان والجبروت.

وعدت إلى الرسالة أقرأ الكلمات التي كتبت بعناية:



الجمهورية العراقية
رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية
جهاز الامن الخاص

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد رئيس الجمهورية العراقية حفظك الله ورعاك ..
سيادة الرئيس أود أعلام سيادتكم بأن جهازنا الخاص شعبة المتابعة الامنية برئاسة كل من .
١ـ المقدم منعم شبيب حمد التكريتي
٢ـ النقيب زياد حسن هاشم الناصري
٣ـ النقيب سعدي دحام هزع الناصري
قـ قاموا بكسب (الملازم أول لطيف يحيى لطيف الصالحي) شبيه الاستاذ عدي صدام حسين المحترم
وبعد التحري والمتابعةله ولعائلته من قبل شعبة المتابعة السرية الخاصة بالجهاز اتضح ما يلي .
١ـ اسمه لطيف يحي لطيف الصالحي من قومية كردية تولد ١٤ / ٦ / ١٩٦٤ وسكنه بغداد منذ اربعين سنة ومن الديانةالمسلمة سني .
٢ـ خريج جامعة بغداد للقانون والسياسة عام ١٩٨٦
٣ـ دخل القوات المسلحة العراقية بصنف القوات الخاصة برتبة ملازم وبعد سنة لشهر ونظراً لشجاعته واستبساله ترقى الى رتبة ملازم أول قوات خاصة .
٤ ـ لم يحكم عليه بأي جنحة أو تهمة سياسية ..
٥ـ لديه بعض الاملاك الخاصة به مكتب لستيراد وتصدير الاخوين في منطقة المنصور شارع الداودي ولديه معمل للمرمر في منطقة بوب الشام على طريق ديالى ولديه سيارتين نوع مرسيدس ورصيده في البنك المركزي العراقي .
وبعدحصولنا على هذه المعلومات كلها ولقوة الشبه بينه وبين الاستاذ عدي صدام حسين المحترم قررنا وبموافقة الاستاذ عدي صدام حسين المحترم خطياً قررنا لستخدام الملازم أول لطيف يحيى لطيف الصالحي فدائي خاص للاستاذ عدي صدام حسين في المهمات الخاصة والخطرة وباشرنا التدريب معه ووجدناه من النوع الذكي جداً لتفهم واجبة الوطني لخدمة عراقنا الحبيب ودمت سيادتك لاعلاء كلمة الحق ورفع علم العرق بقيادتك الحكمية في ربوع عراقنا العزيز .

اللواء الركن
فنار زبن الناصري
مديرجهاز الامن الخاص
١٥/ ١٠/ ١٩٨٧

يالهم من أشرار.. لم أكن سوى لعبة.. دمية اختاروها.. وهاهم يشكلونها وفق ما يشتهي المسخ صاحبهم وولي نعمتهم.. دون اعتبار لمشاعري.. يرفعون الأمر الآن للرئيس.. أتساءل قلقاً: ماذا لو لم يوافق الرئيس؟! سيدي ماذا ستفعلوا بي إذا رفضني كفدائي لابنه؟

منعم حمد يغلفه الصمتُ.. يقطع الغرفة يسرة ويمنة.. يتجنب النظر إلي.. قلق الرجل وتوتره علامات خطرة لنهاية مؤكدة.. ميت أنا بالقطع لو صادفني سوء الطالع.. ورفضني الرئيس.. أتذكر بقع الدم العالقة بطلاء جدران الزنزانة.. وتقفز إلى رأسي مشاهد عروض الڤيديو.. الصرخات المسحوقة من الألم.. المشانق المنصوبة في ساحة معسكر الرشيد شغلت عقلي.. شلت تفكيري.

●●●

5

صدام حسين

○ منعم حمد التكريتي الذي عهدته دائما طيلة الأسابيع الماضية واضح التأنق، هادىء، ويفكر بعناية وسلوكه يتسم بالود والملاطفة.. بدا لي اليوم منزعجاً على غير عادته.. اليوم 23 تشرين أول 1987 الساعة تقترب من الثامنة صباحاً.. الرياح الحارة تلفح المكان.

«اليوم حان الوقت».. نطق بالعبارة القصيرة، وهو ينظر إلي.. الأسبوع الماضي انتهت المرحلة الأولى من تدريبي.. قال منعم مفسراً جملته القصيرة: البارحة جاء الجواب من القصر الجمهوري.. الرئيس يريد أن يراك.. يريد أن يتعرف عليّ شخصياً.. قلت هذا لنفسي.. شعور بالفخر تسلل إلى داخلي.. رغم أن الوساوس لازالت تحوم حول رأسي.. ميت أنا إذا رأى الرجل أني غير مناسب.. وميت أيضاً لو كان الكدر والضيق لازما الرجل عندما دفعت إليه الرسالة.. كدر مبعثه تجاهل ولده وضباطه إعلامه بالأمر من بدايته.. الرجل لا يقبل حتى من أقرب مريديه وأتباعه أن يعملوا من وراء ظهره حتى ولو كان ذلك من أجله أو من أجل الطائلة.. إنزعاج منعم يدعم قلقي.. مصيره معلق بمصيري.

لكن رغم ذلك أعرف ـ قلت لنفسي ـ أعرف المسألة، على خلاف المرة الأولى التي انتزعوني فيها من وحدتي العسكرية دون إشارة إلى المجهول الذي يسيروني إليه.. الفرصة متاحة لي لأثبت نفسي.. أظهر كفاءتي.

بلهجة آمرة لم أعهدها منه قبلاً قال منعم: موعدنا في الرابعة عند القصر، هيىء نفسك لذلك!.

أشعر بالرضا والطمأنينة.. وقفت أمام المرآة أتأمل نفسي.. أطالع عدي داخلي.. تحسست فكي الجديد.. كلمت صورتي في المرآة لأطمئن على مخارج الكلمات.. راقبت خطوي وجلستي.. الآن كل شيء كما دربوني.. أنا الآن عدي.

جاءت سيارة خاصة بعث بها صدام لتأخذني، جاء ثلاثة ضباط ليصحبوني خلال الرحلة الى القصر أرسلهم صدام لهذا الغرض: عبدحميد، أرشد الياسين وروكان التكريتي. ثلاثة من حاشية صدام التي يركن إلى أفرادها ويثق في ولائهم.. حاشية أتيح لي مع الوقت أن أعرف الكثير من أركانها:

ـ العقيد أرشد ياسين، المسؤول عن حماية صدام حسين، تحت إمرته فرقة خاصة من الحرس.

ـ العقيد عبد حميد التكريتي، يخدم قريبا من صدام منذ سنوات مسؤول عن إجادة الحرس الخاص وحراس القصر الجمهوري للرماية.

ـ صدام كامل حسن، ضابط من ضباط مكتب الحراسة الخاصة في القصر الجمهوري وحارس صدام الشخصي وزوج ابنته.

ـ النقيب جمال سعد الدمام مرافق ثان لصدام، مسؤول عن مكتب استعلامات قصر الاجتماعات.

ـ الملازم الأول عداى عمر حارس شخصي لصدام.

ـ الملازم الأول رافد عبد حارس شخصي، ابن أخت العقيد عبد حمد التكريتي.

ـ الملازم الثاني حكيم كامل حسن حارس شخصي، زوج (حلا) صغرى

بنات صدام، وأخ لحسين كامل حسن زوج (رغد) كبرى بنات صدام.

- الملازم الثاني ناظم أحمد التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني محمد كمال الدوري حارس شخصي.

- الملازم الثاني سعدى ناهي التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني جاسم سلام التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني رافل التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني رياض محمد التكريتي حارس شخصي.

وكان هؤلاء يؤلفون المجموعة الدائمة المرافقة لصدام.

تحرك ركبنا في تمام الثالثة بعد الظهر.. ركضنا متجهين عبر الممر إلى حيث المرسيدس التي تنتظر عند المدخل.. قفزت الى داخل السيارة وقبعت في مقعدها الخلفي.. تحركت السيارة من أمام «المكتب رقم 7» مقر إقامتي في طريقها إلى القصر الجمهوري.. الركب يضم أربع سيارات مرسيدس أخرى، تسير اثنتان أمامنا واثنتان تتبعنا من الخلف.. المسافة بين المكتب رقم 7 والبوابة العائلية قطعتها السيارات بسرعة فائقة.. لوّح لنا حراس البوابة علامة الموافقة على الدخول.. عبرنا البوابة، المستشفى، بيوت الوزراء، توقف الركب في مواجهة بناية الاستعلامات الواقعة ضمن الجناح الشرقي لقصر صدام.

قفز الحراس إلى خارج السيارات لتأمينها.. أخذوا أماكنهم وفق الطريقة التي دربوا عليها.. وأنا أيضا عليّ أن أتصرف كما دربوني.. قفزت من السيارة ركضت مسرعاً - يحوطني رجال صدام - إلى البناية.. صعدنا بخطوات مسرعة الدرجات المؤدية إلى المدخل.. وكان في انتظارنا

ضباط أربعة، واحد منهم روكان، قادونا عبر الممر، دلف روكان وحده إلى غرفة جانبية وتركنا ننتظر.

عشر دقائق وقفنا في الانتظار.. لا أحد يتكلم.. لا أحد يدخن.. ثم جاء إلينا ضابط كبير، عريض الكتفين، رأسه محمول على رقبة ثور.. الحلة العسكرية الخضراء تزيده ألقاً وتضفي عليه مزيداً من العظمة. رغم أنه يلقاني للمرة الأولى تعرف عليّ سريعاً.. خاطبني قائلا: أنت إذن لطيف.. تعرف قوانين اللعب؟.

أجبته على الفور موافقاً: أعرفها.

نعم.. قلت لنفسي.. أعرف مخاوف صدام ووساوسه المرضية.. حكوا لي في أثناء التدريب قصصاً كثيرة.. منها قصة وزير الداخلية سمير الشيخلي.. ذلك الرجل الخبير بكل أساليب ومواد القتل.. قبل أن يستقبله صدام.. نزعوا عنه ملابسه.. ألقوه في حوض الماء كي يطهروه، بعد الماء غسلوه بالديتول.. أراد صدام أن يلقاه نظيفاً.. أراد أن يطمئن أن سمير الشيخلي لم تتعلق به سموم أو ميكروبات معدية من التي يستخدمها.. يخشى صدام أن تنتقل إليه عند المصافحة.

وهذا الإجراء يجري اتباعه مع كل من يزور صدام.. الكل عليه أن يفحص بدقة قبل أن يسمح له بشرف الدخول على صدام.

وها أنا جاء دوري.. دس الضابط يديه في جيوبي.. فتش ثنيات حُلتي.. جرت أصابعه تحت إبطي.. وتحسس حوضي وفخذي وعظام الساقين.. أمرني بنزع الحذاء والجوربين.. قدم لي جوارب جديدة من الصوف الأبيض.. الأوامر الدائمة أن لايمثل شخص ما في حضرته بجوارب استعملت من قبل.. إنتهى دوره فنادى الطبيب.

جاء مثقلاً بحقيبة بنية اللون.. ألقاها على الطاولة.. وجهه الأحمر النحيل وبعض علامات سوداء مبعثرة على خديه، عينان ضيقتان ماكرتان.. هيئته وصمته يدلان على هويته.. بالقطع ليس عربي الأصل.. كرر مثل الطبيبين اللذين فحصاني من قبل إجراءات مضحكة ولا مبرر لها.. لكنها التعليمات.. لقد فحصت مرات متتابعة وأنا قيد التدريب.. لكنه الآن يفعل مالم يفعل من قبل.. يمسح الطبيب بقطعة قطنية بللها بسائل وجهي وأذناي ورقبتي.. يبدل القطن ويعيد الأمر أكثر من مرة.. يغمر القطن المستخدم في سائل أزرق ويراقب مايحدث له.. لو تغير لونه لدل على أن جسدي يحمل نوعا من أنواع السموم.

يفحص عيني.. يحدق في بياضهما.. تؤلمني أصابعه.. يطفر الدمع من عيني ويبلل رموشي.. الضابط الواقف إلى جواره يأمرني أن أفتح فمي إلى آخره.. يفحص الطبيب لساني والحنجرة بمنظار خافت الضوء.. يتحسس أسناني ولثتي.. يدفع تجاهي زجاجة صغيرة مملوءة بالديتول.. قال أن عليّ أن أفرغ السائل على يدي وأفركهما بقوة وأترك السائل إلى أن يجف.

جمع الطبيب أشياءه بعد أن أنهى مهمته، ورحل.. خاطبني الضابط بلهجة أبوية: لطيف، فكّر، لا تُقبل صدام.

الآن جاهز أنا للقاء.. مغسول ومُطهر كحاج متأهب للسعي بين الصفا والمروة..

مستعد للّقاء صدام.. آتية اللحظة التي طال انتظارها.. بعد قليل سوف أقاد إلى حضرة القوة والعزة والسلطان.. أساق إلى عرين الأسد.. لحظة يطمح إليها كثيرون ويخافها كثيرون أيضاً.. الغريب أن مشاعري المختلطة

غلب عليها الاطمئنان.. وتراجع الخوف.

إنتبهت من خواطري.. إنفتح الباب.. دلف الضابط قبلي وتبعته.

الآن أنا في مكتب الرئيس.. تبدو لي الغرفة مشابهة لغرفة عدي في المكتب رقم ٧.. الألوان ذاتها الغالبة على ورق الحائط.. الأريكة الصفراء الكبيرة.. المكتبة الحاشدة بالكتب.. عدي إذن صنع لنفسه غرفة مكتب مشابهة لمكتب صدام الأب.

صدام جالس إلى مكتبه، ممسك بسماعة الهاتف.. وقفت منتظراً انتهاء المحادثة المتعمدة - أعرف هذا - عادة درجوا عليها لتقف منتظراً.. معروض كبضاعة للمشاهدة.. يفحصونك بعيونهم.. يرقبون ملامحك ويتسمعون على رجفات قلبك.

تأملته.. يرتدي حلة غامقة مقلمة.. رباط عنقه محلّى بالزهور.. أصابع يمناه تدق الطاولة دقات رتيبة منتظمة.. يضحك من وقت لآخر، يبدو صوته بالغ الحنو والرقة.. كان الحديث يدور حول خطاب مقرر أن يلقيه الرئيس.. ألمح على سطح يمناه بقايا وشم أزيل بطريقة شائهة.. أصابعه مصبوغة.. شعر الرأس مصفف بعناية.. أسنانه لامعة وبيضاء.. عيناه البنيتان واضحتا الألق.. وجهه صبوح نضر.. لا يكدره إلا بعض تجعدات تسللت إلى مجرى الدموع وحول الفم.. وسامته ملحوظة.. يبدو كما لو كان خليط من جان غابان والسلطان صلاح الدين.. في العقد الخمسين.. مملوء بالحيوية.

وصلت المحادثة التليفونية إلى نهايتها.. وقف بخفة.. تحرك خلف المكتب بهدوء.. جلجلت ضحكته وهو ينظر تجاهي.. ضحكة بدت لي حقيقية غير مصطنعة.. تقدم خطوتين إلى حيث أقف مشدود الانتباه.. لاحقني

بأسئلة بدت لي بلا معنى.. بل كان يسأل ويجيب، وأهز رأسي موافقاً.. نظراته الحنونة تتفحصني من أعلى إلى أسفل.أخذ يتملى تقاسيم وجهي.. حركاتي وسكناتي.. حدثت نفسي: أي أفكار تدور الآن برأس الرجل؟.. أظنه يقول داخله: إنه يشبه ابني بالفعل.. لقد أتموا عملاً رائعاً.

فجأة فتح ذراعيه عن آخرهما.. قال: نعم، أنت هو.. منحني الله ولدين وأنت الثالث.

آه أخيراً.. مشاعري المضغوطة داخلي.. القلق والهيجان المكبوت في حنايا صدري.. آن لي الآن أن أطمئن فالرجل نطق بالشهادة.. أقر بنجاحهم.. ونجاحي في الامتحان.. قبلني فدائي لابنه.. من هذه اللحظة أصبحت أنتمي إليهم.. أحاول جاهداً أن أطرد أي مشاعر سلبية تزاحم المشاعر الإيجابية التي تسري داخل رأسي.

صورة الرجل التي حددت ملامحها داخلي.. الأقاويل والحقائق.. قصاصات الورق وأنهار الدم.. ساحات الاعدام والهمسات المسحوقة خلف الجدران.. لا يبدو على الرجل الواقف أمامي أيٌ مظهر من مظاهر الصورة القابعة في حنايا الرأس.. جالت عيناي في وجهه أبحث عن علامات القاتل.. الجبار.. المهيمن.. الدكتاتور.. لا شيء من ذلك.. الوجه صبوح والملامح هادئة.. صوته القوي المشوب بالحنان.. خطوه المترفق وابتسامته الرائقة صنعت صورة جدٌ مختلفة.. صورة ملاك بددت صورة دراكولا.

هذا هو إذن الرجل الذي يمسك بكل مقاليد الحكم.. المرهوب والمحبوب في الوقت نفسه.. الملايين مشدودة إليه.. الذين يكرهونه والذين على

استعداد للتضحية من أجله.

من أين أتى الرجل بكل هذه القوة.. أي ثقافة صنعته.

ولد الرجل في 28 نيسان 1937 في العوجة، من تكريت، هناك ولد أيضا صلاح الدين، ينتمي إلى عائلة فلاحية صغيرة، بيت صغير يقع على مسافة 120 كيلومتر شمال بغداد.. قدر له أن يشهد مولد صدام حسين التكريتي، صبحة طلفاح قيل أنها حملت به دون زواج.. وقيل إنها لقبته بصدام لأنها فشلت في التخلص منه جنيناً.. مات أبوه قبل ولادته.. ابراهيم الحسن الذي تزوجت به أمه صبحة بعد موت رجلها لم يرغب بقاء الطفل.. أرسلوه إلى بيت خاله خيرالله الطلفاح، ضابط عراقي كان ضمن الوحدة التي شاركت في انتفاضة عام 1941 ضد الملك الهاشمي فيصل الثاني، وعلى أثر فشل تلك الانتفاضة أقتيد المشاركين فيها إلى السجن ومنهم ذلك الخال.

ترعرع الفتى في جو مشحون بالإثارة.. سنواته الأولى شهدت قلاقل كثيرة.. خمس محاولات انقلاب تمت في المدة مابين 36 و 1941.. بعد الإفراج عن الخال.. عميد العائلة.. جرت حوادث كثيرة شاركت العائلة في معظمها.. عمليات تجارية، سرقات في الشوارع، تنازعات على المياه.

طرقات القرية ودروبها تحفل بالهمس عن الطفل الذي ولد سفاحاً.. يلاحقه الرفض.. عنيد هو أيضاً ودائم التمرد والعصيان.. دفاتر الحضور في مدرسة تكريت لا تسجل له انتظاماً والناظرة أصابها الضيق من هذا الولد المتعب.. طفل العاشرة المتمرد كالأشواك.. لا تفارقه عصاه الحديدية حتى وهو في مقعد الدرس.. يخبئها تحت الدشداشة.. يبرزها للعراك مع أقرانه.. ويستعين بها لصرف الكلاب المتصعلكة في دروب القرية.. وكانت

أداته للعبث أحيانا.. يعرض طرفها للنار ثم يدفع بالطرف الملتهب إلى دبر كلب أو قطة.. كانت العصا صديق صدوق لذلك الفتى المحكوم عليه بالعزلة.. عزلة فرضتها شائعات مولده المؤثم، أو مسلكه المتسم بالحدة والعنف.

مع مطلع العام 1955 إنتقل الخال إلى بغداد وصحب معه ضمن أفراد أسرته الفتى صدام.. وسكن الوافدون الجدد منطقة تيكرتي حيث تسيطر العصابات على الحواري والطرقات وتسيل الدماء بفعل الجرائم والمشاجرات العائلية.. والتحق صدام بمدرسة الكرخ.

أول جريمة أقدم على ارتكابها الفتى اليافع قبل عام واحد من بلوغه سن العشرين.. دفعه الخال الذي يعيش في كنفه إلى قتل خاله الآخر سعدي.. الفتى رغم الجموح والعنف المتوقد والمتأجج داخله كان الطموح يلازمه فأنهى دراسته الثانوية بنجاح.. وكان الطموح أيضاً دافعه ليهتم بالفعل السياسي، ويلتحق بصفوف حزب البعث العربي الذي يعمل في الخفاء تفادياً للملاحقة من قبل نظام الزعيم عبد الكريم قاسم.. نال عضوية الحزب عام 1957 ووقع عليه الاختيار في 17 تشرين أول 1959 للمشاركة في عملية اغتيال ضد قاسم الدكتاتور الذي يقف ضد اختياراتهم الحزبية.. ولم تنجح المحاولة وجرح صدام.. أصابته طلقة في قدمه.. وجره الرفاق إلى مكمن لاستخراج الرصاصة.. ثم دبروا خطة لفراره إلى سوريا حيث بقي هناك ستة أشهر أتيح له خلالها ملازمة المحامي ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، والذي أصبح مرشده السياسي منذ ذلك الحين.

في عام 1962 سافر صدام إلى مصر، والتحق بكلية الحقوق، فضلاً عن ذلك أصبح المسؤول عن الحزب في القاهرة.. وبرغم أن دوره في

المحاولة التي جرت لاغتيال عبدالكريم قاسم كان دوراً صغيراً.. إلاّ أن ذلك الدور أسهم كثيراً في مسيرته السياسية في المستقبل.

جاءت الأنباء إلى القاهرة تحمل إلى صدام خبر نجاح حزب البعث بقيادة أحمد حسن البكر التكريتي في الإطاحة بعبدالكريم قاسم وإعدامه علناً.. فسارع صدام بالعودة إلى بغداد.. وسرعان ما تزوج ابنة خاله ساجدة.. إبنة الخال الذي رعاه حتى شبَّ عن الطوق.. ولم ينعم الفتى بدفء عش الزوجية طويلاً.. كان عليه أن يختفي ثانية فقد قفز إلى السلطة حاكم جديد.. عارف الذي أطاح بأحمد حسن البكر.. ودارت الدائرة على حزب البعث.. طورد رجاله ولوحقوا.. وامتلأت السجون بكوادره النشطة.. هذه المرة لم ينجح صدام في الفرار.. ألقي القبض عليه وسيق إلى غياهب السجن.. الحزب المطارد يلملم في الظلام صفوفه.. عُيِّن صدام من قبل المجلس الثامن للحزب نائباً لرئيس الحزب.. ولم يمكث طويلاً مقيد الحرية.. نجح في الفرار.. وتخفى إلى أن عاد عام 1968 مع عودة الحزب ثانيةً إلى السلطة.. خُلع عارف وعاد البكر، وعاد معه صدام حسين التكريتي في موقع الرجل الثاني.. أول مهام صدام رئاسته لما سمي بمجلس الاستقصاء.. إتخذ له مقراً في سجن قصر النهاية.. أسابيع بعد وصوله إلى السلطة قبع هناك يمارس أبشع أنواع التعذيب وهدر الدماء.. مئات ممن وُصموا بأنهم أعداء الحزب.. تساقطوا في باحة السجن وغرفه الضيقة.. ومئات آخرين شنقوا في ساحات بغداد بتهمة التجسس لصالح إسرائيل وأمريكا.

هذه المرة لن تفلت من يده.. أحكم وثاقها.. إنها السلطة التي يعشقها.. ذاق في سبيل الوصول إليها مرارة المطاردة والتخفي.. هجر بسببها عش الزوجية.. لكنه الآن يعود إليها منتصراً.. ممسكاً باللجام.. جمع في

قبضته القوية كل الخيوط ولم يترك للرجل الأول الجالس على كرسي الحكم إلا مهمة المراسيم.. صدام بصفته نائب السكرتير العام للحزب يقوم بكل الأعمال الرئيسية.. أقدم في عام 1972 على خطوة شديدة الجرأة.. أمر بتأميم شركات البترول فاستشاط الغرب غضباً.. وكانت الخطوة القادمة الاتجاه شرقاً.. عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي.. الرئيس البكر راودته الرغبة في معارضة هذه المعاهدة.. لكن صدام ماعاد يحتمل مزاحماً.. أصابت طلقة مكتومة من مسدسه ذراع الرجل فأسكتت معارضته.. بعدها قبع الرجل في القصر صورة للزينة والمراسيم إلى أن رحل في 16 أيار 1979.. أصابته سكتة قلبية.. هكذا قالت الروايات الرسمية.. أما الرواية التي تناقلتها الهمسات أكدت أن الرجل مات مسموماً.

الآن لاحاجة للأقنعة.. أصبح المسرح له وحده.. الآن عليه أن يحكم القبضة أكثر.. كل المناصب الهامة والرئيسية تولاها أهله وعشيرته.. تكريت أوثقت بغداد إلى معصمها.. لا فرصة للنجاة ولا مخرج منه إلاّ إليه.. وداست أقدام العسكر الثقيلة أعناق الرجال.. وأخرست الألسنة في الحلوق.. خمسة عشر رجلاً «مجلس قيادة الثورة».. مجلس قيادة العصابة التي التفت حول الرجل القابض على السلطة.

في رحاب هذه السلطة الغاشمة ترعرع عدي.. شرب من كأس البطش حتى أترع.. الآن أنا لطيف يحيى.. قدر عليّ أن أكون واحداً من هذه العصابة.. هكذا خططوا.. واستهوى ذلك رأسهم.. حدق إليّ.. ضمني إلى صدره.. قال الآن لصدام ولد ثالث.

وأضاف بعطف زائد: أريد منك أن تقوم بواجبك على أحسن وجه.

أجبته موافقاً: نعم ياسيدي.

واصل: عندما تقوم بواجبك جيداً، تنال رضاي، وعندما تؤدي مهامك على الوجه الأمثل تجدني إلى جانبك ألبي ما ترغب وتتمنى.. لكن حاذر أن تغضبني.

سحابة قلق حومت حول رأسي.. سارعت بالتملص منها.. أجبته على الفور: آمل أن أفعل كل شيء بصورة جيدة.

إستدار دون أن ينطق.. عاد إلى مكتبه دون أن يصافحني مودعاً.. وتشاغل بالهاتف.. داست أصابعه رأس الجرس فجاء من يصطحبني إلى خارج الغرفة.

●●●

6

الظهور الأول

◎ على السرير الواسع في غرفة نوم عدى.. غرفة نومي.. تمددت، نسمات الخريف تتسلل عبر النافذة المفتوحة.. أتنفسها بعمق علّها تبدد هدة كياني بعد أن أرهقتني التمارين التي تضاعفت على أثر الزيارة التي أخذوني إليها.. البرنامج قبل الزيارة وبعدها هو هو لم يتغير.. تضاعف فقط الوقت المخصص للتدريب.. عليّ أن أعاود مشاهدة أفلام عدى.. أكرر المشاهد كالببغاء.. الكلام.. الحركات والسكنات.

منعم حمد مدربي الدائم يلعب دوره بمهارة.. هادىء وودود، لا يعكر صفوه إلا ذلك الجالس على عقبيه يحوطنا بنظراته الماكرة.. زياد حسن هاشم الناصري، الكلب المسعور الذي نهشت أنيابه القاتلة أعداء سيده القابع في القصر.. الكل يحذره حتى عدى.. ضراوته لاتخفى على أحد.. والعلاقة الخاصة التي تربطه بسيد القصر تقوّي شوكته.

يوم أتدرب على دوري كرئيس للنادي الرياضي.. ويوم آخر أتدرب على تفقد إحدى وحدات القوات الخاصة.. عليّ أن أذهب متأنقاً.. أحكم رباط العنق.. على وجهي النظارة الريبان الخضراء المحلاة بإطار ذهبي.. أحيي المستقبلين بإهمال وتعالٍ كما يفعل عدى.. عليّ أن أتظاهر بالعجرفة.. هكذا تقضي التعليمات.. تلازمني النظارة حتى في الأماكن المغلقة.. أحس تجاهها بالعرفان، أراحتني من عناء الماكياج.

لطيف يحيى ذلك الكامن داخلي يحن إلى التملص من قيد قالب الجص الذي يطبق على أنفاسي.. أهفو إلى أن أتكلم كما كان يتكلم، أضحك كما كان يضحك.. أمشي وأقعد كما كان يفعل، حتى طريقته في الرقاد على

الفراش ماعادت مستطاعة.. الفراش الوثير هو فراش عدي.. الغرفة والطرقات والمسبح.. حتى الهواء المتسلل عبر النافذة يحمل إليَّ أنفاسه.. تحوم حولي.. تطبق على أنفاس لطيف يحيى الكامن داخلي..

عدي الأصل الذي كان لا يكثر من الحضور إلى المكتب رقم 7 قبل أن أزور الوالد، أصبح الآن يأتي بانتظام، يحرص على متابعة تدريبي، كان يتحاشاني لكني أحس وجوده.. أنفاسه تلفح ظهري.. إنفجارات غضبه المفاجيء تزداد عنفاً كلما طالت مدة التدريب.

اليوم الثلاثاء أول تشرين الثاني عام 1987.. التلفاز يبث خبر تنصيب صدام لولده عدي رئيساً للجنة الأولمبية العراقية، صورته تتصدر صفحات الصحف الصباحية، الأوبزرفر البغدادية التي تصدر بالإنجليزية تشارك في الزفة الإعلامية.. في اليوم التالي جلست في مواجهة منعم أصغي لتعليماته، يلقنني تفاصيل الدور الجديد الذي عليَّ أن ألعبه.. عليَّ أن أتدرب على الوقوف في باحة المطار لأستقبل بعثة أولمبية تحط طائرتها على أرض المطار.. عدي جالس هناك في ركن الغرفة التي هيأت على شاكلة المطار.. بساط أحمر، باقات زهور، أصوات الطائرات التي تعلو أو تحط تنطلق عبر مكبرات الصوت المثبتة في أركان الغرفة.. أقف مشدود القامة.. يوجه منعم الحراس ليصلحوا من هيئتهم.. أنامله تهندم رباط عنقي.. أغلقت عيناى.. وتمثلت الرحلة التي أخذوني فيها الى المطار هذا الصباح.. إقتادوني إليه لأتهيأ لأداء الدور.. عشرة كيلومترات قطعتها السيارة في طريق المطار الخاص، على جانبى الطريق اصطف رجال الشرطة الخاصة.. مغروسين كأشجار البلوط لا تحرك رياح الخريف جذوعهم المستقيمة. يبدلونهم كل أربع ساعات بآخرين.. المهمة المعلنة حراسة الطريق المؤدي إلى المطار.. صدام لا يغادر العراق!!. إذن أى مطار يحرسون.. يحرسون في الواقع طريقه إلى المسكن الآخر.. القصر البديل الواقع غرب المطار، القصر الذي يسميه صدام المجمع الرئاسي.. أصبح للطريق الواقع مابين القصرين أهمية فائقة لذا يوليه رجال

المخابرات جُل عنايتهم.. الرئيس أصبح يستخدمه بشكل يومي للتنقل بين القصرين.. مبنى المطار ليس كبيراً، عند المدخل موقف واسع للسيارات، بهو واسع داخل المبنى اصطفت فيه الأرائك والمقاعد الوثيرة.. على الحائط المواجه للمدخل صورة بالغة الكبر للرئيس القائد، أسفلها صورة النسر العراقي وفي محاذاة صورة الرئيس العلم بالألوان والنجوم الثلاثة الخضراء.. عند الحائط المعلقة عليه صورة الرئيس منصة خطابة مجهزة.. البسط السميكة تفرش أرض البهو الواسع.. في باحة المطار تقف متأهبة خمس طائرات مروحية، وطائرتا بوينج، وآخرتان ميج عسكريتان.. وجميعها جاهزة للإقلاع في أى وقت.. أعلمني بهذا واحد من أطقم الطيارين العاملين في خدمة الرئيس.. كابتن مزهر التكريتي صديقي.. يعمل على إحدى الطائرات المروحية الرابضة في أرض مطار صدام الخاص.

إنتبهت على صوت منعم حمد.. البعثة وصلت الآن.. عليك أن تخطو إلى رئيس البعثة لتصافحه.. تستعرضا معاً حرس الشرف.. حاولت أن أصافح الخيال الذي يأمرني بمصافحته.. غالبت الضحكات فغلبتني.. تعالت قهقهتي.. واعتذرت على التو.. لكنه قفز مشتاطاً من الغضب نحوي.. هجم عدى عليَّ.. وجهه متحجر ويمناه تلوِّح بالكابل الكهربائي.. يصرخ.. يأمرني أن أستدير.. يوسعني بالكابل بضربات متلاحقة على الظهر.. يلهث.. تعلو خفقاته.. يهذي بكلمات متلاحقة متدافقة.. الألم يحتويني.. الواقفون أخرستهم المفاجأة.. لم يملك أحدهم جرأة مساعدتي ولو بكلمة.. ثلاثة وثلاثون ضربة من الكابل تركت علاماتها على ظهري.. تلاحقت أنفاسه المهتاجة فتوقف، تهالك على المقعد وهو يلهث.. فجأة أخذ يضحك في هيستريا.. إنفجرت أساريره بعد أن تحرر من ثورة الغضب.. إرتخت أعضاءه بعد أن روى شبقه للتعذيب.

آلام نفسي وجراح كرامتي أشد وطأة عليَّ من ضربات الكابل.. لماذا تعرضت للهوان هكذا بلا جريرة!!.. أى ذنب اقترفت لألقى مالقيت!!. ليس

غير أن سوء طالعي أوقعني في شباكهم.. قُدر عليّ أن أصادف من يتلهون بعذاب البشر.. يفرغون رغباتهم الجنسية المكبوتة في أجساد الضحايا.. يتوارثون البغضاء.. لازمت العصا الحديدية الأب عندما كان يتسكع في دروب تكريت.. ألهب بضرباتها ظهور كلاب القرية الضالة ورفاق صفه كذلك.. ولده أيضا يلازمه كرباج.. أوسعني به الآن ضرباً كما لوكنت كلباً ضالاً تعثرت فيه قدماه.

هبَّ واقفاً.. قال بخشونة: تابعوا.. قالها وولى.. تركنا نكمل المسرحية العابثة.

تتوالى الأيام والأسابيع.. التدريب الطويل تقتلني رتابته.. يصيبني بالملل.. في الصباح أتدرب.. في المساء أراجع الأدوار.. أصوب الأخطاء.. حاولت مرات أن أسجل التفاصيل كتابة لكني تراجعت خوفاً من الحراس.

الآن نوع جديد من التدريب.. المران على الاشتباك والرماية.. لازال الملل يرافقني.. التمرين رغم جدته لاشيء فيه لا أعرفه.. خبرته وأنا في مركز تدريب الضباط.. الجديد فقط طريقة استخدام عدى لسلاحه.. كيف كان يخطف مسدسه من الجراب المثبت على وسطه في خفة ورشاقة.. يلهو به كرعاة البقر الذين نشاهدهم في أفلام الويسترن الأمريكية.. عليَّ أن ألهو بالطريقة نفسها.

أحاولَ أن لاأفكر طويلا في معنى مايحدث لي.. كل الأشياء عابثة لا علاقة لها بالواقع.. حُشرت في جوقة تعزف في جنبات سيرك كبير.. حيوانات تروض.. فقط لمتعة المروضين.. السيرك بلا جمهور آخر سوى أهل السيرك.. الجمهور الآخر يقف بعيداً خلف الأسوار، إما خائف أو مبعد.

عليَّ أن أتنفس الصعداء.. 28 شباط 1988، إنتهى التدريب أخيراً.
وفي أول آذار 1988كتب منعم حمد التكريتي إلى مدير المخابرات يعلمه بنجاح مهمته:



الجمهورية العراقية
رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية
جهاز الامن الخاص
شعبة المتابعة السرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سري وشخصي للغايه

الى / السيد مدير جهاز الامن الخاص المحترم

سيدي أود اعلام سيادتكم بأني ومجموعتي من الضباط المشرفين على الدورة السرية الخاصة (بالملازم أول لطيف يحيي لطيف الصالحي) والخاصة بتدريبه على السلاح بأنواعه وتهيأته ليكون ممثل الاستاذ عدي صدام حسين المحترم وبذلك قد انتهت الدورة وبنجاح الملازم الاول لطيف يحيي لطيف الصالحي في تأدية الواجبات كلها على اتم وجه وبدقة متناهية فأود اعلام سيادتك بهذا الخصوص

ولكم الامر سيدي .

المقدم
منعم شبيب التكريتي
مدير شعبة المتابعة السرية

١٩٨٨ / ٣ / ١

ولك الأمر سيدي.. هكذا ختم الرسالة منعم.. الآن أنا في عهدة الآخرين.. الخادم أتى لي بحلل جديدة: حلة حارس شخصي، حلة طيار.. ثالثة سوداء مكتوب عليها عدي صدام حسين.. سلموني أوراق جديدة.. عدة هويات تحمل أسماء مختلفة إلى جوار صورتي.

- النقيب أهيب الحديثي، ضابط مخابرات، محمد سامي أحمد موظف بوزارة التربية، سرحان متعب الكمالي موظف بوزارة الصناعة، أسماء مختلفة كان علي أن أتسمى بها.. الآن لوقدر لي الاشتراك في عملية ما وأتت نهايتي فلن أكون إلا الرسم المثبت في البطاقة.. لا عدي ولا لطيف.. يالها من مصيدة محكمة تلك التي أقاد إليها.. وما أبأس المصير الذي ألمح طيفه يحوّم من حولي.

على أي شيء يزفُّ الفُجّر هؤلاء التهاني إليَّ .. التفوا حولي، عاملوني بود زائد.. حتى عدي بالغ اليوم في إظهار مودته، جالسني نشرب نخب نجاحي في التدريب.. شربنا معاً شراب الكونياك.. قال عليَّ أن أستريح في الأيام القادمة.. عليَّ أن أستجم.. لا ڤيديو.. لا تمارين كلامية.. خمسة أيام عليَّ أن أقضيها في راحة.. أستلقي على حافة المسبح.. أتمدد على العشب تدغدغني شمس الربيع.. الأطعمة المعدة على الطريقة الغربية تأتيني طازجة وشهية.. أتشاغل بترتيب الحُلل الجديدة في الخزانة.. والملابس الحريرية التي جلبوها لي من عواصم الموضة.. باريس.. روما.. حتى الجوارب والأحذية أتوا بها من الخارج.

وكان علي أن أعب من كأس الأحلام التي بين أصابعي قبل أن تنتهي.. أشربها حتى الثمالة ولاأفكر فيما هو آت.

تمددت في مساء الرابع من آذار 1987 على الأريكة أتلهى بمشاهدة شريط على الڤيديو.. طريقة العراك الياباني.. الساموراي، والقتال

بالسيف، مصارعو الكونغ فو والملاكمة الذاتية.. عدي يعجبه هذا الفيلم وأنا أيضاً.. تسلل عدي ومعه عزام عبر الباب المفتوح، لم أسمع خطواتهما، حياني عدي وجلس بينما ظل مرافقه واقفاً.

قال بطريقة هستيرية: لطيف، لقد أخذت وقتاً كافياً، نريد أن نمتحنك. سألته: متى؟ أجاب: بعد غد. في وقت متأخر بعد الظهر.. في ملعب الشعب الرياضي. هناك سوف يتبارى فريقان عراقيان من فرق كرة القدم.

من المنتظر أن يحضر المباراة جمهور كبير، ربما أكثر من خمسين ألف متفرج..المقصورة التي أخذوني إليها معزولة عن الجماهير.. المسافة بينها وبين مدرجات المتفرجين بعيدة.. المسافة بيني وبين الجمهور سوف لاتجعله ينتبه لو تعثرت في أداء دوري أو ارتكبت بعض الأخطاء..

قال محذراً: لطيف، هذا سيكون الحدث الأول الكبير لك، ركز عليه، كل شيء يحدث في هذا اليوم سوف يقرر الباقي.

القلق يحوِّم حول رأسي.. أفشل؟؟.. ليس عسيراً عليهم أن يودوا بي.. سوف يفعلون ذلك دون عراقيل.

ذهب عدي بعد أن اطمأن على أن تحذيراته اخترقت رأسي وكمنت في تجاويفها.. ذهب ولم أره إلا يوم المباراة.. جاء إلى غرفتي ليشرف على إعدادي.. جاسم الحلو مستشاره الشخصي لأمور الملبس أحضر لي طاقم ملابس فاتح، وقف يتأملني في خنوثة.. رائحة عطره النفاذة تحرق أنفي، وحركاته النسائية تستفزني.. جرأته في الحديث عن عدي في حضرته شدت انتباهي.. أبدى رأيه في ذوق سيده: عدي لم يكن له أبداً ذوق جيد في مسألة الملابس.. كان دائماً يستعمل ألواناً لاتناسب بعضها.

هذا الجاسم المخنث شديد الطرافة.. محاولته التعالي في نعومة غير

قادرة على إخفاء منبته.. الرجل الأنثى لم يكن غير خياط متواضع نشأ في أسرة غير ميسورة الحال.. إلى أن اختاره عدي ليكون رفيقه.. مستشاره للتأنق.. دائماً في صحبته ليبدل له ملابسه.. يسافران معاً إلى العواصم الأوروبية لندن وباريس وروما للتسوق والمتعة.. الرجل الأنثى يدور في الغرفة.. يذهب إلى الخزانة.. يفتحها.. يمط شفتيه في اشمئزاز وهو يطالع الحُلل المكدسة في الخزانة.. يحركها بيمناه.. يقول: ماذا عليَّ أن ألبس السيد الشاب الآن.. يختار لي جاسم بدلة فاتحة وقميص مقلم وربطة عنق لونها أحمر نبيذي.. يتلفت حوله ويقول مبدياً انزعاجه: لماذا إسماعيل ليس هنا.

إسماعيل الأعظمي هو حلاق عدي الخاص. ينسق له شعره كل يوم ويقصه كل عشرة أيام.. كافأه عدي على إخلاصه.. أهداه ثلاث محلات جعلته المزين الأشهر في بغداد.. عندما هيأت لزيارة الرئيس جاء وقص شعر رأسي وذقني.

إرتديت ملابسي، ساعدني جاسم في إحكام ربطة العنق، نظفت النظارة بمحرمة الفراش قبل أن ألبسها.

التوتر الذي بدا في التسلل إليَّ آخذ في التصاعد.. كان قد بلغ الذروة في اللحظة التي جاء فيها عزام ومنعم والحراس لاصطحابي.

أقود سيارتي المرسيدس وسط كوكبة من السيارات المماثلة.. عبرت السيارات العشرة شوارع بغداد. حتى وصلت شارع فلسطين أرقى شوارع العاصمة.. طريق مستقيم تتراقص على إسفلته الرائق الأضواء.. طالما عبرت مواكب الحزب خلال الاحتفالات المتكررة تلك الطريق.

السيارات المارة على الطريق تلتزم الجانب الأيسر لتفسح لقافلتنا.. الأولوية دائماً لقوافل القصر.. منعم حمد الجالس إلى جواري يسألني بين

حين وآخر عن حالي.. يحاول أن يبعث في تلميذه الطمأنينة.. يخاف أن تبدد مخاوفي كل الجهد الذي بذله.. يخاف الفشل.. يداعبني ليبعد عني علامات التوتر.. ونحن على خطوات من الملعب الكبير قال مؤكداً: إهدأ.. لن يحدث شيء.. منعم يقول ضاحكا: عدي السيجار. ضحكت أنا أيضا، تناولت منه علبة المونتي كريستو الفضية ووضعتها في جيب السترة قبل أن نغادر السيارة.

أسير وسط الحراس، أصلح من هندامي ونحن في الطريق إلى السلم، أتأكد من إحكام وضع النظارة، نتجه بخطوات مسرعة إلى المدخل.. نبضاتي تتسارع، العرق يبلل ملابسي الداخلية، أجاهد لأخفي ارتباكي يقودني الحراس إلى منصة الشرف.. مقصورة في القسم الأوسط من الملعب، صفت فيها المقاعد الوثيرة، وزينت بأصص زهور نضرة.. تتوسطها صورة كبيرة لصدام حسين.. وعلى مسافات متقاربة علقت الأعلام.. أجلسوني في الصف الأول، يحوطني الحراس من كل جانب.. الخمسون ألف الممتلئة بهم المدرجات يصفقون في حرارة مصطنعة.. يرسلون إليّ التحية.. يرسلون التحية بأكفهم إليّ أنا عدى صدام حسين .. يؤدون واجبهم لأن واحداً من العائلة أخذ مكانه في مقصورة الشرف.

الآن عليّ أن أبدأ اللعبة.. أشعل السيجار وأنفث الدخان تماماً كما علموني.. ألوح بيمناى كما يفعل عدى .. أصطنع حركاته.. يالها من مسرحية عابثة لاينتبه لها جمهور يجلس بعيداً ولاقدرة له على ملاحظة وقائعها لطول المسافة التي بينه وخشبة المسرح.. أقصد مقصورة الشرف.

إنصرفت عن متابعة المباراة إلى إحكام دوري.. كاميرات التلفاز العراقي تلاحقني بين حين وآخر.. أعرف أن المصورين تلقوا تعليمات

دقيقة.. كان عليهم أن يحاذروا أن تتضح معالمي.. عليهم أن لايركزوا على الوجه.. لاصور قريبة.. لذلك ليس عليَّ أن أهتم.. هذا ماقاله لي عدي.

فاز فريق نادي الطيران في المباراة.. رجحت كفته في نصفها الثاني .. أكذب لو قلت أني أعرف من أحرز الأهداف.. على المنضدة التي أمامي رص منعم حمد إحدى عشر كأساً في علب مخملية حمراء.. عليَّ أن أتعطف بها على الفريق الفائز.. أقف ملوحاً للجماهير التي تصرخ بالهتاف لي.. يأتي الحراس ليقودوني إلى أرض الملعب.. منعم حمد يهمس لي: لطيف تشجع.. أبذل كل جهدك، فكر بعون الله.. كلماته المشجعة ساعدتني على التماسك.. أسير وسط كوكبة الحراس متجهاً إلى حيث اصطف اللاعبون من النادي الفائز في انتظاري.. لاكلمة.. لاحرف.. مجرد إيماءة وأنا أتناول العلب من الحارس وأوزعها على أعضاء الفريق.. أحد عشر لاعباً كان عليَّ أن أشد على أياديهم.. أصافحهم الواحد تلو الآخر.. يأخذون الهدايا وكلمات شكر متماثلة تخرج من أفواههم كما لقنوا.. هم أيضاً ممثلون، دربوا على أداء أدوارهم مثلي.. استدرت عائداً إلى المقصورة.. لم أنس أن ألوح للجمهور.. سارع بي الحراس إلى السيارات المنتظرة.. عدنا كما أتينا بسلام.. الفرحة تنطق بها ملامح وقسمات منعم.. قال: كنت رائعاً يالطيف.. تمليت ملامحه.. أردت أن أقرأ في عينيه صدق عبارته.. أردت أن أعرف هل يعني ذلك حقاً أم أنها مجرد مجاملة.. أو هي أيضاً جزء من اللعبة.. لم أنجح في سبر غوره.. فشلت كما يفشل محبوب أغشى بصره من طول التحديق في وجه محبوبته.. أفقدته الصبابة القدرة على معرفة حقيقة الألق الذي يشع من عينيها.. هل هو حب، أم مجرد عطف.

الطمأنينة لازالت مفتقدة حتى بعد أن قيل لي إنك نجحت في أداء

الدور.. كان عليّ أن أقاتل شعوري بالقلق.. أردد داخلي: المهم أن تكون عدي.. أن تكون متعالياً وفظاً غليظ القلب والملامح.. أن تنتفخ أوداجك كبرياء، تتذكر كل لحظة ومع كل التفاتة أنك عدي صدام حسين.

وجدت عدي هناك عند البركة.. لازال ماء الحمام يبلله.. إتجه إليّ مرحباً,, قبلني في فمي,, قال: لقد كنت رائعاً.. كنت أتابعك على شاشة التلفاز.. لقد قمت بواجبك على أكمل وجه.. لم يلاحظ أحد اختلافاً.. حتى اللاعبون الذين صافحتهم عن قرب اعتقدوا أنك أنا .. إشرب.

ومد لي كأس الكونياك.. وشربنا معاً نخب نجاحي.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي للمباراة أوقظوني.. إحتسيت فنجان قهوة بدون حليب.. استدعاني منعم لغرفة عدي.. كان علينا أن نشاهد تسجيل المباراة ـ لم نذهب الى غرفة الڤيديو ـ شاهدناها في مكتب عدي.. جلست أتابع أدائي مسجلاً على الشريط، عدي الجالس بالقرب مني ظل يكرر كلمة رائع.. رائع، إنه فخور بي.. أشعر الآن بارتياح.. التعب والوساوس وساعات التمرين الطويلة.. طفرات غضب عدي.. كل ذلك ذهب.. إغتسلت نفسي وأصبحت رائقة.. الآن تأكد لي أن لطيف يحيى لم يعد موجوداً.. طويت صفحته.. إستقرت هناك في حوصلة داخل فؤادي.. أفكر في الأهل إنقطعت عنهم منذ ستة أشهر.. لايعرفون أين أنا .. حي أم ميت.. عندما كنت هناك في الجبهة، كنت أكتب لهم عندما تطول إقامتي.. أو أخابرهم بالهاتف.. الآن لا شيء من ذلك.. ترى كيف حال أمي؟. أحبها كثيراً وهي أيضاً، أفتقد حنانها وحنوها عليّ .. أعرف كم هي ملتاعة الآن على ولدها .. فلذة كبدها، وأبي.. الشيخ الوقور الذي أحاطني بشمائله.. نهلت من نبع حكمته، وتدرجت في كنفه.. أي أفكار عني تدور الآن في رأسه.

أود لو أفاتح عدي بما يمور في داخلي.. لكني غير قادر.. فضلت أن لا أعكر عليه فرحته، وأنا أيضاً أريد أن أعيش لحظة فرح بنجاحي الأول.

جلست أتأمله وهو يتابعني على الشاشة.. أتابع ذلك المدلل الذي نعمل كلنا من أجله.. أنا أشقى لأكون فداء له.. ينام كل يوم ساعات طويلة ولايستيقظ إلا في العاشرة والنصف.. يبقى حراسه ساهرون على حمايته طيلة ساعات الليل.. يجلسون إلى جوار المسبح أحياناً، يتشاغلون بتنظيف سلاحهم أو احتساء الخمر.. يتكلمون بلا معنى.. تعرفت عليهم جميعاً.

- رئيس الحرس، عزام التكريتي، أكبر من عدي بسنتين فقط، أعرفه من أيام الدراسة، كان تلميذاً سيئاً.. جالسته حول البار المنصوب على حافة المسبح مرات.. أفرط في الشراب في واحدة من تلك المرات التي جالسته فيها .. إنسالت خبايا نفسه إلى طرف لسانه.. قال لي أنه تجرأ وزور شهادته المدرسية.. إكتشف مدير المدرسة الأمر فأحاله إلى مجلس المعلمين، وكانت العاقبة الوخيمة.. أقتيد وهو ابن السادسة عشرة إلى السجن فلم يقدّر له أن يتم دراسته.. تعثر في مسيرته إلى أن جاءت الفرصة المواتية.. تعرف في نادي العلوية علي دابي المسيحي الذي كان قنطرته إلى عدي.. دابي حلو المعشر، كلما جاء إلى النادي أشاع البهجة فيمن حوله.. مثقف ولطيف، قادر على اجتذاب الآخرين إليه.. بشرته الشديدة البياض تزيده ألقاً.

دابي كان صديقاً لعدي ويعرف عزام أيضاً، مد بينهما خيوط التعارف.. أصبح عزام واحداً من زمرة عدي.. واختفى دابي فجأة.. حاول أن يتودد لواحدة من فتيات عدي فكان عقابه الطرد، ليس من النادي فقط .. بل من المجتمع البغدادي كله.

حاولت أن أعرف من عزام ماذا حدث للرجل فتهرب من الإجابة.. قال فقط إنه رأى دابي منذ فترة، وإن منظره كان فظيعاً.. قال إنه لا يعرف ماذا فعلوا به.

ـ أحمد سليمان المرافق الثاني لعدى، القوي البنية، يجيد لعبة الكراتيه، لم يزد تحصيله الدراسي عن دروس الاعدادية الصناعية التي أنهاها بصعوبة. لايأخذ الخجل إلى نفسه طريقاً.. عندما يرغب عدى فتاة يرسل إليها أحمد، مسؤول هو عن تأمين البنات لسيده عدى.. مجرم (ومغتصب.) متوحش، لم أعرف هذا إلاّ مؤخراً.

ـ سلام العوسي، مخبر خاص، يدون الملاحظات، يتجسس على أصدقاء عدى ويطلعه على تحركاتهم، خسيس إلى أبعد حد رغم قناع التأدب الذي يتخفى خلفه.

ـ مؤيد فاضل، حيوان يعامل ضحاياه بلا رحمة، يأمره سيده بالاغتصاب فيفعل بلاتردد.

ـ سعدون التكريتي، بارد الأحاسيس، أخصائي في التعذيب.

ـ نمير التكريتي، واحد من أقارب عدى، مسؤول عن تنظيم الاحتفالات، له خبرة عالية في إجراء المراسم.. وله ذوق كبير في إعداد الديكورات واختيار الموسيقى.

ـ مقصود التكريتي، مسؤول عن تليفونات عدى، ينظم المواعيد ويقرر لأى البنات يعطي التليفون الخاص لسيده.

ـ محمد الدوري، سائق خاص، صامت دائماً، يصطحب رفيقات عدى، مستعد دائماً رهن إشارة السيد الداعر.

هؤلاء بعض خلصاء عدى.. جزء من لائحة طويلة تضم الأصدقاء والمعارف.. أشخاص يلفهم الغموض الذي يعشقه عدى.. يحددون عالم

الرذيلة، عالمه السفلي الذي يخوض في وحله.. بعد أشهر إلى جانبه تجرأت على نصحه.. تمنيت عليه أن يحاول أن يعيش حياة مختلفة .. أن يعيش سَوياً بلا مجون.. حياة تؤمن له الابتعاد عن خطر الاغتيال.. قلت أن الحياة العاقلة تقلل عدد المصطفين في دائرة الانتقام المنتظر في الظلام.. لكن عبثاً كنت أحاول.. كل عظاتي عاجزة، لا حيلة للوعاظ في إصلاح شأن ضالٍ يدمن عوجه ويتلذذ به.. يعرف أنه عرضة للاغتيال لكنه لا يبالي.. يركن إلى الأسوار التي يشيدها النظام لحماية العصابة..

ملامح المهمة التي من أجلها انتزعوني من عالمي الوادع إلى عالمهم الصاخب آخذة في الاتضاح رويداً رويداً.. معالم الخطر الآن تعرفه العصابة.. كانوا يخططون لجرم كبير مع بداية عام 1988، يعرفون مدى النقمة التي سيجلبها عليهم هذا الحدث.. سوف يفعلون الجريمة الكبرى.. سوف يطلقون غاز الخردل على بقعة من أرض العراق ليحصد الموت الناس.. ناس العراق.. يالها من عصابة سادرة في غيها.

●●●

7 الخوف من الاغتيال

○ علي حسن المجيد هو ابن عم صدام حسين.. ولد وتربى في تكريت أيضاً.. لولا قليلاً من الاختلافات لكان نسخة من صدام.. الشبه بينهما كبير.. والاختلافات قليلة؛ متماثلان في طول القامة، ولون شعر الرأس وهيئته والذقن كذلك.. ربما أكثر ما يلاحظ من فروق ذلك «الكرش» المتضخم الذي يحوزه علي حسن المجيد.

علي حسن المجيد خدم في السبعينات كنائب ضابط في جيش الرئيس أحمد حسن البكر.. واتصف كغيره من نواب الضباط بالضراوة والوحشية خاصة مع الثوار الأكراد.

أكراد العراق يحملون السلاح دفاعاً عن هويتهم.. يناضلون في سبيل حق تقرير المصير كبقية أبناء جلدتهم الموزعون في سوريا وتركيا وإيران وماكان يسمى بالاتحاد السوفييتي.

(البشماركا) مقاتلون أشداء خاضوا قتالاً عنيفا ضد النظام بعد وصول أحمد حسن البكر إلى رأس السلطة.. والبشماركا ترجمة لكلمة كردية تعني (الذين ينظرون الى الموت بأعينهم).

وكان هؤلاء المقاتلون الأكراد يشنون الهجمات المتوالية منطلقين من مخابئهم في مرتفعات شمال العراق، منطقة كردستان العراقية الغنية بالبترول كانت هدفاً دائماً لهم.. وكانت إيران في تنافسها مع العراق تقدم للثوار الأكراد العتاد والمؤن..

حكومة العراق تحاول بكل الوحشية والضراوة التي يتصف بها جيشها القضاء على الثوار.. تنطلق طائرات الميج والمروحيات لتدك مواقعهم.. تمشط ألوية المشاة المدججة بالسلاح المرتفعات.. تتعقبهم في كل مكان.. لكنهم يحسنون الاختباء ويعاودون قض مضاجعها.

علي حسن المجيد شارك في واحدة من الهجمات التي شنتها قوات المشاة.. ووقع أسيراً في يد قوات البشماركا.. وكان يجب أن يعدم على الفور، لولا أن القيادة الكردية ترددت في ذلك لأسباب قدرتها.. واستطاع أن يرشو أحد حراس سجنه .. مناه بمستقبل باهر في بغداد إذا ساعده على الفرار.. كشف له صلته وقرابته بنائب الرئيس في ذلك الوقت صدام حسين .. وبالفعل هرب ومعه الحارس.. إلى بغداد.. ولقي الحارس بدلاً من المكافأة جزاء سنمار.. قتل على الفور بعد الوصول إلى بغداد.

عاد الأسير إلى بغداد التي احتفت سلطتها به.. رقي إلى رتبة ضابط.. وساعده ابن العم في الترقي في سلم الحزب أيضاً.. وحفلت صحف بغداد بالإشادة ببطولته وضراوته في القتال ضد الثوار الأكراد، وعظمت من قدره، نسجت من قصة فراره خيوط ملحمة زائفة.

وهكذا استمرت الحرب الضروس بين الثوار الأكراد وحكومة العراق منذ بداية العام 1972.. إلى أن نجح صدام نائب الرئيس والقابض على مقاليد السلطة عام 1975 في عقد معاهدة مع الشاه رضا بهلوي بشأن شط العرب.. تخلت بغداد بموجب المعاهدة عن الضفة الشمالية للشط في مقابل تعهد الجانب الايراني التخلي عن دعم الثوار الأكراد.. وهكذا أطلقت يد السلطة وقوى جانبها في مواجهة الأكراد الذين كانوا يمثلون

20٪ من جملة الشعب العراقي.. وبرزت مواهب المجيد الدموية.. سعى ومعه عساكره يكرون ويفرون في كردستان، يشيعون فيها الخراب.. يحصدون الرؤوس بلا رحمة.. لا يفرقون بين ثائر يحمل السلاح وامرأة تحمل صغارها.. الكل عندهم أكراد جزاؤهم القتل.. ولم ينج أحد من بطش ذلك السفاح إما مقتول وإما هارب يبحث عن غار يؤويه.. مئات الآلاف شردوا من مناطقهم.. وهدأت العاصفة الى حين.

وكان أمام ذلك الدموي مهمة جديدة.. أرسله صدام إلى الجنوب حيث ازدادت المعارضة لحكم حزب البعث.. الشيعة المتمركزون هناك ويتزعمهم إمامهم آية الله باقر الصدر يصمون نظام بغداد بالكفر، ويجاهرون بشق عصا طاعته.. واستضاف الجنوب الشيعي المعارضون لحكم الشاه في إيران.. ومن أبرز المعارضين في ذلك الوقت الإمام آية الله الخميني.. أربعة عشر عاماً قضاها الإمام الهارب من إيران لاجئاً في العراق.. وكانت النجف المقدسة مستقره إلى أن مدت خيوط المصالحة بين بغداد وطهران.. وتعهد صدام في معاهدة جديدة وقعها مع نظام الشاه بالتضييق على اللاجئين الإيرانيين.. وكان نصيب الخميني الطرد من العراق عام 1978.. إنتزع من النجف مهاناً فكانت باريس الوجهة التي سعى إليها ليواصل تصديه لشاه ايران. شيعة الجنوب تزداد القلاقل في صفوفهم ويزدادون نقمة على نظام بغداد السني.

عساكر النظام يدقون بأحذيتهم الثقيلة أرض النجف المقدسة، يقودهم المجيد لاستئصال المعارضة الشيعية.. يقتادون قائد منظمتهم المسماة (الدعوة) إلى السجن ومعه أختيه.. وكان مصير الثلاثة الموت شنقا.. وادعى النظام أنهم دبروا لمحاولة اغتيال صدام حسين.

آية الله باقر الصدر كان أول الضحايا، ورافقته أخته إلى النهاية، سحقت الآلة الدموية لصدام ثلاثتهم.. وأصدر النظام مرسوماً بتجريم حزب الدعوة.. وطورد المنتمين إليه.. وأمر المجيد بقتل المئات ليروع الشيعة.. أكثر من عشرين ألف شيعي فروا هاربين الى إيران في جنح الظلام يبحثون عن الأمان بعيداً عن بطش حاكم بغداد.. قد لا يرحب بهم نظام الشاه المتحالف مع نظام صدام، لكنهم كانوا يأملون في سقوطه، كما يأملون في سقوط صدام.. وقد تحقق ظنهم.. الإمام الذي عاش بينهم ورحل مطروداً الى باريس، قويت شوكته هناك وازداد أتباعه، وحميت معارضته للشاه.. عاد عام 1979 منتصرا إلى ايران، سقط الشاه وقامت دولة الخميني الإسلامية على أنقاض إمبراطورية الشاه.. نظام صدام يناصب النظام الايراني الجديد العداء.. ويبدأ في تحريض الأنظمة العربية عليه.. ويؤلب عليه في المجتمعات الدولية.

وانطلقت الحرب في 22 أيلول 1980.. حشد صدام على خطوط التماس ستة فرق مؤلفة من أربعمائة ألف رجل.. خطط العراق لتكون حرباً خاطفة.. لكن تقديراته لم تصب، واستمرت المواجهة الدامية ثماني سنوات، ولازالت النيران تأكل الأخضر واليابس على الجانبين.. ويكرر صدام دائماً أنه سوف يربح الحرب، لكن لاأحد هنا في العراق يصدق أن نهاية قريبة لهذه الحرب المجنونة آتية.. متاعب النظام تتزايد والأكراد هناك في الشمال يواصلون شن هجماتهم على قواته.

في 16 آذار 1988 بعد أسبوعين من قيامي بدول دور لي كبديل لعدى في مباراة كرة القدم أرسل صدام وزير داخليته الجديد علي حسن المجيد إلى كردستان ليواجه هجمات الثوار الأكراد.

كانت خطة المجيد بالغة الإجرام، تفوق مثيلاتها من خطط النازي، عرض خطوطها على قائده صدام فوافقه عليها.. كان أساس الخطة - التي يعول عليها النظام للقضاء المبرم على المقاومة الكردية - هو استخدام الغاز السام. حلقت المروحيات في سماء منطقة حلبجا.. أخذت تنشر الغاز السام وهي على ارتفاع لايزيد عن عشرة أمتار.. أكثر من خمسة آلاف خنقوا على الفور.. لاأحد استطاع من أهل حلبجا النجاة، الغاز القاتل يحاصرهم من كل اتجاه.. النساء، الأطفال والعجائز.. تكدست جثثهم على قوارع الطرق، وتحت أنقاض البيوت التي سويت بالأرض، احترقت الأشجار والحقول، ونفقت الحيوانات.. أي جنون هذا.. وأي بشر هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الرحمة!!.

وأطلق الناس على ذلك المجيد الآثم الذي قاد تلك المذبحة لقب (الكيماوي). كانوا يهمسون بالإسم وهم يتلفتون يمنة ويسرة والخوف يجتاحهم.

لا أحد في المكتب رقم سبعة ينكر ما جرى في شمال العراق، الكل يعرف لكن لاأحد يتكلم.. وأنا أيضاً رغم المشاعر التي تجتاحني تجاه ماحدث بقيت صامتاً.. نظرات عدي تحاول سبر غوري.. يعرف أن جدي وجدتي أتيا من هناك .. من كردستان.. قال إنه يكره البشماركا.. قال أنهم شعب جبلي متوحش قاتل.. تحرضه إيران وإسرائيل.. مجرمون وعميان.. وقال مؤكداً وفاضحاً نية نظام أبيه: يجب القضاء عليهم كلهم.

أنا له رغم منبت جداي كردي بغدادي، لا أنتمي لهؤلاء الأكراد المطلوب القضاء عليهم.. وهكذا.. يصنف النظام الناس وفق هواه.. هذا كردي شمالي، وهذا كردي بغدادي، له حق المواطنة لأنه وفي للنظام.

البشاعة التي اتصفت بها عملية المجيد قوبلت باستنكار لم يقتصر على الرأي العام العالمي، وإنما امتد ذلك حتى إلى الجدار الذي يتحصن خلفه النظام.. فسال برات مدير الشرطة اعترض علناً على الخطة، كان موقف المجيد وزير داخلية النظام منه وثمانية وعشرين من مساعديه حاسماً، لقوا جميعهم المصير المحتوم لمن يقول لا .. وزير الصحة رياض إبراهيم هو أيضا اعترض على استخدام الغاز القاتل.. كان الرجل شديد الجرأة، وقف في جلسة لمجلس الوزراء في مواجهة صدام، طالبه بتقديم استقالته.. وجاء رد صدام على الفور.. سحب مسدسه من الجراب المعلق على خاصرته، أمسك بالرجل من شعر رأسه، لامس بفوهة المسدس الفم وأطلق طلقته القاتلة.

خرست الأفواه المعارضة في العلن.. لكن محاولات الثورة على جرائم النظام لم تتوقف. المعارضة في الشمال الكردي والجنوب الشيعي تزداد ضراوة.. محاولات متعاقبة جرت لاصطياد الطاغية صدام لكنها فشلت.. وتعرض من قاموا بها لأبشع أنواع التعذيب ثم اهتزت أجسادهم على أعواد المشانق.. ولم تنجح تلك المحاولات المسرحية التي كان يقوم بها للتقرب إلى الشعب.. توقفت جولاته في القرى ومحاولات التبسط مع الناس.

توقفت الجولات رغم أن النظام كان يحوطها بسياج أمني بالغ الإحكام.. مئات الحراس يذهبون إلى مكان الزيارة ليؤمنوه قبل وصول القائد، وزيادة في الحيطة لم يكن صدام يذهب دائماً.. كان يرسل واحداً من بدائله.. لقي أحدهم مصرعه فداءً لصدام في إحدى محاولات الاغتيال التي خطط لها حزب الدعوة الشيعي.. لهذا اختاروني.. الأمر إذن ليس

مجرد لعبة يتلهى بها عدى.. حياة ابن الرئيس غالية.. ومحاولات الإغتيال لا تتوقف.. يجب أن يكون هناك من يُعد ليكون الفداء حين يأتي الخطر. كان عليَّ بعد أحداث حلبجا أن أكون رهن أمرهم .. لا وقت للهو أو للراحة.

البديل الثاني لصدام.. فواز العماري أصبح يظهر كثيراً.. أرى صورته تطل من شاشة التلفاز.. يشبه الرئيس كثيراً.. لكن العين الخبيرة تعرفه على التو. منعم حمد يتذمر كثيراً عندما يراه على الشاشة.. حسه الأمني يقول إن اللعبة غير متقنة، وأن ثمة فروقاً يجب الالتفات إليها.. ليس منعم وحده.. المقربون من الرئيس كانوا أيضاً يلحظون أن البديل لايتقن التشبه بالأصل الى حد المطابقة.

أُعد لمهمة جديدة.. مهمة ليست على شاكلة ظهوري الأول.. عليَّ أن أزور الجبهة في يوم الاحتفال بمولد صدام.. في 28 نيسان سوف تعم الاحتفالات العراق.. الجماهير المغلوبة على أمرها عليها أن ترقص وتغني ابتهاجاً في يوم مولد الزعيم القائد.

وجهتي كانت إلى هناك.. إلى البصرة في الجنوب حيث معقل الحركة الثورية الشيعية.. عليَّ أن أزور اللواء الرابع المتواجد هناك.. عليَّ أن أستقل مروحية لتأخذني إلى هناك.

جاسم أحضر من الخزانة حلة عسكرية سوداء.. إرتديتها ولم أنس إحكام رباط جراب المسدس حول خاصرتي.. من المقرر أن نطير في العاشرة صباحاً.. في الموعد المحدد كنا في مطار صدام الخاص.. أقلعت الطائرة قاصدة اللواء الرابع، حطت في باحة مقره الرئيسي.. عند ميدان التدريب اصطفت الفرق لإستقبالنا.. قائد اللواء وضباطه واقفون في انتباه.. هبط أولا منعم حمد، تبعه على التوالي: زياد حسن هاشم

الناصري وسعدى دمام هزع الناصري.. ثم الحراس، وهبطت أنا بعد الجميع.

خطا القائد نحوي وأدى التحية العسكرية.. تولى منعم مهمة تقديم الضابط الكبير لي.. استعرضنا حرس الشرف.. تدافع المصورون يلتقطون صور المشهد.. تابعوا بعدساتهم الحديث الذي يدور بيني وبين القائد.. أسأل عن حال الجبهة.. ويشرح هو الوضع العسكري.. ويعبر عن افتخاره بالدور الذي يؤديه، والشرف الذي ناله في ظل الرئيس القائد.. إسطوانة مكررة وبلا معنى تلك التي يرددها هؤلاء القادة.. يرددونها بطريقة تلاميذ المدرسة الأولية الذين يصيحون بنشيد الصباح مع كل مطلع يوم دراسي.. هذا القائد الذي يلهج بعبارات الثناء على القائد الأعظم صدام.. ربما لم تتح له الفرصة ليلقاه، ولا قابل قبل الآن عدى الذي جئته في صورته وملبسه.. وأجتهد في خداعه بطريقة كلامي، والأسئلة التي أطرحها، أما مايطرحه هو فكان سعدى دمام هزع الناصري يتولى الرد عليه نيابة عني.. بقينا هناك أكثر من ساعتين في ضيافة قائد اللواء وضباطه.. عدنا بعد ذلك إلى بغداد.. قابلني عدى هناك بترحيب زائد.. غمرني بالثناء بعد أن شاهد تسجيلاً للقاء.. قال أني رائع.. لقد وثقوا الآن بقدراتي وهاهي المهمات سوف تأتي متوالية.

في السابع من أيار تأتي إلى بغداد وفود من عدة نواد عربية، وسيبقون لأيام.. وكان عدى قد نوى في نفس الوقت أن يزور أوروبا، ولا يريد أن يؤجل رحلته.. وقد أعد عدى ومستشاروه خطة خطرة: عليَّ أن أستقبل البعثة في المطار وأصحبهم إلى الفندق الذي سوف تجري فيه المحادثات.. سوف يحضر عدى الاجتماع الثاني ويدير الإجتماعات ليومين.. ثم يرحل

ويترك لي مهمة توديع الضيوف كما استقبلتهم.

وقفت في موعد وصول الطائرة محاط بالحراس في صالة الاستقبال أنتظر هبوط طائرة الضيوف.. كلهم رؤساء نواد رياضية قادمون من دول عربية.. كان عليَّ أن أستقبلهم باعتباري عدي.. صافحتهم ولم ألمح انتباهاً من أحدهم أنه يقبض على كف البديل وليس عدي.. وحده المدير الكويتي فاجأني بما أربكني.. قال أنه ينقل لي تحيات صديقي فهد، ويسألني إن كنت أود أن أنقل له عبره شيئاً ما.. أي فهد هذا!!. لاأعرف أن لعدي صديقاً كويتياً يدعى فهد.. إكتفيت بإيماءة وابتسامة، ثم التفت إلى منعم أطلب عونه.. في السيارة أوضح لي الأمر.. قال أن المعني بالحديث هو فهد الأحمد الصباح شقيق أمير الكويت ويشغل منصب نائب رئيس اتحاد كرة القدم الدولي (FIFA).. ورئيس اللجنة الأولمبية الكويتية، عدي يعرفه من سنوات..

صحبت الضيوف إلى مقر النادي الأولمبي ثم تسللت عبر باب خلفي وتركت عدي يتابع المهمة.. لم يلاحظ أحد أي شيء.. بعد أن تناول معهم طعام الغداء التقاني في غرفة جانبية.. قال إن هؤلاء الأشخاص مملون وإنه عليَّ أن أصحبهم بدلاً منه إلى فندق عشتار شيراتون الذي سوف تجري فيه المحادثات.. وعاد إليهم في المساء للتباحث.. في صباح اليوم التالي قرر أن يطير إلى أوروبا قبل موعده المقرر.. حاول منعم حمد أن يقنع عدي بالبقاء.. قال أن المسألة خطرة.. لكن عدي كان قد اتخذ قراره بالرحيل.. إكتفى بالقول: يجب على لطيف أن يتابع المحادثات.. وأضاف متوعدا. قال لعزام: إذا فشل في المهمة عليك أن تلقي به فريسة للكلاب.. قالها بحدة وانصرف.. لم تكن المحادثات وحدها.. كان على عدي أن

يحضر مباراة ودية يوم التاسع من أيار.. من المقرر أن يقابل فيها الفريق الدولي العراقي فرقة أوروبية.. سوف يأتي الفريق الأوروبي يوم الثامن من أيار إلى بغداد.. أرسل عدى اعتذاراً للوفود العربية عن مواصلة المحادثات لسبب لم يشرحه لي أحد.. وذهبت أنا إلى المطار أستقبل الفرقة الأوروبية.. أخذتهم من هناك إلى الشيراتون حيث تقيم الوفود العربية.. مر الأمر بسلام.. رغم الفوضى التي أحدثها السفر المفاجىء لعدى.. صحف الصباح حفلت بأخبار وصور اللقاءات.. وامتلأت بالثناء على عدى وجهوده الرياضية.. كانت أكثرها توسعاً في ذلك صحيفتا البعث الرياضي وبابل.. الصحيفتان لاتخضعان لإشراف وزارة الاعلام كبقية الصحف العراقية، يملكهما عدى ويدير تحريرهما نيابة عنه عباس الجنابي، منحه شرف هذا المنصب على سبيل الترضية.. فقد تعدى عدى على ابنة أخيه الطالبة في كلية التربية الرياضية واغتصبها.

بعد الظهر بقليل امتلأت مدرجات ملعب الشعب.. جلست في المقصورة الرئيسية ومعي الضيوف العرب.. بدأت المباراة بين فريقنا والفريق الأوروبي.. خسر فريقنا المباراة وضاعت سدى ضيحات الجمهور الذي أخذ يهتف له في المدرجات مشجعاً.. عار كبير.. لا يتحمله النظام الذي يؤكد على مسامع المشرفين على الفرق الرياضية، أنه يجب على الفرق الرياضية العراقية ألا تخسر أبداً.. لايعرف معنى للروح الرياضية التي تسلم بأن الخسارة والمكسب في الرياضة متداولان.. وكان عليّ أن أنزل إلى أرض الملعب لأوزع الهدايا على أفراد الفريقين، وأن أدعوهما للعشاء في الشيراتون.. تصرفت طبقاً لما هو مرسوم. العشاء تم وفقاً للبروتوكول المعد سلفاً.. الأمور لازالت تجري بسلام.. في صباح اليوم التالي للمباراة

صافحت أفراد الفريق الزائر وودعتهم حتى باب الطائرة التي أقلتهم ليعودوا إلى بلدهم.. تنفست الصعداء.. عدي سوف يكون راضياً عني عندما يرجع من عطلته.. أدائي اتسم بالجودة، هكذا قلت لنفسي.

أعيش هنا لحظات الخطر.. وهو هناك في العاصمة السويسرية.. يستمتع بنعيم جنيف.. جنيف التي تسحره، ويطير إليها مرات عديدة في كل عام.. يعيش صخبها وهدوءها.. ينزل ضيفاً على عمه برزان.. برزان التكريتي الأخ غير الشقيق لوالده.. يعيش هناك في جنيف ممثلاً للعراق في الأمم المتحدة.. ذهب إلى هناك بعد أن أقصي من المنصب الذي كان يشغله.. رئيس المخابرات.. الناس تعرف في العراق عنه أن له إلى جانب وظائفه المعلنة وظيفة أهم.. كان يدير ثروة الأسرة العصابة، كان الناس يسمونه في همساتهم وزير المالية السري .. يعرفون أن وجوده في جنيف كسفير مجرد غطاء للمهمة الأعظم.. مهمة تحويل أموال صدام من العراق إلى سويسرا.. التعامل مع تجار السلاح الدوليين، الدخول إلى عالم المتاجرين في أسرار الأسلحة الذرية التي يسعى العراق لامتلاكها.

وعاد عدي في 18 أيار تصحبه مضيفة طيران اسمها ميلاد.. لم يكن رائق المزاج.. دخل إلى غرفته ومعه الفتاة.. عرفت من حراسه أن الكدر البادي عليه يرجع إلى خسارة كبيرة ألمت به.. خسر على طاولة اللعب الخضراء في واحد من كازينوهات القمار التي يرتادها كلما ذهب إلى أوروبا.. عاد مهموماً وكذلك من كانوا في صحبته: مؤيد، زيد كمونة، أحمد كولا، دريد غناوي وطاقم طائرته الخاصة، وكذلك ميلاد المضيفة الجميلة التي ضاجعها لمرات فأعجبته وعينها رئيسة للمضيفات لتكون في صحبته دائماً.. كانت الفتاة أنموذجاً للجمال الكامل.. ممشوقة القد، طويلة القامة،

شعرها البني ينسال في رقة على الكتفين.. شفاهها كحبتي كرز.. شرايينها تكاد تبين من خلف بشرتها الشديدة البياض .. كل هذه الحلاوة لم تكن قادرة على تبديد الكآبة التي أحاطت الفتى من جراء الخسارة الفادحة.. كم بلغت.. الله أعلم.. لكنها ربما اقتربت من المليون دولار.. فهو يحب المجازفة.. والذين يديرون الكازينوهات التي يرتادها كانوا يزينون له الأمر.. يحجزون له في كل مرة طاولة خاصة.. ينحنون في تأدب ويستجيبون لرغباته الحمقاء.. فهو صيد ثمين.. من أجله يغضون الطرف عن قوانين اللعب وتقاليده يسمحون له بالمراهنة بمبالغ تفوق ماتحدده لوائح الكازينو.. يلعب هو كالمنوم .. تعلو الحمرة وجهه ويتطاير الشرر من عينيه.. لا يحتمل أن تخرج مقاليد الأمور من بين يديه.. تعود أن يكون مسيطراً.. لكن على حافة المائدة الخضراء الأمر مختلف. الفتى خارج عرينه بغداد.. والذين حول مائدة الروليت ليسوا حملة مباخر أو خدماً في قصر السلطان.. رجال من جنس آخر لم يألفه.. متأدبون في برود.. مهذبون في أنفة.. يزيحون «فيشات» اللعب جانبا بلباقة.. يوقع الشيك تلو الآخر بعد أن خلت جيوبه من المال السائل.

حاول عمه برزان والذي رافقه هذه المرة الى الكازينو أن يمنعه ليقلل من حجم الخسارة.. لكن الفتى المعاند أبى.. أصر أن يلعب ويخسر إلى أن بلغت الخسارة أربعة ملايين دولار.. هذا ما أكده من كانوا هناك.. وكان يمكن أن تتضاعف الخسارة لولا العم برزان الذي قرر أن يضع حداً للمأساة.. قام مغادراً وخلف الفتى إلى جوار الطاولة.. ولم ينس أن يأخذ دفتر الشيكات معه.. استشاط عدي غضبا فقد حيل بينه واللعب عنوة.. لا مال سائل ولا شيكات.. وكانت الفرصة مواتية.. كان هناك من ينتظر

الصيد في الماء العكر.. لاعب آخر من أصول عراقية يعيش حياة الفسق والفجور.. قال الفتى إنه مستعد أن يقرضه مليون أخرى مقابل أن تكون ميلاد له هذه الليلة.. إلتفت عدي إلى ميلاد وهز رأسه موافقاً.. عرفت ميلاد ماذا عليها أن تفعل.. عليها أن تذهب إلى فراش الرجل وفقاً لرغبة فتاها الذي أصبح قواداً في مقابل مال يواصل به اللعب على المائدة الخضراء.. المائدة التي حولت ابن الرئيس ورئيس اللجنة الأولمبية العراقية إلى مجرد قواد.. ياله من عار.. حتى هذه المليون الجديدة خسرها أيضاً.

عاد مهموماً وثائراً.. دلف إلى مكتبه والفتاة برفقته مهاضة مكسورة.. صرخاته المجنونة تأتينا عبر الباب المفتوح.. نسمعها عالية ونحن هناك عند المسبح. كان يصرخ في الفتاة: ماذا فعل بك الرجل.. قولي لي ماذا فعل؟.. الفتاة لا تنطق رغم حدة الصراخ، وقسوة اللكمات التي يكيلها لها عدي في غمار اهتياجه.. لكن قدرتها على الاحتمال توهنها الضربات فتنطق وهي تنوح: قال لي إن عدي متعجرف ومتعصب.. إشتراني ليعلمك درساً.. نعم لقد قال لي ذلك.. ها أنت عرفت لماذا؟ وازداد نحيبها حتى غطى على صراخه.. سكت الصراخ والنحيب وخرجت الفتاة.. أخذها الحراس إلى المجهول. وخرج عدي ولازالت النار المتأججة داخله لم تخبو.. وقف في مواجهتي وسأل عن مباراة الفريق العراقي.. فزاد هياجه لما عرف أن الفريق مني بالخسارة.. كال لي الضربات.. حاولت أن أقول أن اللعب مكسب وخسارة.. ضاعت كلماتي في الهواء.. الثور الهائج غير عابىء لا يتوقف.. أمر عزام أن يأخذني.. قادني إلى سجن في المقر الرئاسي.. أبقوني هناك قرابة أسبوعين.. السجن مختلف هذه المرة.. الغرفة واسعة والطعام جيد.. الحراس عاملوني بطريقة حسنة.

أعادوني إلى النور ثانية.. أخذت هذه المرة إلى بناية جديدة مؤلفة من تسع طوابق، عمارة «الحياة»، المخصصة لأعضاء جهاز الأمن الخاص.. منحوني شقة في البناية.. الشقة كانت كافية.. غرفة إستقبال، وغرفة مكتب.. وثالثة للنوم.. وكانت مؤثثة بطريقة فاخرة.. وجاء عدى لزيارتي.. كان ودوداً وهادئاً على غير عادته.. وتكررت زياراته لي في شقة «الحياة».. مرات يكون وادعاً وبالغ اللطف ومرات أخرى تعاوده الحدة.. ينظر إلي بإمعان.. يقول بصوت جهوري متوعد: لاتتدخل في أموري الخاصة، عليك بإطاعتي وليس مناقشتي.. يقول هذا دون مقدمات وبلاأسباب مفهومة.. وكان عليّ أن أتحمل وده وهيجانه معاً.. فهذا قدري.

●●●

8

الاعتداء

○ 18 حزيران، بعد الظهر بقليل، جاءني من على الطرف الآخر للهاتف صوت عدي.. قال لي أنه سوف يرسل من يصطحبني في المساء.. وطلب أيضاً أن أحلق لحيتي وأترك شاربي، وأرتدي حلة حارس عادي .. كان رقيقاً في محادثته، بعد أن أنهى تعليماته حول المهمة سأل عن أحوالي .. في المدة الأخيرة داوم على ملاطفتي.. جاهد ليخفي آثار ماصنع بي في ثورته الأخيرة.. وعرض عليّ الانتقال إلى شقة جديدة في مجمع القادسية، شقة أكثر اتساعاً.. مجمع القادسية مخصص أيضاً لجهاز الأمن الخاص.. زرت الشقة.. فاخرة حقاً ومتعددة الغرف، غرفة استقبال كبيرة، غرفة مكتب تجاورها غرفة إستقبال أخرى، وعدة غرف للنوم والمعيشة.. يقوم على خدمة الشقة مجموعة من الخدم.. عليّ أن أهنأ بما يتيحونه لي من أسباب السعادة.. لكن كيف!!.. قبل أربعة أيام، في 14 حزيران أتممت السنة الرابعة والعشرين من عمري.. في مثل هذا اليوم كانت أسرتي تحتفل بعيد ميلادي، جلست وحيداً في الشقة.. يملؤني الملل وتغشاني الكآبة.. أخذتني الأفكار بعيداً.. ماذا لو كنت اليوم بين أسرتي.. ترى كيف كانوا سيحتفلون بهذه المناسبة.. هذا يوم عظيم القدر لهم.. فيه ولد ابنهم الأكبر الذي يعزونه.. كانوا سيستأجرون صالة في أحد الفنادق ويأتون بفرقة موسيقية ومغنين وراقصات.. اليوم يوم خميس.. وكان ذلك سوف يجعل الأمر أكثر بهجة.. أيام الخميس في العراق لها ألق خاص.. نهاية أسبوع من الكد والعمل الدؤوب.. من حق الناس أن يغتسلوا

من عنائهم.. يرتادون الفنادق.. ويذهب بعضهم إلى البارات ونوادي اللهو التي تسهر حتى صباح الجمعة.. يوم الراحة الأسبوعي.

كل فنادق العراق تحرص على أن توفر لروادها أسباب المتعة.. بارات ونوادٍ ليلية.. مغنون وراقصات.. في هذا اليوم.. لو لم أكن هنا وحيداً أعب من كأس الوحدة لكنت هناك محاطاً بالأهل والأصدقاء.. الأصدقاء.. آهة تخرج من صدري.. أين هم الآن.. هل لايزالون يذكرون بعد فتى يدعى لطيف.. أحاضرة لديهم أيام لهونا وجدنا.. أم بهتت الذكرى بفعل شهور الانقطاع.. أعب الكأس تلو الكأس.. أعالج آلام نفسي.. حرارة الويسكي تسري في خلاياي.. تحررني من الألم والوساوس.. وتهالكت مهدوداً على الفراش، رحت في نوم عميق، قضيت أياماً ثلاثة فاتر الهمة معلولاً.. إلى أن دعاني على الهاتف.. كنت أتوقع المكالمة.. اليوم هو الثامن عشر من حزيران.. في مثل هذا اليوم ولد عدى.. أعرف شغفه وعشقه للبهجة.. كنت أعرف أن يوماً كهذا لن يمر دون احتفال.. وأي احتفال.

هناك في المكتب رقم سبعة .. خلية نحل تتبارى ليكون الحفل لائقاً بالسيد.. نمير التكريتي يضع اللمسات الأخيرة؛ طلاء جديد، فراش أكثر بهاءً.. باقات زهور نضرة تحفل بها الأركان.. صناديق الشمبانيا مكدسة إلى جوار المسبح.. هذه هي المرة الأولى التي يحتفل فيها بعيد مولد عدى في هذا المكان.. جرت العادة أن يجري ذلك في أحد نوادي بغداد الواسعة، وكان الناس يحشدون برغمهم أو برضاهم للمشاركة.. وتشيد الصحف والإذاعة والتلفاز بمولد الفتى ابن القائد.

الفتى حياته كلها وليس يوم مولده حافلة .. وفر له نظام الوالد كل أسباب العزة والافتخار.. وضعت تحت تصرفه أموال طائلة، وتوفر على خدمته مرتزقة النظام.. يزينون له كل أنواع المباذل والفحشاء.. يعيشون

به ومعه في مستنقع الرذيلة والإثم.. حاز القوة والجاه مسنود الظهر إلى جدار أبيه الصلد، وتحرسه يد أمه الواسعة النفوذ.. ولد مدللاً وترعرع محاطاً بكل الاهتمام رغم افتقاره لأي امتياز.. العقوق والتمرد لازماه منذ أن كان صبياً.. أرهق المعلمين طوال سنوات الدراسة.. إنصرف عن تحصيل العلم الى المشاغبة وإظهار التفرد.

كان فظاً ومقززاً حتى أنه وهو في سن الرابعة عشرة دأب على التبول في ساحة المدرسة على مرأى من الأساتذة والتلاميذ.. وبلغت قحته حداً جعله وهو في سن الخامسة عشرة يعيّن من يحضر له البنات ليلهو معهن.. دأب على المباهاة بالقدرة على استخدام السلاح، ووقف وهو في سن السادسة عشرة في ساحة نادي العلوية يطلق في الهواء النار من كلاشنكوفه وسط تصفيق حاد من المتملقين للنظام وسدنته.. هذا هو الفتى الذي مقدر علينا أن نرسم على وجوهنا علامات الفرحة اليوم إحتفاءاً بمولده.

وقفت أمام المرآة وشرعت في حلاقة لحيتي كما طلب.. حدقت في وجهي وأسناني الصناعية.. الأفكار حول صاحب الحفل تلاحقني وتأبى الانصراف.. أسأل نفسي مجدداً لماذا يعشق الفتى هذه الحياة الصاخبة.. نمط لا يتغير.. ينهض من فراشه قبل الظهر بقليل.. يتناول وجبة الغداء غالبا في المكتب رقم سبعة وأحيانا في أحد النوادي.. بعدها ينطلق بزمرته.. يقتحمون مقاهي بغداد ليعبثوا.. ثم يعرجون الى مدارس البنات وجامعات المدينة لينتقوا له الفريسة.. أحياناً يجولون الشوارع لاصطياد فتاة شاء حظها العاثر أن تتواجد لحظة تسكعهم.. ينزل الفتى ويسير إلى جانبها.. يحاول إغرائها وإن لم تستجب يرسل واحداً من أتباعه ليعيد المحاولة، وإن تمادت في الرفض يأمر بخطفها، شبقه للجنس

كان يدفعه إلى سلوك مشين.. يأتونه بزمرة من الفتيات دفعة واحدة لينتقي فريسته، أو ليجبرهن على ممارسة الجنس الجماعي.. يبدأ ليلته بالخمر وينهيها بها.

يبدأ يومه بطقوس معتادة .. يدير قرص الهاتف ليتلهى مع الفتيات.. يقوم بعدها إلى خزانته لينتقيّ حلة اليوم، يقف إلى جانبه جاسم ذلك المخنث، مستشاره في شؤون الملبس.. يتناقشا بحدة حول أشياء تافهة.. رباط العنق هذا لا يناسب القميص، هذا القميص نقوشه لاتتناغم مع خطوط الحلة.. وهكذا يمضيان وقتاً طويلاً حتى يقررا مايجب أن تكون عليه هيئة السيد المبجل في هذا اليوم.. الساعة هذه أم تلك .. الخاتم المحلى بالفص الأزرق أو المائل إلى الحمرة.. السلسلة الذهبية المدلاة أم المحبوكة على العنق.. يتناقشان بحدة وكأنهما سوف يقرران أمور الحرب والسلام.

كان الفتى يملك أكثر من حاجته.. لكنه رغم ذلك كان فارغ العين كما يقول المثل.. لا يطيق أن يرى مخلوق آخر أكثر أناقة، أو يحوز ما يشد الأنظار إليه.. كان فتانا على الفور يأمر حراسه بإزاحة المنافس.. يفقد السيطرة على امتلاك زمام نفسه إذا ما رأى أن واحداً آخر يملك سيارة لا يملك هو ما يماثلها.

واعتاد الآخرون سلوكه.. قبلوا به راضين أو مكرهين.. فتية النوادي التي يرتادها كانوا يحاولون أن يتجنبوا ما يجعلهم وقوداً لناره المتأججة على الدوام.. تكية الدراويش، الصيد، الزوارق والعلوية.. ليس رواد النوادي وحدهم بل وأيضا نزلاء فنادق بغداد وحاناتها ونوادي المجون.. كلهم يعرفون طباع عدي، ويعرفون أكثر كيف يتصرفون في حضرته.. يقفون إجلالاً لحظة تشريفه المكان.. لا يرقصون إلا إذا أمر .. وتنزاح كؤوسهم

جانبا انتظاراً لارتفاع كأسه.. غالبا مايأتي مصحوباً بكوكبة من النساء.. ثمان أو عشر.. يأتي بهن إلى صالات الرقص في فنادقه المفضلة بابل أوبروي، الرشيد والمريديان.. تخلى ساحة الرقص له ولفتياته.. يشهد الرواد سلوكه المشين مع حريمه.. تضرب آذانهم كلماته الساقطة.. يهتز منتشياً فتتلاحق طلقات مسدسه على إيقاع الموسيقى، تحفر العلامات على الحائط والسقف.. أحياناً يتمادى في غيه فيصوب المسدس إلى أقدام الخدم والسقاة.. خاصة إذا كانوا مصريين.. هو يكره المصريين.. ويصفهم بأنهم طاعون.

عدى يشعر خلال سهرات مجونه أنه قوي وقادر.. هو ابن صدام مالك هذا البلد.. يقتفي أثره في المباهاة بالقوة وبما يحوز.. يسبح في بحيرة غروره ويفاخر بسلطانه، يراه في كل زاوية وعند كل ناصية، صوره وتماثيله منصوبة في كل ميدان وعلى ناصية كل شارع.. يسمع الثناء عليه عبر المذياع والتلفاز كل ساعات النهار.. المذيع الشاب يفتتح برنامجه بقصيدة مديح يعدد فيها ألقاب القائد، صدام الرئيس، القائد الأعلى، بطل القادسية، فارس الأمة العربية، الفارس المغوار، البطل المهاجم، خليفة رسول الله، المقاتل الشريف، المنحدر من سلالة الإمام الحسين بن الإمام على بن أبي طالب.. فكيف لايباهي عدى بهذا الأب وهو غارق في بحر تلهج أمواجه وتتدافع للثناء على ذلك الوالد.

ولد الفتى وبين أصابعه ملعقة من ذهب.. تدرج في سنوات طفولته محاطاً بكل أسباب الرعاية.. قطاره المسرع لم يتوقف عند محطات المعاناة كبقية الأطفال.. لم يحفل بدرس.. رأسه الصغير مشغول بما هو أكثر إمتاعاً وأقل مشقة.. رغم ذلك كان يحوز المركز الأول دائماً في المدرسة، وحتى عند تخرجه من الهندسة حاز لقب المهندس رغم أنه لا

يعرف كيف تُستخدم لوحة الرسم .. أنكر ذلك اليوم المشهود.. أقامت الجامعة حفلاً حضره أساتذة جامعات بغداد.. ولم يكن مسموحاً للطلاب بحضور الحفل.. إلا طالباً واحداً بالطبع عدى .. لم يكن مجرد طالب.. لقد منحوه ويا للسخرية لقب المدير الفخري للجامعة.. تقديراً - هكذا تقول الرواية الرسمية - لتمويله بناء جامعة صدام للهندسة.. وتمادوا في تملق النظام فعينوا الفتى ابن الثالثة والعشرين أستاذا في الجامعة.. وتقدم مازن عبد الحميد باقتراح انتخاب عدى صدام رئيساً للجامعة فتم إجازة ذلك دون أن يعترض أحد .. عدى الذي لايجيد كتابة جملة مفيدة عين رئيساً للجامعة.. أي عبث هذا!! .. لكن لا أحد ممن صدمتهم وقاحة النظام قادر على التبرم فضلاً عن الاعتراض فيد النظام ثقيلة وعقابه حاضر يحوم حول الرؤوس.

وبنفس الطريقة العابثة انتخب على رأس الاتحاد الأولمبي العراقي.. أنتخب وهو لايعرف الفارق بين كرة القدم وكرة السلة.. ياله من واقع مؤلم.. شريط بالغ الطول وحافل بالكوميديا السوداء مر أمام ناظرى وأنا واقف أعد نفسي لاحتفال مولد الفتى.. أنهيت تصفيف شعرى.. خطوت إلى خزانة الشراب وأعددت لنفسي كأساً.. تهالكت على الأريكة.. حان موعد الغداء لكن لا رغبة لي في تناوله.. للمرة الأولى ألحت علي رغبة مفاجئة في تسجيل بعض ملاحظات عن الفتى.. أخذت في الكتابة على قصاصات كانت على المنضدة.. أجتر علاقتي بالأشياء والأشخاص الذين أعايشهم في هذا العالم العابث إلى حد المأساة.. منعم حمد وحده الذي باستطاعة المرء أن يركن إلى الثقة به.. الضابط الوحيد الذي لاحظت أنه رغم معرفته بكل خفايا اللعبة ومشاركته فيها.. لاحظت أنه يعاني ألماً مكتوما تموج به جوانحه من جراء تلك المشاركة.. يحرص على مودتي

وكأنه يعتذر لي أو لنفسه..

- أسجل أول ملاحظاتي عن ذلك المدعو عباس الجنابي مدير صحف عدي.. قهقهت طويلاً وأنا أكتب اسم الرجل .. قابلت ذلك المغفل مرة في النادي الأولمبي.. كان يرى خزيه في عيون الآخرين فيتظاهر بالقوة.. كان يعرف أن الكل يعرف أن عدي لم يعينه في منصبه هذا إلاّ جبراً لخاطره المكسور بعد أن اغتصب ابنة أخيه.. عينه مديراً لصحيفتي بابل والرشيد اللتان يرأسهما عدي.. عدي الذي تصور أنه كاتب كبير، وشبه نفسه في أحد اجتماعات الكتاب بالشاعر الكبير الجواهري.. لقد أوهمه المتملقون بذلك، كتبوا له عروضاً لبعض الكتب وجعلوه يقدمها باسمه.. وكان من بينها كتاب جده العظيم خير الله الطلفاح، الكتاب الذي يحمل عنوان «ثلاثة أشياء لم يكن عليها أن توجد.. الفرس،اليهود والذباب الأزرق». هذا الجد يمثل للأسرة أهمية بالغة.. صاغ ملامحهم وانطبع تأثيره على سلوكهم.

– أكتب على ورقة جديدة اسم هذا الجد.. خير الله الطلفاح.. ترى من هو هذا الرجل الذي يكره الفرس واليهود والذباب الأزرق كراهية البشر للطاعون؟! نشأ الرجل في تكريت وشارك وهو ضابط في الانتفاضة التي قامت في وجه الملك الهاشمي فيصل الثاني عام 1941.. جُرد من رتبته وطرد من الجيش.. وشهدت الشوارع نشاطه الإجرامي كسارق يسعى لسلب الأموال، في كنفه تربى صدام.. تربى في بيت الخال السارق فانطبع السلوك المنحرف في رأسه الصغير، وكان البداية لمسيرته ولسلوك ابنه عدي فيما بعد. أكتب في الورقة مايدور في ذاكرتي.. تحضرني وقائع كثيرة رواها لي عدي عندما تآلفنا في سنوات الدراسة، رأيت ألا أتوقف عندها كلها حتى لا تأخذني بعيداً عن الخطوط التي أردت

تسجيلها.. خير الله كان لديه ابن، عدنان خير الله، جمعت بينه وبين صدام الصداقة إلى جانب صلة الدم.. في بغداد التي انتقلت إليها أسرة الخال ازداد صدام صلة ببيت خاله.. البنت الكبرى ستكون زوجة المستقبل.. العائلة تيسر حالها وامتلكت أسباب القوة.. تزوج صدام ساجدة عام 1963 ورزق منها بطفله الأول عدى بعد عام واحد من الزواج، ثم بعد آخر جاء شقيقه قصى. تقفز إلى ذاكرتي العلاقة بين عدى وقصى، جدّ مختلفان.. قصى هادىء في البيت وفي المدرسة، متوقد الذهن، محبوب ومفضل عند الأب صدام، مما كان يثير عليه حفيظة عدى.

عدى العدواني كانت الإقامة في بيت الجد خير الله تروقه، يفضل أن يتدرج في كنف الجد المفعم بالعدوانية والقسوة.. وكان يفاخر بهذا الجد.. كان يقول لنا في المدرسة وهو منتفخ الأوداج: جدي علم أبيَ أن يقتل كل أعدائه.. ويضيف: إنتظروا فقط حتى أصبح أنا رئيساً، سوف أكون أقسى من والدي، سوف تفكرون في هذا الكلام كثيراً، ساعتها سوف تتمنون عودة صدام حسين.

تتماوج المشاعر داخلي.. تضرب بعضها بعضاً.. لماذا قدر عليّ أن أعوم في بحرهم المتلاطم.. أقفز من جلستي قاصداً المرآة.. أحدق فيها.. أفتش عن ذلك الغائب.. عن لطيف يحيى.. لكن المرآة تأبى أن تمنحني غير صورته.. صورة عدى.. ماذا لو صدق ماحدث به ذلك الفتى المغرور.. ماذا لو فعلاً تربع على العرش الذي يشغله أبيه!!.. بالقطع ستكون نهايتي.. الناس في العراق يكرهونه كما لو كان طاعوناً.. كيف ستكون مشاعرهم عندما يأتيهم ليكون الطاغوت الأكبر.. والده أحكم قبضته على البلد.. وهو كذلك سيفعل.. بعد أن انفرد الأب بالسلطة عين ابن الخال والصديق عدنان خير الله وزيرا للدفاع.. وأصبح الخال طلفاح محافظاً

لبغداد.. وهكذا زرع في بقية المناصب الأهل والأتباع.. وكذلك سيفعل الفتى.. يعاودني الألم.. أستعين بكأس من الشراب.. أترك أوراقي جانباً.. أحتاج إلى مايصرف الأفكار عني .. ذهبت إلى الحمام لأغتسل قليلاً.. عدت للتذكر والكتابة.

«من أينَ يأتي هذا الجنون؟ لماذا عدي هكذا؟!»

سارت حياته على وتيرة واحدة.. شغله الشاغل النساء والسيارات، مرهق لنفسه وللآخرين.. القسوة التي تسللت من الجد إلى الأب أخذت بتلابيب الحفيد.. رأس المعاصي هو الجد خير الله.. مثله الأعلى الذي فاخر به وهو بعد صبي في سن الثالثة عشر، كان يحدثنا عن بطولاته المزعومة.. كيف كان يتعامل مع الإنجليز دون تفاهم.. كيف أنشأ في بغداد عصابة مافيا تكريت، يفاخر به وهو مجرد لص يفرض سيطرته على شوارع بغداد .. هذا اللص المثل الاعلى لصدام ولعدي.. علمهما قانون القتل.. وأجاد صدام التعلم حتى قبض على مقاليد السلطة.. وعدي تشرب الدرس.. بإرادته حيناً.. وبإرادة الأب الحديدية في غالب الوقت.. لايتهاون الأب حتى مع أخطاء الصبي الصغيرة، كان يوسعه بضربات متلاحقة بالعصا الحديدية، لو لمح في عينيه ذرة خوف أجبره على الجلوس مشدوداً أمام شاشة عرض أشرطة الفيديو ليشاهد أفلام القتل والتعذيب.. وكان الصبي كلما ضاق عليه الخناق سارع بالفرار إلى بيت الجد خير الله.. إنه يفهمني.. يستمع إليَّ .. يهتم بي .. ذلك ما كان يقوله عدي.

الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر.. ساعتان ويأتون لأذهب في صحبتهم إلى المكتب رقم سبعة.. أرتب أوراقي.. أراجع مادونته..آه لقد خانتني الذاكرة.. كيف نسيت الأم.. كان الفتى يتكلم دوماً عنها ويمدحها كما لو كانت تمثالاً من العاج.

أم عدي، ساجدة، لم تظهر برفقة صدام في العلن أبداً.. تمارس دورها محجوبة خلف الستار، الزوجة والأم.. ولم يكن الزوج وفياً كذلك.. كان كولده يعشق النساء لكن من وراء حُجب.. كامل حنا خادمه الوفي المعين ليتذوق الطعام أولا كان يأتي لسيده بالنساء سراً.. وتكتم سيد القصر وخادمه السر طويلاً.. إلا أن واحدة من النساء تدلّه في حبها رفعت الغطاء عن بئر الأسرار.. كان يعشق زوجة وزير الثقافة والإعلام حامد يوسف، لاعبة التنس.. كان عدي يشعر بالمرارة ويعلن كراهيته للخادم كامل حنا.. كان يقول متوجعاً: إنه يأتي بالنساء لوالدي .. ويدمر والدتي.. كان يصرخ بذلك وهو ممدد قرب المسبح في الثالثة صباحاً.. وكان يقول أيضاً أن جده لن يترك الخادم.. سوف يقتله.

أفكر طويلاً .. ترى من سيأتي ليشارك في الاحتفال.. الوالد والوالدة بالقطع لن يأتوا وأخوه أيضاً.. ظهور العائلة مجتمعة خارج القصر خطر.. المكتب رقم سبعة ليس كالقصر مهما بلغت درجة تأمينه وحمايته.. بالتأكيد أقاموا حفلهم الخاص.. هناك في القصر.. قبل أيام اجتمعت الأسرة واحتفلت بعدي لتعوض تخلفها عن الحفل الكبير.

سياسيون كثيرون لن يأتوا أيضاً.. سمعته السيئة وأفعاله المشينة جعلت أقطاب المجتمع الراقي في بغداد يحرصون على تجنب مجالسه .. مخافة أن يطولهم الرذاذ.

قلت لنفسي: لو كانت لائحة الضيوف حافلة لما دعاني أنا.. مثيله.. أو أنه واثق من نفسه لدرجة أنه لا يهتم أن يعرف الآخرون أن لديه بديلاً.

على كلٍ.. هكذا قلت لنفسي.. المسألة أصبحت معتادة.. لم تعد سراً، فكل أفراد عائلة الرئيس لهم بدائل.. والحفلات التي يقيمها أفراد العصابة يحضرها من يعرفون الأصلاء والبدائل ولا يحفلوا .. لا أحد يركز

على الأشخاص.. الحدث هو الأهم.. فضلاً عن ذلك .. كل أصدقاء عدى والمقربون منه تعرفوا على هناك.. في المكتب رقم سبعة .. ويعرفون اللعبة .. ويعرفون قانونها الذي ينتهي بموت من يسعى إلى كشف الغطاء.

جاؤوا في موعدهم.. في الثامنة تماماً.. صحبوني إلى الحفل.. المكان أعد بشكل رائع.. الورود النضرة موزعة في كل مكان.. إلى جانب الحوض نصبت منصة إلى جوارها أجهزة الصوت وكشافات.

.. صالة الاحتفال في الطابق الأول تضوي.. الخدم يتحركون بخفة، حللهم الناصعة البياض المحلاة بالأزرار الذهبية تضفي بهجة على المكان.. صافحني الفتى بطريقة خاطفة، قال كلمة واحدة وانصرف يتابع الضيوف.. قال: تسلى.. حدست أنه يريدني أن أكون محاذراً.. حرصت على الوقوف في ركن قصي، بعيداً عنه قدر المستطاع، وعلى أن أتجنب الحديث مع ضيوف الحفل.. وقفت كما قال أتسلى.. أتسلى بمراقبة من يفدون تباعاً:

ضافر عارف، مدير النادي الأولمبي.. الرجل يحب دائما التقرب إلى عدي.. وعدى يحاول الالتفاف على زوجته المنيفة حنان عبد اللطيف.. كان يأمر حراسه باصطحابها إلى مزرعته.. وكانت المرأة رغم نفورها من الفتى تذهب مرغمة.. تخاف انتقامه.. قصة إنتقامه من طالبة الفنون الجميلة نهلة ثابت كانت ماثلة في الأذهان.. حنان عبد اللطيف تحيي عدى بود ظاهر، وعدى لا يلتفت اليها، لا تبالي، تسير الى حيث يقف عادل العكلة.

ـ عادل العكلة، ذلك الصغير القامة، معوج الكتفين، واضح الضعف، لكنه نجم في العراق، المغني المفضل لدى عدى، له اسطوانات ويغني عبر التلفاز والراديو.. وموجود دائماً في حفلات عدى.. فرقته الموسيقية تعزف

خلف الستار.. يجلس الثلاثة، حنان وزوجها والمغني عادل العكلة حول طاولة واحدة.. يتحدثون بحديث ضاحك إلى حد الصخب..

- يدخل من الباب واحد من أصدقاء عدي، محمد البغدادي، قواد كبير تعرفه حانات بغداد، قدم أخته لعدي تعبيراً عن الود والصداقة.

- ودخل بصحبة البغدادي، دريد غناوي، تاجر السيارات الذي توفّر على تلبية خدمات زبونه الأول عدي.. كل سيارات عدي جاءت من صالة سيارات هذا التاجر؛ المزراتي، الفراري، البورش، الجاكوار، المرسيدس.. الى آخر القائمة من سيارات متعددة الماركات والأشكال.. يحفل بها كراجان يقعان قريباً من عمارة الحياة في ساحة القصر.. ذهبت إلى هناك خلال تمرينات إعدادي كبديل.. لم أصدق في البداية مارأيت:

حشد من عمال الصيانة على رأسهم ثامر التكريتي لاعمل لهم إلاّ الاهتمام بهذه السيارات المصفوفة داخل الكراج.. الصف الأول سيارات المرسيدس بألوانها المختلفة .. من آخر الموديلات.. مرسيدس 500 SEL لايقل ثمن الواحدة منها عن مائة ألف دولار. الصف الثاني للفراري: مجموعة منها من الـ Testa Rossa حمراء وموديل قديم، أربع قطع موديل 348 نظيفة ولامعة.. لا أثر لغبار سواء على السيارات أو على الأرض والحوائط.. في الخلف رصت سيارات اللامبورغيني التي تتعدى سرعتها الثلاثمائة كيلومتر في الساعة.. عدي كان ينهب بها شوارع بغداد بسرعة تزيد عن 240 كلم في الساعة.. إمتلك هذه السيارات المجنونة ولم يزل بعد طالب.. حبه للسيارات ورثه عن الأب صدام.. صدام أيضاً يملك مجموعة كبيرة من السيارات تشغل صفوفها المتتابعة عدة كراجات.. يعشق القيادة بنفسه ولايميل إلى استخدام سائق، وكذلك عدي.. قيادة السيارات شيء مقدس، ولها قيمة كبيرة، فكر بذلك دائماً..

هكذا كان يقول لي منعم حمد خلال التدريب.

سيارات أسبور تليها المازاراتي، وسيارات السباق الكلاسيك.. في قلب الكراج اصطفت مجموعة الفتى من سيارات الجاكوار والبورش.. كل موديلات البورش حرص عدى على اقتنائها.. كابريوليت، تارغس، توربو بورش.. وكذلك الجاكوار: أربع سيارات جاكوار A، سيارات كلاسيكية، اثنتان من موديل كابريو مقاعدهما من جلد الخنزير، لونها أحمر كلون النبيذ، ناعمة وملساء كفخذ امرأة.. حديد الإطارات مذهب.. يشابه صوتها عند بدء الإقلاع صوت صواريخ الإسكود.. ثم صف طويل من أنواع أخرى من ماركات الجاكوار الأخرى، يجب أن تكون السيارات نظيفة تماما.. عدى يدقق النظر إلى كل شيء، يثور لو ضبط آثار أصابع واحد من العمال تركت مطبوعة على جسم السيارة.. إذا تعطلت سيارة غير مسموح بإصلاحها.. يجري تكسيرها على الفور.. يختبر عدى السيارات الجديدة بنفسه.. يأمر حراسه بإغلاق مسافة طويلة من خط القادسية السريع الموصل مابين بغداد وحدود الكويت.. وينظم سباق يشارك فيه حراسه.. السيارة الجديدة التي ستخضع للاختبار.. يأمر بأن تجرد من المقاعد ولايبقى إلاّ مقعده، مقعد عدى.. يأخذ المتسابقون أماكنهم على الطريق المقفل.. كل سيارتان تقفان في تواز استعدادا لسماع الإشارة.. يجلس عدى في السيارة الجديدة وتحازيها سيارة أخرى يجلس إلى مقودها أحد الحراس.. يعد آمر السباق خمسة .. أربعة.. ثلاثة.. إثنان.. واحد، قبل أن يغلق فمه على الإد تكون السيارات قد انطلقت.. والنتيجة معروفة سلفاً.. عدى سيفوز في السباق.. غير مسموح لأحد أن يتجاوز ابن الرئيس .. بعد إنتهاء السباق تدور الأحاديث عن السيارات.. عن أنواع المحركات.. تفاصيل تقنية كثيرة يشارك عدى في الحديث عنها

رغم أن معلوماته في هذا المجال .. متواضعة.

خلف الكراج بنى عدي ورشة للدهان.. هوايته المفضلة هي أن يناسب لون السيارة لون الحلة ورباط العنق.. ربما لاتكون هناك سيارة جاهزة لونها مناسب، يأمر فوراً بطلاء السيارة باللون المطلوب.. ليست السيارات وحدها، أيضا طائراته المروحية الأربع تطلى دائما بألوان متغيرة حسب الحالة التي يبغيها الفتى.. دائما مايفضل اللون الابيض المشوب بالزرقة.. ودرة سياراته كانت تلك المرسيدس 500 المزودة بمحرك رولزرويس.. جاء مصمم سيارات إيطالي خصيصاً إلى بغداد ليصممها ويشرف على إنتاجها.. شهران حتى تم إعداد السيارة طبقا لرغبات عدي.. عشرات التجارب على السرعة أجريت على الـ LUXUS حتى نالت الرضى.

عدي يشتري سياراته من التجار الأوروبيين مباشرة.. دور دريد لايتعدى الإشراف على نقل السيارة، ورغم ذلك يستفيد مع كل شراء جديد.. المال عند عدي لا قيمة له.. لاأحد من زمرة عدي يتقاضى أجراً ثابتاً .. ولا حتى أنا.. مرة فاتحت منعم في الأمر فقال لي ناصحاً: عندما تحتاج مالاً تكلم مع عدي شخصياً، سوف يأمر المسؤول عن الخزانة ليعطيك المبلغ الذي تحتاج إليه.. لم ألجأ حتى الآن إلى اقتراح منعم.. لاحاجة بي إلى المال.. ماأرغبه يأتي دون أن أطلب.. الخدم يدبرون كل شيء، الملبس والطعام وشؤون المنزل.

عدي يستقبل دريد تاجر السيارات بحرارة، يعانقه ويقبله.. يبتسم دريد شاكراً.

يدخل من الباب علي أسود، ويعقبه زيد كمونة، خلفهما مؤيد العاني وعامر الأعظمي.. مجموعة من خلصاء عدي:

- علي أسود، يعمل في خدمة عدي، مهمته أن يأتي لسيده بالبنات البكر، طالبات المدارس والجامعات.. زوجه عدي واحدة ممن تعرضن للإغتصاب

منه.

- زيد كمونة، واحد من القوادين المعروفين في بغداد، له هيئة غريبة، يحكم قبضته على كثير من نوادي العهر والدعارة في بغداد، يتخفى خلف مكتب للاستيراد والتصدير.. الفتيات سلعته الوحيدة التي ينشط في جلبها من بلدان أسيا يوفر لحانات بغداد ومواخيرها حاجاتها منهن.. ويشاركه عدي في هذه التجارة الرابحة.. يقال أن زيداً يجني أرباحاً طائلة من هذه التجارة.

- مؤيد العاني أيضا يمارس التجارة في النساء.

امتلأت القاعة بالوافدات من النساء الشابات.. تبرز مفاتنهن تلك الفساتين الضيقة الشفافة والتنانير القصيرة بشكل لافت.. عدي لايحفل بالأخلاق كثيرا.. ولا علاقة له بالتدين.. يقول دائما بلا مبالاة: لماذا أبالي بالدين، هو لايجلب لي المال.. المرة الوحيدة التي رأيته فيها يصلي عندما زار التكية الصوفية.. زيارة رسمية تابعتها الكاميرات.. ولتكتب الصحف أن الأستاذ عدي صدام حسين، ابن الرئيس الكبير زار المنطقة المقدسة.

أخذ عادل العكلة مكانه على منصة الغناء.. افتتح الحفل بأغنية عدي المفضلة: صدام ياصدام، ياقوي ياكبير.. كلمات تمجيد فجة كانت تذاع في كل مناسبة.. يجبر الناس على ترديدها من باب الواجب .. حضور الحفل أيضاً رددوا خلف المغني الكلمات بحماسة ظاهرة.. عدي الجالس قرب المنصة محاط بنساء ثلاث.. يرفع كأسه ويغني في نشوة.. ينتهي اللحن الحماسي ويتبعه المغني بأغنية ماجنة.. يحتوي عدي بذراعيه واحدة من الفتيات.. تلك التي ترتدي الفستان الحريري الأزرق الشفاف.. الفتاة أطول قليلا من عدي .. حذائها بكعبه العالي يزيدها طولاً.. تلمع أضواء المنصة على شعرها الأصفر المتماوج.. وجهها مصبوغ بالماكياج بالطريقة

التي يفضلها عدي.. شفتاها مكتنزتان كحبتيْ فراولة تامتيْ النضج.. وجنتاها أيضا مشوبتان بالحمرة، صدرها الكبير يبرز من فتحة الفستان ويترجرج مع خطواتها الراقصة.. يضحك عدي في خلاعة.. يقول في صوت مرتفع وهو يضم الفتاة إلى صدره: الرقص مثل الجماع.. هاها.. تغمض الجميلة عينيها وتسلم نفسها للفتى.. يدوران معا على إيقاع اللّحن الصاخب.. تعبث أصابعه في مفاتنها وهي تتأوه في دلال ظاهر.. يتركها وسط الحلبة مبللة بعرقيهما المختلط ليأخذ الأخرى إلى صدره ويدور بها في رقص محموم، تدوس أقدامه المتعثرة أطراف الواقفين.. الفتى لايجيد الرقص، يدور كالثور متهدج الأنفاس.. يقبل مراقصته في قسوة.. تنغرس أسنانه العلوية في شفتها الغضة الطرية.. تتعالى الضحكات التي تتابع غزله الفج للفتاة: أحب شعرك، أنفك، أحبك.. أنا لم أر مثلك قبل الآن.

أُعلن عن الدعوة إلى الطعام.. خفت اللحن الصاخب وتوجه الضيوف جماعات إلى الطابق الأول.. مأدبة حاشدة طولها يزيد عن 20 متراً.. يتوسطها قالب زبدة كبير على هيئة نسر عراقي.. صفت حوله سلال الفاكهة؛ بطيخ، تفاح، برتقال، جريب فروت، أناناس.. وأنواع أخرى أعرف بعضها ولا أعرف البعض الآخر.. على يسار المائدة وقف الطباخون أمام طناجر الطعام الفضية.. طناجر تحوي أنواع متعددة من الطعام.. الأوروبي والعربي والصيني.. صدور بط مشوي مع الفلفل الأحمر، وأخرى بالصلصة.. كلاوي دجاج ورقاب أرانب مع صلصة حارة.. مقبلات متعددة.. طعام بارد متنوع: أسماك كافيار تشوبه الحمرة، فواكه بحرية مختلطة بقطع الثلج الذي يلمع على الأطباق الفضية.. كبدة أوز فرنسي، لحم خنزير إيطالي.. شرائح لحم بقر إيطالي وروستو زهري..

بط مع الكيوي والخوخ.. لحم بالصلصة والكافيار الروسي.. أفخر أنواع السلطات.. سلطات سمك وهليون وقريدس.. مكعبات خضر، جزر وفجل .. ومأكولات عربية.. يمر الضيوف بأطباقهم.. يختارون من الطناجر مايشتهون.

بقيت في المؤخرة كطلب عدي.. جلست في ركن قصي.. لا أحادث أحداً ولا يحادثني أحد.. أتناول كأسي من الساقي في هدوء.. أشرب وحيداً.. يعاود عادل العكلة غناءه الممل.. عدي أترع بالخمر، أخذ يتطوح وهو يسير بين جموع المحتفلين.. ينتقل من حضن فتاة إلى الأخرى.. يخطف من ضيوفه الفتيات وهو يقول في وقاحة هذه لي .. وهذه أيضاً.. كان نشواناً إلى درجة مثيرة للتقزز.

أخذت أتلهى بالنظر إلى الحضور.. أرقب حركاتهم وسكناتهم.. أتشاغل بهم عن وحدتي.

ـ هذا أحمد فاضل، ملازم أول من فريق عدي، رجل خطر، لايتردد في إطلاق مسدسه إذا جرى شيء على غير إرادته، لايرى النساء إلاّ مجرد عاهرات ويعاملهن مثل النفايات.

ـ وهذا غسان سبتي، واقف إلى جوار أحمد فاضل.. يتبادلان على ما يبدو حديثاً يبدو على درجة من الأهمية.. هكذا أفضت ملامحهما وإشاراتهما.. غسان سبتي صائغ حلي، عدي زبونه الأهم.. وقفت في محاذاة الرجل إمرأة طويلة ونحيلة، ترتدي «بلوزة» سهرة لونها زهري مرصعة باللؤلؤ.. وتنورة من حرير زهري.. المرأة واضحة الجمال.

عقارب الساعة المعلقة في صدر المكان تشير عقاربها إلى انتصاف الليل.. الحفل في قمته.. عدي جالس وسط حشد من الفتيات الجميلات.. وإلى جانبه عامر الأعظمي.. عامر مخنث له صدر امرأة.. ملابسه تشاكل

ملابس النساء.. يتلوى في ميوعة.. عدي يتلذذ من وجود ذلك المخنث إلى جواره.. سعى إلى إعفائه من الخدمة العسكرية.. يلامسه في فجور ودون خجل.. مخنث آخر مقرب من عدي .. عصام الملا.. إلى جانب علاقته الخاصة مع عدي يرتبط عصام بعلاقة شائنة مع رجل المخابرات سبعاوي.

يصرخ عدي فجأة آمراً: مزقوا ملابس العاهرات.

يتدافع أصدقاء عدي.. يركضون خلف النساء المخمورات.. تمتد الأصابع لتكشف الصدور الفائرة.. تتناثر قطع الملابس الداخلية في الأركان.. تعلو ضحكات الفاجرات مع ضغطات الأصابع على أعضائهن الجنسية.. تتقافزن إلى الحوض.. يسير عدي بصحبة اثنتين اختارهما للفراش.. يأخذهما إلى الغرفة التي كنت أعيش فيها.. الباب مفتوح على اتساعه.. يلاحق عدي الفتاتين، يسير الثلاثة عراة وسط النظرات الشبقة.. يلهبهما بكرباجه بعد مجامعة شائنة تصاحبها مشاهد الجنس التي تأتي متلاحقة على شاشة الفيديو.. صوت الشريط الذي يدور في الجهاز يغطي على تأوهات الفتيات وغنجهم.. يسيل الجنس على الشاشة.. مشاهد مخزية لحشد من النساء والرجال يمارسون الجنس في شبق وحشي.. يسري هذا الشبق ليعم صالة الاحتفال.. تعرى الضيوف جميعهم.. لم يبق إلا أنا والسقاة بكامل ملابسنا.. المرايا في الأركان احتشدت بالصدور والأفخاذ.. تشابكت على صفحاتها الصور الفاضحة.

●●●

9 بداية الجرائم

لمدة أيام بعد انتهاء الحفل لم أسمع أيّ شيء عن عدى .. لامهام ولا تمارين.. لاشيء غير انتظار ممل.. لا أعرف حتى أين هو.. في العراق أو خارجه.. يأتيني أحياناً عبر الهاتف صوت منعم.. يطلب مني تمضية بعض الوقت مع أعضاء جهاز الأمن الخاص في لعب البوكر.. لاأعرف لماذا يطلب هذا لكني أفعل.. أربح النقود على المائدة الخضراء .. وإلى جانب النقود تتكشف لي من خلال ثرثرات الطاولة أشياء جديدة عن نظام حماية صدام حسين؛ للنظام ثلاثة فرق، لكل منها واجباتها، الفرق الثلاث تراقب بعضها بعضاً .. الأولى للحماية وتتألف من ضباط يعرفهم صدام منذ سنوات.. أو ممن خضعوا للمراقبة الدقيقة من قبل أتباعه.. هؤلاء الضباط يرافقون صدام في كل مكان.. يتواجدون دائماً إلى جواره.. حتى بوابة المرحاض يحرسونها عند دخوله لقضاء الحاجة.. وغالباً هم من تكريت، أو من المناطق المحيطة بها.. وتتألف هذه الفرقة من قرابة مايزيد على الألف ضابط.. يتقنون جميعهم القتال الأعزل.. يتسلحون بشكل جيد.. منهم ضباط ذوو مراتب عليا تحلى خواصرهم بالمسدسات.. يغمرهم صدام بالامتيازات.. سيارة جديدة كل ستة أشهر.. أراض وبيوت.. مكافآت تقوم عليها إدارة كاملة خصصت لهذا الغرض .. وتوزع عليهم وعلى عوائلهم النعم لتلهج ألسنتهم بشكر النظام، وتتفانى للحفاظ على استمراره.. الضباط الأقل رتبة يحملون مسدسات كبيرة العيار، ورشاش مع مخزنين للطلقات.. ثلاث أو أربع قنابل يدوية مخبوءة في حزام

الوسط.. يرتدون تحت الحلة العسكرية سترة واقية من الرصاص صنعت من البورسلان الخفيف حتى لاتعوق حركتهم النشطة.. ويحملون دائماً جهاز لاسلكي يعمل على موجة خاصة.. يسمح لهم بدخول كل الأماكن وحتى مراكز المخابرات.

الذي يطمح ليكون واحداً من رجال هذه الفرقة يجب أن يكون قد أعد إعداداً جيداً بواسطة جهاز الأمن الخاص.. تخضع فرقة الحماية الأولى هذه للإشراف المباشر لصدام.

الفرقة الثانية للحماية تماثل الأولى تقريباً في هيكلها وإعدادها ويفضل أن يكون رجالها أيضاً من تكريت أو ضواحيها.. تسليحها كما الفرقة الأولى .. هي فرقة طوارئ .. إذا جرح أو قتل رجل من الأولى خلال مهمة ما يصعد بديله من الفرقة الثانية على الفور ليحل محله.. فرصة ينتظرها رجال الفرقة الثانية للصعود إلى الفرقة الأولى.. ينتظرون سنوحها كالصقور.. وأحياناً يسعون لتدبير تلك الفرصة.. يتصيدون أخطاء رفاقهم في الفرقة الأولى .. يتجسس الصديق على صديقه بغية أن يصعد ليحتل موقعه.. يراقبون سلوكهم اليومي.. يتتبعون ملذاتهم.. يسجلون كل ما بإمكانه أن يأتيهم بالفرصة المبتغاة.. هكذا أراد صدام.. خطط ليضمن أن رجاله جميعاً يراقبون بعضهم بعضاً، ليكون الجميع في النهاية تحت قبضته.. يقرب هذا ويبعد ذاك.. يمدح هذا في حضرة ذلك، ليس بقصد المدح وإنما لإيغار الصدر.. وهكذا.. يغتال رجاله في الظلام ويشيد بهم في العلن.. فعل ذلك مع الكثيرين.. العميد صلاح القاضي كان قد أمر رجاله في البصره عام 1982 بالتراجع ولم يرق هذا لصدام.. لذا أمر في اليوم التالي بقتل ذلك العميد خفية.. أعطاه بعدها لقب شهيد، وذهب بنفسه إلى عائلته يقدم لها العزاء، وقدم لها الحقوق التي تمنح

للشهداء، سيارة جديدة، قطعة أرض، وقرض بدون فائدة.

في واحدة من المرات.. أمر الرئيس بإعدام واحد وعشرين عضواً من أعضاء الحزب، وأكثر من مائة ضابط.. حكى لي محدثي أمر هذه المجزرة.. قال إن صدام شك أنهم يتآمرون ضده.. الحارس شاكر ياسين صور المجزرة على شرائط الفيديو.. أضيفت الشرائط لمكتبة التدريب النفسي لفرق الحماية.. أخذ يصف لي محدثي مشاهداً من تلك الشرائط.. قال إن مئات الأعضاء جلسوا في قاعة إدارة الحزب.. ودخل صدام القاعة متأنق كالعادة، يقبض بأصابع يمناه سيجاره الضخم، نادي سكرتير مجلس الرئاسة ليقف أمام الميكرفون.. وقف الرجل مشدوداً.. صرخ فيه صدام: تكلم.. إكشف الفضائح.. السكرتير ينطق بالأسماء متتابعة.. مع كل اسم ينطق به الرجل يأمر صدام حراسه بإخراج المتهم.. يجمع الحراس الرجال المتهمين ويسوقونهم إلى حديقة القصر الجمهوري.. تعصب أعينهم.. يأمرون بالوقوف أمام الحائط.. تستعد الكاميرات لتسجل لحظات السقوط الدامي.. ترتفع يد برزان التكريتي، لتنطلق الحمم، تحصد الرجال.. المتهمون يلبسون ملابس الرياضة الحمراء اللون.. ومن سيطلق الرصاص ليس الحراس وإنما رجال من العائلة – هكذا تقضي الطريقة العثمانية – وقف إلى جانب برزان التكريتي طفلان.. ابنه محمد، ثماني سنوات.. والآخر عدى، وكان في ذلك الوقت في سن الخامسة عشرة.. برزان يقول لولده: خذ المسدس واختار من يروق لك.. الولد يفعل ذلك.. غير واضح إن كان عدى قد فعل ذلك أيضاً أو تقاعس.. الجالسون إلى طاولة البوكر يروون لي كل ما صور على شريط الفيديو.. كأنهم أرادوا أن يبلغوني رسالة: «لا تستطيع المزاح مع العصابة.. إنهم قادرون على إنهائك على الفور».

الفرقة الثالثة من فرق الحماية، هي الحرس الجمهوري الخاص، جاؤوا بأفراده من مناطق تكريت، بغداد ونينوى.. يخضع اختيارهم لمشورة جهاز الأمن الخاص ومشورة رجال حزب البعث.. يختارونهم من عائلات معروفة بوفائها للنظام، ولم تُسجل على أفراد عائلاتهم أي مخالفة لقانون النظام.

يتألف الحرس الجمهوري الخاص من أكثر من عشرة كتائب.. تجيد جميعها استخدام مختلف أنواع الأسلحة.. إنه رأس حربة النظام.. ومهمة الحرس الجمهوري الخاص هي تأمين الأماكن التي يزورها صدام.. يتفقدها رجاله قبل الزيارة بأربع وعشرين ساعة.. وتعلن في الغالب ثلاثة أماكن مستهدفة بالزيارة.. تعلم بها في البداية إدارة الفرقة الأولى للحماية، والتي تعلنها بدورها لرئيس الحرس الجمهوري.. وتتجه فرق المراقبة على الفور إلى الأماكن المحددة.. مقاطع كاملة من المدينة التي حددت للفرق يتم إغلاقها ويجري تفتيشها.. يقف الحراس عند كل الزوايا.. في اللحظة الأخيرة يقرر صدام أي من الأهداف الثلاثة المعلنة يزور.. إذا كان الهدف قريباً من بغداد يسافر الرئيس بالسيارة، تتألف قافلته من أكثر من ثلاثين سيارة مرسيدس ليموزين، عشر سيارات سوداء متشابهة تماماً.. أيها يقودها الرئيس؟.. هذا مايقرره بنفسه في آخر لحظة.. وراء القافلة تسير بضعة سيارات إسعاف مجهزة بكل شيء.. وقادرة إلى حد إجراء العمليات الجراحية الفورية.. وإذا كانت الزيارة للجبهة يختار الرئيس طائرة مروحية أو بوينج.. وهذا أيضاً يجري عليه مايجري على السيارات.. ويخضع لقرار اللحظة الأخيرة.. كما يُخضع صدام طياري ورفاق رحلته لامتحانات ثقة.. يمارس معهم أنواع شتى من أصناف الخداع.. في مرة من المرات أمرهم جميعاً بالحضور إلى المطار

بلباسهم الشتوي.. إرتدوا جميعهم المعاطف وقبعات الفراء والأحذية المبطنة بالصوف.. وجاء وحده مرتدياً حلة صيفية.. سألوه في دهشة: لماذا؟!.. ألسنا ذاهبين إلى موسكو؟!.. أجاب مبتسماً: لا.. سوف نذهب الى الجنوب.

عند زيارته للجبهة يقوم الحرس الجمهوري الخاص بزيارة الموقع.. يأمر الضباط والجنود بإخلاء خزانات سلاحهم من الذخيرة.

الحرس الجمهوري الخاص مزود بكل أنواع الأسلحة التي تماثل ماتحوزه أقوى فرق الجيش العراقي.. ويتقاضى أفراده رواتب تفوق بخمسة أضعاف رواتب أقرانهم في الجيش.. كما يغمرهم النظام بالهدايا في المناسبات. ولهذا الحرس معسكرات خاصة.. أما الفرقتان الأولى والثانية فتعسكران في باحة القصر الجمهوري.. ولهما هناك صالات للتدريب، ونواد للرماية.. ومطاعم وغرف للراحة والترويح تضم صالات للبليارد وكرة الطاولة وسينمات وأماكن لعروض الفيديو.

لمّح رفاقي في لعب البوكر إلى أن بإمكاني أنا أيضاً أن أستمتع بما تضمه أماكن الترويح المنتشرة في باحة القصر.. شرط أن يعرف حراس عدى بالمكان الذي أتواجد فيه.. راقني ذلك - ربما يخفف هذا من شعوري بالوحدة، وربما أيضا تطرق مسامعي هناك قصص جديدة - وفي واحدة من المرات التي قصدت فيها واحد من تلك الأماكن عرفت أين ذهب عدى بعد حفل عيد ميلاده.. قال لي واحد من الحراس أنه سافر إلى جنيف ليزور عمه برزان التكريتي وأضاف الحارس أن عدى جاء وهو يحمل خبراً جديداً إلى بغداد؛ إستطاع برزان أن يصل إلى قرار بوقف لإطلاق النار مع إيران، جاهد في اتصالاته الدولية داخل المقر الأوربي للأمم المتحدة في جنيف ليصل إلى ذلك القرار في مرحلة حرجة.

على شاشة التلفاز نرى دائماً بعض لقطات من عمليات جيشنا العظيم على الجبهة.. نرى نجاحات زائفة تصور الأمر على غير حقيقته.. الناس جميعهم في العراق يعرفون أن نظام صدام رغم استخدامه لكل الوسائل لم ينجح في تحقيق ماخطط له.. استخدم كل أسلحة الردع التي يملكها، حتى الغاز السام المحرم دولياً.. إستطاعت قواتنا في بداية تلك الحرب التوغل لمسافات طويلة داخل الأرض الإيرانية.. لكنها سرعان ما تراجعت ولم تقدر على المحافظة على الأرض التي استولت عليها.. لكن جيشنا استطاع ببطولة فائقة وقف زحف الجنود الإيرانيين وآلياتهم إلى داخل حدود عراقنا.

ماذا يعني ذلك القرار؟.. أخذت أفكر، هل انتهت الحرب؟.. لا أعتقد.. توقف إطلاق النار.. لكن شبح الحرب لايزال يحوم في الأفق.

18 تموز 1988، استدعيت في وقت مبكر إلى المكتب رقم سبعة، لم يحدث أن استدعيت قبلاً في وقت مبكر هكذا.

على عجل أعددت نفسي، أخذتني السيارة إلى هناك.. كان في انتظاري عدى وبكر الناصري المسؤول عن البيت.. الكل مضطرب حتى عدى.. قال والبشر يعلو ملامحه: لقد ربحنا الحرب، لقد مضوا.. ماذا يعني عدى بذلك ـ سمعنا بعد ذلك تفاصيل ما تم التوصل إليه هناك في جنيف.. لقد وقع برزان باسم العراق على القرار رقم 598، قرار وقف إطلاق النار.. توقف قتال دام أنهك البلدين لسنوات طويلة، عدى يدير الكاسيت لتعلو الأغنية التي يشدو بها عادل العكلة، والتي يمجد فيها صدام القائد البطل.. البطل المنتصر.. يتقافز عدى.. يعانقنا ويقبلنا جميعاً.. الفرحة تعم الجميع، وتأكيدات عدى أن صدام جاء للعراق بالنصر المبين تنتقل عدواها إلى الحضور جميعهم.. الكل يصرخ فرحاً: العراق

سحق المتطرقين في طهران.. الرؤوس المنتشية تعامت في غمرة فرحتها عن حقيقة الموقف العسكري.. تناست أن الحرب انتهت بالتعادل.. قواتنا الآن تقف على نفس الأرض التي انطلقت منها في أيلول 1980، لقد أراد صدام عندما بدأ الحرب أن يسيطر على شط العرب ويبسط نفوذه على المنطقة.. رأى أن سقوط الشاه ووصول الخميني إلى سدة الحكم في طهران عام 1979 فرصته المواتية ليجعل من العراق قوة عظمى في منطقة الخليج يشار إليها بالبنان.

وكان عليّ أن أخافت من صوت أفكاري وأنا وسط هذا الحشد المتراقص فرحاً، أن أحاول أن أتجنب أية ملاحظة من شأنها أن تخدش اللوحة المصبوغة بألوان البهجة.. أمر عدي بإحضار الشمبانيا، ارتفعت الكؤوس تتعانق، نشرب جميعنا نخب الانتصار المزعوم.

يتوافد محتفلون جدد، أصدقاء كثر لعدي، وكان من هؤلاء الدكتور محمود سامرائي، المسؤول عن إعداد المقابلات، ومقالات عدي الصحفية، ويتابع اجتماعات عدي، دقائق وانصرف الإثنان، عدي ومحمود غادرا المكتب، ثم عادا معاً بعد ساعات ثلاث، ربما لفقا حواراً أو مقابلة حول انتصار النظام.

عمت الاحتفالات العاصمة بغداد.. الملايين ولأيام طوال خرجت تزحم الشوارع الواسعة والدروب الضيقة، خلت البيوت من ساكنيها.. كلهم خرجوا إلى الباحات والميادين.. يتعانقون.. ويرددون أهازيج النصر.

الساعة الآن عند منتصف الليل تماماً، الثامن من آب.. أعلن رسمياً عن وقف القتال.. ويعلن في الصباح عن وقف العمل بالشركات والمصالح - يوم عطلة رسمية - الناس في عطلة دون انتظار لقرار رسمي.. الكل يحتفل.

مئات الصور ينشط الرسامون في إبداعها عن القائد المنتصر، رجال الإعلام يتسابقون للإشادة بقائد المسيرة جالب النصر.. صخب الميكرفونات يغطي على الفضائح، ويستر إلى حين بعض سوءات النظام.

كان دائماً جهاز دعاية النظام نشطاً خلال سنوات الحرب.. اصطفت كتائبه لترسم صورة صدام القائد العسكري المغوار.. وظلّ هو على رأس كتائب الاعلام يمجد نفسه.. حرص دائماً على التزيي باللباس العسكري، وبالطبعِ جاراه في ذلك قيادات الحزب وكبار رجال الدولة.. على ناصية كل شارع وعند كل ميدان تطالعك صورته.. صورة صدام.. في أوضاع متعددة .. مرة كمقاتل في خندق.. وطيار في صورة أخرى.. لوحة في ميدان واسع تصوره في هيئة صلاح الدين.. إلحاح إعلامي فج لنفخ أوداج الرجل ونظامه.. ولما طال أمد الحرب وتحول الهجوم إلى دفاع.. كان لابد وأن تنزع في خجل وبليل صور صدام العسكرية لتحل مكانها صوراً عادية.. تصوره في أوضاع متعددة .. يمسح دموع الأطفال.. يصلي وعلامات التقوى بادية على محياه .. وفي صورة أراد أن يغازل بها الأكراد وقف وهو يرتدي زيهم الشعبي.

الآن عادت من جديد صور القائد باللباس العسكري تزحف على الميادين.. تصدرت صورة العبقري رأس صحف الصباح.. التلفاز لايخلو برنامج من برامجه من ذكر للقائد المقدام.. أصبح صدام حاضراً في كل وقت ويزحم كل الأماكن.. لاوقت أو مكان لغيره.

عدي أمرني أن أسافر إلى البصرة.. أن أزور هناك الوحدتين الثالثة والسابعة لأشارك الجنود فرحتهم بالنصر المزعوم.. عند الساعات الأولى من صباح يوم الثامن من آب صعدت والمرافقون إلى طائرة مروحية، أرتدي بدلة سوداء بخطوط مذهبة.. سبقنا الحراس إلى هناك قبل الزيارة

بأيام، اصطحبوا معهم عدة شاحنات تحمل الهدايا.. كان في استقبالنا قائد الوحدة والضباط.. حرس الشرف وقفوا في باحة المعسكر شاكي السلاح للترحيب.. صافحت مستقبلي وأبلغتهم تحيات أبي.. تحيات الرئيس القائد.. وبعدها ودعنا المعسكر.. قصدنا المدينة لنشارك شعبها الاحتفال، إصطف الآلاف على طول الطريق يهتفون بحماس: عاش صدام حسين.. عاش صدام حسين.. النساء تتغنى بالعبارات الحماسية.. تزحف الجماهير لتحيط موكبنا.. الكل يسعى لمصافحة ابن الرئيس القائد، محاط أنا بحراس من كل جانب.. نتجه إلى حيث اصطف الأطفال وهم يلوحون بالأعلام.. فض الحراس الهدايا المحزومة وناولوني إياها.. أوزعها على الأطفال.. أسألهم عن حالهم.. أخذ الجنود يجلبون المزيد من لفافات الهدايا ويقذفونها إلى الجموع المتزاحمة.. فجأة تدوي طلقة.. لا أحد يعرف من أين جاءت، ولا من أطلقها، ومن كان المستهدف بها.. في طرفة عين كنت مكوماً على الأرض، رمى الحراس أجسادهم عليّ، أحاطوني، صنعوا بأجسامهم درعاً يمنع عني الأذى، وحملوني على الفور إلى السيارة التي انطلقت في عجلة إلى الوحدة السابعة.. كانت الطائرة المروحية متأهبة لحظة وصولنا، طرنا مسرعين إلى بغداد.

والطائرة في السماء، عبر اللاسلكي تكشفت لنا خيوط الحكاية المروعة.. قالوا لنا إن محاولة اغتيال استهدفتني.. أتنفس بعمق.. العرق يبللني.. الخطر كان على مقربة من رأسي.. أغوص في مقعدي.. ظهري ألصقته بالمقعد.. أخذت أحدق في ظهر قائد الطيارة.. أتلهى بمتابعة صوت المروحة في دورانها الرتيب.. رسالة أخرى أتت عبر اللاسلكي.. مساعد الطيار يخبرني بمضمونها: لقد أصيب عبد الله الدليمي في صدره.. إصابته خطرة.. عبدالله واحد من حراسي.. عمره لم يتجاوز العشرين

بعد.. كان يقف بجانبي لحظة إنطلاق الرصاصة الغادرة.. الرصاصة التي كانت تقصدني.. هل سوف ينجو؟.. هز مساعد الطيار كتفيه.. قال إنه لايعرف.. أزيز اللاسلكي يأتينا بخبر جديد.. نجحوا في ضبط الفاعل.. شاب في الثالثة والعشرين .. هارب من الجندية.. إثنان من إخوته قتلا في الحرب.

عند الوصول قدمت تقريراً بالحادث لعدي.. أزاحه جانباً.. لا يبدو أنه مهتم.. قدمت التقرير لمنعم حمد.. عرفت لاحقاً أن المتهم سوف يُعدم على الفور وبدون محاكمة.. لا أحد سوف يستمع إلى دفاعه. سوف تنتهي المسألة في الغد.. منعم يرجوني ألا أتحدث عن الأمر.. عليَّ أن أنسى قصة الاغتيال.. عليَّ أن أستجيب لإرادتهم. وعدي هو الآخر.. تعامل مع الأمر وكأن شيئاً لم يحدث.. كل اهتمامه منصرف إلى احتفالات النصر.. يريد أن يكون على مقربة من مظاهرها الصاخبة في شوارع بغداد.. أسرته طقوس الاحتفال بنصر أبيه الزائف.

خرجنا في قافلة .. عبر موكبنا منطقة المنصور.. شارع فلسطين يغص بالمحتفلين.. عدي الجالس في المرسيدس المصفحة ينظر عبر السقف المتحرك إلى السماء.. يتابع أقواس النصر النارية التي تمرق إلى السماء.. لأول مرة لايسوق السيارة بنفسه.. جلس وفي يمناه كلاشنكوف وفي اليسرى المسدس.. فجأة يقف عدي.. يبرز نصفه الأعلى عبر السقف المتحرك.. يرفع الكلاشنكوف ويصوب طلقاته إلى السماء.. الحراس أيضاً يطلقون طلقات متتابعة عبر نوافذ السيارات.. أي جنون هذا!!.. فرصة مواتية لاصطياد عدي.. نصفه المكشوف عبر السقف هدف سهل.. لكن الفرحة الغامرة غطت على الحذر الواجب.. يلعبون بالنار ابتهاجاً.. وأنا أيضاً أشارك في مهرجان النار هذا.. أواصل الإطلاق وأبدل مخزن

الكلاشنكوف عدة مرات.. عرفت في وقت لاحق أن صدام ذاته خرج في غبشة المساء.. خرج في قافلة دارت في شوارع بغداد.. أخذ القائد يطلق النار كما فعلنا جميعا.. لأيام متوالية كنا نفعل ذلك.. قوافل تزحف وسط الجماهير.. تمرق رصاصاتها عبر النوافذ.. التلفاز يحذر الناس من الطلقات الخاطئة.. كثيرون أصابتهم طلقات انحرفت عن المسار.. سقط في موكب النصر قتلى وجرحى .. لا أحد يحفل.

قافلتنا عبرت الشارع الذي فيه بيتنا.. إنصرفت عن الجميع.. تابعت عبر زجاج السيارة المحكم الإغلاق مدخل بيتنا.. سيارة أبي الفولفو رابضة الى جواره، وكذلك سيارات إخوتي.. بضعة أمتار ليس إلاّ تفصلني عن الأحبة.. آه.. لم أرهم منذ أيلول.. أيلول العام الماضي.. تمنيت أن يكون أحدهم الآن قرب البوابة الواسعة.. شوقي إليهم يحرقني.. وقفت أمانيٌ عند حد التلويح لهم من بعيد.. لكن أمانيٌ ذهبت أدراج الرياح.. لم يستجب القدر لي فزادت النار داخلي اضطراماً.. عزمت على مفاتحة عدي.. عزمت أن أسأله إن كان بامكاني زيارة أهلي..

14 آب، قبل الظهر بقليل، تشجعت وفاتحته.. نظرت إلى وجهه أنتظر الجواب.. كانت ردة فعله على غير ماتوقعت.. قال لي بمودة زائدة: لطيف.. لقد أتممت بيننا أكثر من أحد عشر شهراً.. أديت واجباتك على أحسن وجه.. أنت رجل جيد، ثم أضاف: لقد كنت خلال هذه الفترة مراقباً، لم تأتِ بأي خطأ.. تابعت حديثه بانتباه.. قالها أخيراً: ولذلك يُسمح لك برؤية أهلك.. قلت على الفور: متى؟ قال: اليوم مساءً، إذا أحببت.. ولكن تحدث أولاً مع منعم حمد في الأمر.

جلست إلى منعم.. أحاطني بتوجيهاته حول الزيارة: لاكلام عن مهمتك، ولاحرف عن عدي، ولاحتى تلميحات.. لاشيء.. وأضاف في الختام: هل

هذا واضح، لطيف؟.. أهز رأسي علامة الموافقة.

أخيراً قرروا أن يسمحوا لي بالذهاب إلى أهلي.. عليَّ أن أذهب دون اتصال بمنزلنا.. رجال جهاز الأمن الخاص قالوا لي: أنت ذاهب على التو.. في البيت الآن ستجد إخوتك، جلالة، جوان، جوني، روبي وأميد.. لم أسأل كيف عرفوا.. لم يغب عني أن بيتنا مراقب أيضاً.

الحادية عشرة تماماً.. غبشة المساء تلف المكان.. نبضاتي تتسارع، أخطو نحو البوابة.. أضغط الجرس.. لحظات وأجدها واقفة أمامي.. أمي.. أحدق فيها.. أنتظر لتأخذني في حضنها الدافيء.. لم تتعرف عليّ في اللحظة الأولى.. ضوء الحارة الخافت، ولباسي الذي لم تعتده قبلاً.. أتيت للزيارة وأنا أرتدي جلباباً.. قلت لها: أمي أنا لطيف.. عانقتها في شوق عارم.. كانت ترتجف وهي تضمني إليها.. أخذت رأسي بين يديها.. بكت.. سالت دموعها لتختلط بدموعي التي انطلقت من محبسها.. صوت بكائها جاء بهم.. أبي وإخوتي .. تحلقوني.. أمطروني بالقبلات.. وسالت دموعهم جميعاً.. حتى أبي الشيخ الوقور.

جلسنا في الصالون صامتين.. نتحادث بالقبلات والدموع.. هاأنا أخيراً بين أهلي.. هدأت أنفاسنا المتهدجة.. قالت أمي معاتبة وهي تمسح دموعها أنهم حاولوا البحث عني في كل مكان.. ظنوا أني ربما أسرت أو استشهدت هناك على الجبهة.. عجزوا عن انتزاع أية معلومة.. قيل لهم فقط أني نقلت منذ سنة إلى موقع آخر.. أين هو؟ لا أحد دلهم، وقالت أنهم انصرفوا للدعاء من أجل ولدهم الغائب.. أصابهم اليأس، ظنوا أنهم فقدوا عزيزهم.. وعادت أمي إلى البكاء.. وإخوتي كذلك.

لاحظ أبي أسناني الجديدة.. قال متوجساً: ماذا فعلوا بك ياولدي؟ تذكرت التعليمات.. أوامر منعم.. حاذر لطيف.. لا تتفوه.. أجبت أبي

راجياً: لا تسألني، لا أستطيع أن أقول شيئاً، فقط أنا بخير، وأقوم بمهمة جيدة.

كلماتي الغامضة حيرتهم.

أي مهمة لطيف؟!.. يسألني الصغير روبي.. ويضيف في براءة: هل أنت جاسوس؟

أضحك، كلهم يضحكون أيضاً.. ويستجيبون لرجائي: لاأستطيع أن أقول، فلذلك لا تسألوني عن أيْ شيء.. وأيضاً لا تتحدثوا مع أصدقائي عن شيء، قولوا فقط أن صحتي جيدة.

يجب عليَّ الآن أن أذهب.. لم يكن مسموحاً لي بتجاوز وقت الزيارة المحدد بساعتين.. عند الواحدة تماماً.. الأسرة ترافقني إلى الباب.. يقفون هناك.. يرقبوني وأنا مصحوب إلى المرسيدس.. يتابعونها حتى تبتلعها حلكة آخر الليل.

أحس طعم الراحة والخدر يسريان في جسدي وأنا مستلقٍ على فراشي.. أستعيد اللحظات الحلوة التي قضيتها بين أهلي.. في أحضان أمي.. مساء جميل ذلك الذي أتاحوه لي.. وكنت على عهدي معهم.. أحكمت لجام نفسي.. لم أنطق بكلمة خطأ.. لم ألمح بما يفضح المخبوء.. ربما تكهن أبي بشيء عندما لاحظ فكي.. لكنه لم يذكر عدى.. هو أيضاً يعرف قوانين اللعبة.

عدت إلى الانخراط في عالمهم من جديد.. بعد أربعة أيام ذهبنا مع عدى إلى الحبانية، على بعد 75 كيلومتراً عن بغداد، منطقة سياحية يقصدها علية القوم، تحفل بالأوتيلات المقامة على ضفاف بحيراتها، مكان رائع لقضاء الأجازات، مطاعم فاخرة، نوادي لرياضات الماء.

عدي يعرف المنطقة جيداً.. والده صياد ماهر، صحبه مرات عديدة إلى المنطقة لصيد الغزلان، حدثني عدي عن واحدة من تلك الرحلات: علمني أبي كيف أقتنص الغزال، وكيف أشكه بالسكين.. أصبنا مرة أكثر من عشرين غزالاً.

أمضى عدى أياماً قبل السفر إلى الحبانية غارقاً في الشراب.. الشراب والنوم ولاشيء غيرهما.. يقوم من رقدته عند انتصاف النهار.. يأخذ في الثرثرة مع جاسم كالعادة.. ماذا عليه أن يرتدي اليوم وأي إكسسوارات سوف يختار.. أي ساعة سوف يزين بها معصمه.. واحدة من مجموعة الرولكس، برايت لنك، باتيك أو الكارتييه، أو أن اليوم هو يوم أثمن القطع التي يحوزها.. ساعة IWC غراند كومبليكايشن المصنوعة في شاف هاوسن السويسرية، ساعة من البلاتين مجموع أجزائها 159 قطعة و 9 عقارب.. يقدر الخبراء ثمن هذه الساعة الثمينة بما يفوق ثمن السيارة الفراري تستاروسا.. أحيانا يذهب عدى إلى النادي الأولمبي.. ليس لديه اجتماعات عمل هناك.. يذهب فقط للهو.. أصبح النادي المكتب والبار وساحة لقاءات العبث.. يأتي القوادون، أقام لهم غرف يديرون منها أعمالهم القذرة.. فتيات(ليل) أتوا بهن للقيام بأعمال السكرتارية.. ويبقى عدى هناك حتى الواحدة ثم يعود إلى البيت، يأتوه بالمشويات، يتخم معدته بالطعام.. وينصرف بعدها للخمر.. الكونياك والويسكي والبيرة.. تأتي صديقاته، يصحبهن إلى بيوته الأخرى.. فيلا الأحلام المجاورة للنادي الأولمبي، أو يسافر معهن إلى الحبانية.. وأحيانا لقصر من قصوره في المنصور أو الأعظمية، ومرات يصحبهن إلى المزرعة في الراشدية.

ويقضي سهراته مع أخر أطراف الليل في واحد من نوادي الفنادق أو باراتها.. إزداد التصاقه بعلب الليل بعد توقف الحرب.

أجنحة فاخرة أخليت في أوتيل الحبانية الرائع لنقيم فيها .. مسبح رائع وحدائق زاهية.. تعانقت في طرقاتها جماعات المحبين والأزواج الذين جاءوا لقضاء «شهر العسل».

حاجات عدي ووسائل لهوه سبقتنا محمولة على الشاحنات إلى المدينة.. هوندا سوداء موديل 750، BMW موديل الموتور رقم 1000، وسيارات أخرى متماثلة في القوة والأناقة.. عدي يعشق الصيد، لكن يفعل هذا بوحشية تعكس مايمور في داخله.. ينطلق بسيارته عبر الأحراش، يوقفها عندما يلوح شبح من بعيد .. يصوب مسدسه إلى السائر ويطلق الرصاص تجاهه ليستمتع بهرولة المرعوب.. لافرق عند عدي بين رجل أو غزال.. كلاهما مادة للمتعة.

رافقناه في رحلة صيد السمك.. أخذنا ندور بالزوارق في البحيرة.. توقفنا وفق رغبته في وسطها.. سكتت المحركات لتأمن الأسماك.. عدي الذي لايطيق الانتظار يصرخ في صفحة الماء، يخاطب أسماك القاع: سوف ألتقطكم يا وحوش.. ويطلق مسدسه المصوب تجاه السطح.. وكان عقابنا نتيجة إخفاقه في الصيد أن أمرنا أن نقفز جميعاً إلى الماء ونعود عائمين إلى الشاطىء بملابسنا.. لا أحد يجرؤ على الاعتراض.. وكأننا تحالفنا مع الأسماك ضده، توعدنا ونحن مستلقون على رمال الشاطىء.. قال: يجب أن أؤدبكم.

وهكذا.. كل يوم.. نذهب إلى البحيرة أو الأحراش.. أمتع الأوقات تلك التي كنا نخرج فيها لصيد البط البري.. قال لنا عدي أن والده يحب صيد البط، قال أنه صياد ماهر.. يتمرن في نادٍ خاص على الرماية .. تذكر أحد الحراس مارآه يوماً وهو بالقرب من صدام.. كان إلى جوار الرئيس مستشاره لصيد البط.. أعطى بندقيته لسكرتيره وأشار إلى شجرة.. وقال

له أمراً: هل ترى ذلك العصفور الواقف على الشجرة، صوب إليه واقتله.. تردد الرجل للحظة.. فاستشاط صدام غضباً.. صاح فيه: ماذا؟! مضى عليك يارجل عشرون عاماً تمتعت فيها بعضوية حزب البعث، ولا تقدر على القتل.

حصيلة البط الذي نصطاده تذهب جميعها لإطعام كلاب عدي المتوحشة.

مرة ونحن عائدون من رحلة لصيد البط لمح عدي زوجين شابين.. توقف إلى جوارهما.. أعجبته الفتاة.. قال لهما شيئاً لم أتبينه.. لكنهما تابعا السير، وكأنهما يتحديان ابن الرئيس.. أومأ إلى حراسه.. فهموا الإشارة.. سيدهم يريد المرأة.. إزدادت رغبته في اقتناصها.. أراد أن يكسر أنف فتاها.. يكره أن يعانده أحد.

الخوف أخذ طريقه إلى الزوجين فتسارعت خطواتهما.. لكن عدي تابعهما، والحراس أيضاً.. لحق بهما.. ألقى ذراعه الثقيلة على كتف الفتاة، قال لها: أنت تستحقين أكثر من هذا الرجل.. وقف زوجها ـ الذي يحمل على كتفي حلته العسكرية رتبة الرائد ـ مشدوهاً.. تدافعت الدماء في عروقه عندما واصل عدي مغازلة زوجته، قال بفجاجة ظاهرة: تعالي، اتركيه، أنا أليق بك.. تعالي إلى شقتي.. قحة بالغة دفعت بالرجل إلى الصراخ والثورة.. كاد أن يفتك بعدي.. أسرع الحراس فتكالبوا عليه.. ضربوه بوحشية.. ستة حراس أشداء.. ضاعت صرخاته وتبعثرت في الهواء .. حاول عبثا أن يفلت أو يولي الأدبار.. سحبوه وزوجته أيضاً إلى الصالة الواسعة في الفندق.. وعادوا إلى ضربه ضرباً مبرحاً.. لم يعبئوا برواد الفندق أو بنظرات الخدم.. وقفت أنظر إلى الرجل مشفقاً.. لكن لاحيلة لي في الأمر.. أمر عدي الحراس باصطحاب المرأة إلى جناحه.. ورافقناهما إلى هناك .. في الصالون الواسع جلس إلى جانب الزوجة

الشابة يحاول ملاطفتها.. أخرسها الخوف فلم تنطق.. يمد لها يده بكأس من الويسكي فتهز رأسها الصغير علامة الرفض.. يأتيها بشمبانيا فتأبى، تنخرط في البكاء وهي متهالكة على الأريكة.. نفذ صبره.. أخذ يصرخ في المسكينة.. أمرها أن تتعرى .. تستعطفه: كلا سيدي.. كلا.. لكنه يزداد هياجاً ، ينزع حزامه ويضربها على وجهها بقسوة.. يضربها ونحن واقفون لانملك لها شيئا.. تحاول الانفلات.. لكن إلى أين.. يلاحقها.. يلف الحزام حول رقبتها ويضيق الخناق عليها.. تتحشرج أنفاسها.. يتركها مكومة على الأرض.. تبكي في حرقة.. تتوسل إليه ألا يهتك عرضها.. يعود فيقبض شعرها بقسوة.. يسحبها إلى غرفته.. يقذف بها إلى فراشه.. يعود إلى ضربها بوحشية.. توجعها يثيره أكثر.. يلقي بجسده عليها.. يحاول أن يقبلها.. تقاومه في استبسال.. تجاهد لتتملص من قبضته.. تناضل لتحكم إغلاق فخذيها.. يلاحقها الثور الهائج.. حتى يتمكن منها.. تسيل أوساخه على فخذيها وعلى الفراش.. يهب واقفا بعد أن نالها.. يلطمها على خديها.. يسيل الدم من أنفها المحتقن.. يتركها وهي خائرة القوى.. غير قادرة حتى على البكاء.. يخرج مبتسماً.. يملأ لنفسه كأساً من الكونياك.. يتجرعه وهو يضحك.. ما أقبحه.. وكأن شيئا ما لم يحدث.. يأخذ في الثرثرة الفارغة.. خيم الصمت علينا فلم ننطق.. لم نكن قادرين علي مشاركته الثرثرة.. فجأة تأتينا من غرفة النوم صرخة ملتاعة.. هرولت إلى هناك.. لكن لاأحد .. باب البلكون مفتوحاً.. أسرعت إلى هناك .. لا أثر لها.. نظرت إلى أسفل.. كانت المسكينة مكومة هناك نصف عارية على الأسفلت أمام مدخل الفندق.. يأتي عدى الى البلكون.. أنظر إليه.. يتحاشاني.. لكنه يسأل: هل ماتت؟

سؤال بلا معنى .. لقد قفزت المسكينة من الطابق الرابع.. الموت ملاذها

الآمن بعد أن لطخها ذلك الوحش بالعار.. أسرعت ومعي بعض الحراس إلى الطابق الأرضي.. في صالة الإستعلامات وقف الرواد والخدم وكأن على رؤوسهم الطير.. لاحقتنا نظرات الكراهية.. هناك عند الاستعلامات وقف المسكين وحده.. يصرخ مهتاجاً.. مشعث الشعر.. وحلته العسكرية تكاد تخنقه.. مجرمون .. وحوش.. أخذ في ترديد جملته القصيرة وأنفاسه تتلاحق.. لقد انتزعوا منه زوجته ولم يمض على زواجه منها غير يوم واحد.. أي أقدار عابثة جاءت به إلى هنا.. ساقته إلى حيث مرغ شرفه في التراب.

واحد من الحراس حادث عدي عبر الهاتف بأمر الرجل.. فصول المأساة تتوالى .. أمر الفاجر بأنْ يؤخذ المسكين على الفور إلى بغداد.. أن يذهبوا به إلى حيث ينتظره المصير المحتوم.. أيام ثلاثة تركوه مكوماً في زنزانة ضيقة.. أمام المحكمة العسكرية وقف الرجل يسمع منطوق الحكم عليه، طبقا للمادة 225.. يعاقب الرائد سعد عبد الرزاق بالإعدام بعد أن اتهم بسب الرئيس.. أي عبث هذا!!.. ظل الرجل يخدم النظام بحماس.. عشر سنوات.. قضاها هناك على الجبهة.. حوّم الموت حول رأسه مرات.. الآن تأتيه الطلقة من الوطن.



10 صوت المتذوق

○ الألم يعتصرني.. ويجتاحني الخجل.. وقفت مشلولاً .. غير قادر على مساعدة المرأة.. شاركتهم بعجزي في قتلها.. خضت في لجة قذاراتهم.. أحاول أن أخرس صوت آلامي.. ماذا كان بوسعي.. حراسه بلا ضمائر أيضاً.. مجرمون مثل سيدهم.. وحوش ضارية.. كانوا سيفتكون بي لو تمردت على قانونهم.. لو أبديت ردة فعل غاضبة.. هناك في القصر لا أحد يهتم.. لقد ماتت الزوجة منتحرة.. وصرعت طلقات النظام الرجل.. الحراس اللاهون يثرثرون على حافة المسبح.. يتندرون على الضابط المقتول .. قالوا إنه أحمق .. لماذا ترك الأمر يصل إلى هذا الحد.. حد سب الرئيس.. المرأة لم تكن تستحق ذلك.

كلماتهم العابثة الماجنة تدمي قلبي.. عصابة بلا قيم.. لا معنى لشرف أو كرامة عندهم.. تأخذني الخواطر بعيداً.. ماذا لوكنت الآن في موضع ذلك الضابط.. لي زوجة وراقت لعدي.

لم يتغير الكثير في عالمهم الماجن.. فقط سيدهم عدي أصبح مقلاً في طلعاته العابثة.. لايزور حانات بغداد كثيراً.. مرة أو مرتين في الأسبوع وليس أكثر.. يحاول أن يتجنب الظهور لبعض الوقت.. الحادث شهده كثيرون.. أخبار من هذا النوع لا يمكن تكتمها.. تتناقلها الهمسات إلى البيوت.. النظام رغم كل جبروته غير قادر على إخراس همسات الناس.. أو ربما لايعبأ.. يتركهم ينفثون عن كربتهم بالتلهي بالهمس.. لا أعرف إن كان صدام قد أحيط علماً بالواقعة.. أم أن زبانية نظامه تكتموا الخبر..

ولم يرد ذكر للحادثة في الصحف.. فقط خبر صغير عن ضابط شاب جرى إعدامه بتهمة سب الرئيس.

إنصرف عدى في الأيام التالية إلى الاهتمام بالصحف التي عينوه رئيساً لها.. وإلى لقاءات مع رجال أعمال.. لقاءات عدة جمعت بينه وبين الحاج خالد الكبيسي.. تربط بينهما إلى جانب الصداقة معاملات تجارية.. يدير الحاج خالد مكتبا للاستيراد.. عدى لايفضل للقاءات العمل أن تتم في مكاتب شركائه.. يخاف أن تكون هناك كاميرات خفية أو أجهزة سرية للتسجيل.. يقول دائماً: لاتتعامل في أماكن اختارها شركاؤك.. لاتثق بأحد.. واسأل عن الكل.. حتى الأصدقاء يمكن أن يكونوا مخادعين ومبتزين.. يفضل أن تجرى معاملاته في أماكن يختارها هو.. النادي الاولمبي كان دائماً مكانه المفضل.. هناك كاميراته هو.. وأجهزة استماعه.. الشركاء هناك على أرضه ووفق شروطه.. عدى واسع الارتباطات.. له أسهم مملوكة في أغلب فنادق بغداد.. ويحكم سيطرته على معظم صفقات الاستيراد الخارجي.. خاصة في مجال المواد الغذائية.. يملك أفضل المزارع في أماكن متعددة من العراق.. مزارع آلية وفر لها أحدث أجهزة الميكنة.. وتعمل على النسق الأمريكي.. يدير مزارعه عفيف جودت ويعاونه جيش من المختصين الذين درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية.. تنتج مزارعه أجود أنواع القمح وبكميات وفيرة.. مزارعه لتسمين الماشية يديرها بشار العبد لله.. إلى جانب ذلك يفرض سطوته على الفلاحين العاديين .. يأخذ محصول مزارعهم بثمن بخس.. ويفرض عليهم أن يشتروا السماد والمعدات بسعر فاحش فلا يبقى من السعر الذي حدده لشراء ماينتجون إلاّ ما يسد رمقهم بالكاد.. حتى السوق الداخلية تخضع لسطوته.. المافيا التي تعاونه تغرق أسواق المدن العراقية بمنتجات

مزارعه.. يجبرون تجار الجملة والتجزئة على شراء نتاج مزارع ابن الرئيس.. آلة جهنمية لتكديس المال.. تدور لتسرق الفلاح والتاجر.. تدور في اتجاه واحد لتصب النقود في خزانة ابن الرئيس.. يقوم على هذه الماكينة شخصان عينهما عدى مستشارين ماليين في خدمته.. مدحت وصالح الشهبندر. تعليماته تقضي بتحويل الأرباح الصافية أولاً بأول إلى بنوك سويسرا.. إلى حساباته السرية هناك.. والتي لايعرفها إلاّ هو وعمه برزان التكريتي الذي يدير من جنيف أموال أبيه.

صالح الشهبندر مستشار عدى المالي كان متزوجاً من طبيبة عيون اسمها سميرة، إمرأة جميلة وناجحة، جمالها من النوع الذي يروق الرئيس.. جعلها الرجل موضع عنايته.. أغرقها بهداياه، جواهر، سيارات، أغلى الملابس وأثمن العطور من أجل عيون طبيبة العيون.. قالت الهمسات التي تدور في منتديات بغداد أن الرجل جُن بها.. صدام القوي الأنيق الجبار وقع في غرام المرأة.. نساء الطبقة العليا في بغداد الطامحات الى الوصول الى أقدامه سبقتهم المرأة بما لها من سحر.. إنصرف اليها دونهن.. إختارها ولم يتوقف عند مئات منهن كن يسارعن إليه ـ استجابة لأمره ـ عندما أشار أثناء الحرب مع إيران يطلب الذهب بدعوى مواجهة تكاليف الحرب.. التلفاز يبث كل يوم صور اللواتي أتين إلى القصر في أبهى حلة.. يقدمن الخواتم والجواهر والحلى.. استجبن جميعهن لنداء الرئيس.. خوفاً أو طمعاً.

سميرة وحدها.. لم تشارك في ذلك المهرجان الهزلي.. حتى عندما طمع فيها الرئيس تمنعت.. لم تتجاوب على التو.. فأخذ خادمه الأمين الذي يتذوق الطعام قبله يلاحقها.. يذهب إلى عيادتها كل يوم .. ظل كامل حنا يحمل إليها هدايا سيده مرات متلاحقة.. وقبلت المرأة بعد تمنع أن

تذهب للقاء الرئيس.. قبلت دعوته.. التقيا في واحد من قصوره.. وتوثقت العلاقة.. علاقة في الخفاء ظلت بعيدة عن العيون ستة أشهر.. ستة أشهر نجح خلالها كامل حنا في إحاطة الأمر بسرية كاملة.. لا يجب أن تعرف زوجة صدام.. كفى ما جرته العلاقة السابقة التي كانت بطلتها لاعبة التنس ماجدة من متاعب عائلية.. كادت تلك النزوة أن تدمر بيت صدام.. راودته الرغبة في ذلك الوقت أن يفصم عرى العلاقة الزوجية التي تربطه بابنة الخال.. الخال الذي كفله ورعاه.. لكنه ثاب إلى الرشد وأنهى العلاقة.

هذه المرة تصرف صدام بشكل مختلف.. تزوج سميرة في الخفاء.. لم يعرف بأمر زواجه غير كامل حنا.. والزوج السابق الذي أجبر على الانفصال عن سميرة من أجل الرئيس.

ترى هل ترضى سميرة أن تعيش في الظل طويلاً!! جميلة هى ومحبوبة.. وفوق ذلك أنجبت ولداً جديداً لصدام.. المرأة الذكية تبحث عن طاقة تتسلل منها إلى العلن.. تستعين بكيد النساء لتسرب الخبر إلى الزوجة الأولى.. ولايخيب كيدها.. تحمل الهمسات إلى ساجدة الخبر.

ساجدة امرأة هادئة.. لكن رغم هدوئها لديها ميل واضح إلى التباهي.. تعشق الاستحواذ على الأشياء الثمينة.. وكيف لا وقد استحوذت على أثمن رجل في العراق.. مثلها مثل أميلدا زوجة دكتاتور الفلبين السابق ماركوس.. تسافر مع مستشاريها في رحلات متعددة إلى أوروبا.. تعرفها هناك بيوت الأزياء الراقية.. هي عميل دائم عند ديور، إيف سان لوران وشانيل.. يأتيها المصممون إلى حيث يستقر بها المقام في جنيف.. يأتون ومعهم عارضات أزيائهم.. لا تذهب هى أبداً إليهم في صالاتهم.. إنها زوجة صدام.

جنون الرئيس وولده عدى بالتأنق متواضع إذا قيس بجنون الزوجة..

تبدل ملابسها كل ساعة.. تقتل مللها بالتزين بالمجوهرات والتسكع في طرقات القصر.. تقف طويلاً أمام مرايا الباروك الكبيرة لتتملى قوامها.. وتستعرض ثيابها الفاخرة.. عشقها للمجوهرات الثمينة لا يقف عند حد.. تثرثر أمام الأخريات بتباه: هذاالخاتم اشتريته من ... وهذا العقد من ...، هذا الحلق صنع لي خصيصاً... غاص الغواصون من أجلي ليأتوا بحبات اللؤلؤ التي تزينه.

المرأة رغم الهدوء الظاهر على محياها تسيىء دوماً معاملة حراسها والخدم.. تعاملهم معاملة الرقيق.. في مرة عن لها أن تتمثل بربات البيوت.. غرست في حديقة القصر حبة طماطم.. لكن الشمس المحرقة في ذلك الوقت أتلفت الحبة.. فاستشاطت المرأة غضباً.. أمرت بجلد ستة من الحراس بحجة إهمالهم العناية برى حبة الطماطم.. ألقت بهم في الزنازين وتركتهم هناك لعشرة أيام لاقوا فيها أصناف متباينة من ألوان العذاب.

لما علمت بأمر الزوجة الثانية هرولت إلى أبيها شاكية.. راح الأب يستجلي الخبر ولما تيقن من صدق الرواية واجه ابن أخته صدام.. إهتزت العلاقة بين الرئيس صدام والخال خير الله الطلفاح حاكم بغداد.. ونصح الأب ابنته بترك القصر فانتقلت ساجدة إلى ڤيلا لا تبعد عنه خطوات وتجاور الڤيلات الأخرى التي تقيم فيها بناتها رنا، رغد وحلا.

عرف عدي بأمر مغادرة الأم الحبيبة القصر.. ومافعله بها الرئيس.. استشاط غضبا.. إنها كل شيء لهذا الولد المدلل.. سوره العالي الذي يستظل به.

الولد يسعى للثأر لأمه.. لكن ليس من الأب الذي تزوج وإنما من ذلك الرجل الذي كان وراء الأمر.. توجهت نقمته إلى كامل حنا.. قال مستنكراً فعلة الرجل: إنه هو الذي يأتي بالنساء لأبي، تباً له.. لماذا أتى بهذه

العاهرة، ولماذا تركها تستولي على أبي، لماذا لم يقتلها كالأخريات؟!.

كان عدي يعرف أن لأبيه نزوات.. لكنه كان مطمئن البال أنها مجرد نزوات، ينهيها كامل حنا سريعاً.. تدهس سيارات رجاله المرأة التي ينتهي منها الرئيس. أو يجعلهم يغرقونها في نهر دجلة شرقي القصر.. شهدت مرة مصادفة واحدةً من تلك الجرائم.. كُنا مع عدي في قافلته في طريق العودة إلى المكتب رقم 7 .. كان على الطريق كامل حنا وعدد من رجاله يطاردون امرأتين بسياراتهم الليموزين السوداء.. ولم تتوقف المطاردة إلاّ والضحيتين صريعتين في وسط الطريق.. تناثرت أشلاءهما لتختلط بالأسفلت الأسود.. وقام المجرمون بعد أن أخمدوا أنفاس المرأتين بجمع الأشلاء للتخلص منها.. أمرنا عدي بالتوقف.. وقف يسأل كامل حنا: عاهرات أبي .. أليس كذلك؟.. وأومأ الرجل بالإيجاب.

بعد أن انتقلت الزوجة الأولى من القصر إثر افتضاح الأمر.. جاءت الزوجة الجديدة ومعها مولودها لتعيش في العلن.. جاءت إلى جناح جانبي من أجنحة القصر.. القصر الذي يسميه صدام المشروع 2000، والذي قام بتصميمه مهندس نمساوي، وتكلف بناؤه أكثر من خمسمائة مليون دولار، وأنجزت البناء شركات فرنسية.

انتقال المرأة..الزوجة الجديدة إلى القصر إهانة بالغة لحقت بالعائلة.. وأكثر الذين آلمتهم تلك الإهانة كان عدي، بان ذلك على محياه وانصرف إلى سلوكه.. الآن وبعد أن جمعتني به الشهور الطويلة أصبحت أعرفه أكثر.. أعرف مايؤلمه وما يأتي إليه بالفرح.. ألازمه أغلب اليوم.. أرتدي على شاكلته، أبدل ثيابي عندما يبدل ثيابه.. أقص شعري عندما يقص شعره.. أتحلى بالخواتم المماثلة لخواتمه.. ملازمتي له ولطقوسه.. جعلتني أتعرف أكثر على مشاعره.. فضلاً عن ذلك.. الفتى لم يعتد في الغالب كتم

مشاعره.. تباهيه بقصصه مع النساء.. عبثه في النوادي.. كل أسراره كانت كصفحات كتاب مفتوح.. لذا لم يكن قادراً على إخفاء بعض مايدور في اللقاءات العائلية التي بدأت تنتظم مؤخراً.. وكانت تعقد في السابق مرة كل أسبوع في العادة.. أما الآن فتعقد تقريباً كل يوم ويتم الاتفاق عليها عبر الهاتف.. وكان يعود في الغالب بعد كل اجتماع مفعم بالغضب.. تتناثر كلماته هنا وهناك، ويجري على لسانه نكر ذلك الذي يسميه بلاعق اللعاب «كامل حنا»، وكذلك فاروق أبو عمر، القواد الشخصي لصدام، الذي يساعد كامل في تدبير النساء للوالد.. عن الوالد لا يتكلم عدي.. يعبر عن ضيقه منه فقط عبر امتناعه عن التحلي بالساعة الذهبية التي تحمل صورة صدام.. حبه الزائد لوالده أعجزه عن أي فعل تجاهه.. حتى الغضب غير قادر هو عليه .. لا يحب والده فقط.. بل يعشقه.. يعشق فيه القوة والمنعة.. أنكر أنه يوم الاحتفال بيوم مولده.. والكل يتطوح بفعل الخمر.. أخذ عدي ورقة بفئة 25 ديناراً، أشعل طرفها وخاطب (العراة) السكارى من الرجال والنساء وهم ماضون في لهوهم أمام المسبح: افعلوا ما يحلو لكم.. لكن تذكروا شيئاً واحداً، دائماً وأبداً.. تذكروا على الدوام لو أن واحداً سولت له نفسه التطاول على أبي سوف أحرقه كما أحرق الآن هذه الورقة..

عدي الذي علمه والده منذ أن كان طفلاً الكراهية في مواجهة الأعداء، لاقدرة له على توجيه الكراهية نحو أبيه.. وغير قادر على إيذاء الزوجة الجديدة.. إذن فليكن ذلك القواد كامل حنا هدفاً لحنقه وغضبه المكتوم.

أسبوع كامل قضيته دون أن أتلقى مهام جديدة من عدي، أسبوع من الراحة.. لا ينقل إليّ حراسي الثلاثة إلاّ تعليماته حول ماذا عليّ أن ألبس غداً.. وماذا يرتدي الحراس أيضاً.. التعليمات حول مظهر فريق معاونيه

يصدرها عدي كل يوم .. الأمور تجري في مجراها المعتاد.. لا شيء سوى بعض استعدادات تجري في حديقة مجمع الوزراء، فقد تلقى كامل حنا أوامر من الرئيس بالإعداد لاحتفال يقام هناك.. وحدد للحفل بداية تشرين ثان 1988.

نشطت إدارة المراسم في توجيه الدعوات للوزراء ولقادة الحزب، وللصفوة في مجتمع بغداد.. كما وجهت دعوة للسيدة سوزان مبارك حرم محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية.. كامل حنا أرسل أيضا بطاقة دعوة لقصي الابن الأصغر لصدام.. لكنه لم يرسل بطاقة لعدي.. ولما علم هذا الأخير بذلك ثار ثورة عارمة واعتبر أن ذلك الخبيث المدعو كامل حنا قصد إهانته بتجاهل دعوته للحفل.. وأنه قصد أن يستفزه ويعبر عن عدم احترامه له.. وظل لعدة أيام يقلب الأمر مع نمير التكريتي مسؤول حفلاته للرد على كامل حنا.. وتفتق ذهنهما عن خطة صبيانية.. قررا أن يقيما حفلة مماثلة في مكان مجاور للحفلة التي يعدها كامل حنا.

نصب رجاله مكبرات الصوت ووجهوها إلى الجهة المقام بها الحفل الأول.. الطهاة يعدون طعاماً يجب أن يتفوق عدداً ونوعاً وشهية.. توجه الدعوات لكل أصدقاء عدي.. معارفه.. ويرغب أن تلبي نصف بغداد دعوته.. يقول عدي لعلي أسود: نحتاج إلى حضور أجمل نساء بغداد.. حتى أنا يدعوني عدي .. السقاة بملابسهم البيضاء يوزعون كؤوس الشمبانيا على الحضور.. الموسيقى الهادئة تعزفها فرقة عادل العكلة.. ولا نسمع صوت موسيقى الحفل الآخر رغم أن مايفصل بين مكان الحفلين ليس سوى سور من الأشجار القصيرة.. عدي يبحث عن سبب، أي سبب للاحتكاك بالحفل الآخر.. كلنا شعرنا بهذا.. لكنه لا يريد أن

يقوم بالخطوة الأولى.. الكل مشغول بالثرثرة وتذوق الطعام الشهي.. لا صخب من ذلك النوع الذي تشهده في العادة حفلات عدي.. هو وحده فقط الذي أخذ يعب من الخمر.. تناول عدة أقداح من الويسكي دون ماء أو ثلج قبل العشاء.. وكونياك أثناء العشاء .. أخذ يشرب متلذذاً.

أسمع مع سكنة الليل أصوات الطرف الآخر.. أميز ضحكات قصي العالية.. قصي الأخ الأصغر لعدي.. يصغره بعامين.. وهو على عكسه تماماً.. هادىء ورزين.. مثله مثل أخيه كان يذهب إلى المدرسة مصحوباً بالحراس.. وكانوا يجلسون في حجرة الدراسة في هدوء.. لكنه كان يكره عادات أخيه الأكبر.. الصياح والتباهي.. وكانت سيارته الرياضية التي يأتي بها الى المدرسة تنساب في هدوء ودون صخب.. أناقته هادئة، يفضل الحلل الإنجليزية الوقورة.. شعره مثل شعر بقية التلاميذ قصير ومرتب.. يرتدي دائماً السروال الغامق وقميصاً أبيضاً بنصف كم عندما يذهب للمدرسة.. تخرج عام 1988 من جامعة بغداد بعد أن درس القانون.. لم يكن مجتهداً في الدراسة، ولم يواظب كثيراً على حضور الدرس، لكنه كان عندما يرغب في الانصراف يفعل ذلك دون صخب.. كان يقف بهدوء ثم يذهب.. كان يحس أنه مميز، يتصرف برجولة، غير أنه لم يكن يرغب في التآلف مع الآخرين.. لايسعى إلى ذلك ولا يسمح لأحد بأن يفعل .. ينفر من الجلوس إلى جانب الطلاب الآخرين.. لا يحتمل رائحة عرقهم.. وكان يكثر من الجلوس في حجرة عميد الجامعة في ذلك الوقت الدكتور محمد الدوري، الدوري إنسان مرائي.. طموح، عندما كان يصادف قصي وهو في طريقه في الصباح كان ينحني في أدب، قصي يومىء له برأسه ويتابع سيره في خطوات مسرعة، يتبعه حراسه، أكثر من عشرين رجل، ويحاول الدوري أن يتبع قصي، أن يقاربه، وكان يفتح له

باب مكتبه ويدعوه إلى الدخول.. كان الطلاب يلاحظون المحاولات المتملقة للرجل.. ويتندرون عليه، مبالغاته كانت لافتة للنظر.. حتى الامتحانات كان يسمح الرجل لقصي أن يؤديها في مكتبه.

وكان لقصي رفقته الخاصة.. أبناء وزراء وأعضاء في الحزب.. كان من بين أصدقائه المقربين:

- باسم لطيف نصيف جاسم، ابن وزير الثقافة والإعلام.
- سائل سهيل، ابن قائد عسكري.
- مروان عدنان شريف، ابن وزير.
- إياد سعدون غيدان، ابن وزير.
- علي غائب، ابن ضابط حربي.

ولاأحد من أصدقاء قصي استطاع في سنوات الدراسة التي تسبق الجامعة تحصيل ما يؤهله لدخولها.. لكن قصي رتب لهم الأمر، وأنهى هو دراسته بتفوق، حصل في امتحانات الجامعة على أعلى نسب الدرجات 99.9٪، وأعلنت إدارة الجامعة أن قصي صدام حسين على رأس الخريجين لعام 1988.. الكل يعرف أن الولد كأخيه لم يكن يهتم بالدراسة.. وأن التمييز تصنعه الإدارة تملقاً للنظام.

صدام حسين اهتم دائماً بقصي أكثر من عدى.. كان يحوطه بالرعاية، ويحرص أن يجنبه طريق عدى، ولما شب عن الطوق زوجه ابنة الفريق الركن ماهر عبد الرشيد، الفريق الركن الذي يقدره صدام للبطولة والشجاعة التي صاحبته أثناء الحرب، خاض معارك كبيرة نال من ورائها ثقة صدام وتقديره، صدام يحتاج إلي الرجل، يقدر مهارته، وكالعادة يسعى صدام لربط رجاله به بوشائج عدة.. والمصاهرة واحدة من تلك

الوشائج.

تزوج قصي من ابنة الفريق الركن وأنجبا زينب، عين قصي بعد انتهاء دراسته رئيسا لنادي الفروسية العراقي، كما عينه والده نائبا لرئيس جهاز الأمن الخاص.. منذ أن أتيت إلى عالمهم لأعد كبديل لأخيه لم أر قصي إلاّ مرة واحدة.. هو الآخر له بديل، بديل من العائلة، ابن خال بعيد يشبهه إلى حد كبير.

بعد منتصف الليل بقليل غادر قصي حفلة كامل حنا وبرفقته زوجته، لاحظهما الحراس، عدي الغارق في سكره أمر عادل العكلة بتغيير النغم الهادئ، أراد أن تعزف الموسيقى الصاخبة.. كان التوتر يطبع ملامحه، أخذ يتقافز بين الموائد، لا يتحدث مع أحد، يمناه تقبض على عصاه السحرية، عصا صممت له خصيصاً.. في طرفها سكين تعمل بالبطارية، شفره حادة كمبضع الجراح، كان عدي يقطع بها الزهور. يمزق البسط المفروشة على المناضد، حتى سيجاره أخذ يتلهى بقصه بشفرة العصا.

الجميع في حفل عدي فعلت الخمر برؤوسهم فعلها.. أخذوا يتطوحون في الخلاء البارد.. وسمعنا طلقات متتابعة انطلقت من الجانب الآخر.. طلقات كلاشينكوف وتبعتها ضحكات صاخبة.. أرسل عدي حراسه إلى هناك على الفور لاستجلاء الخبر.. عادوا وعلى رأسهم عزام التكريتي.. عاد ضاحكاً.. تساءل عدي: ماذا يحدث هناك؟! صرخ في الواقف قبالته ليعرف خبز الطلقات.. أجاب التكريتي في بطء: لا شيء.. كامل حنا يعرب عن ابتهاجه.. وقف على منصة الحفل وأخذ يطلق العيارات تعبيراً عن هذا الابتهاج.. كان التكريتي يحدث بالخبر ولازالت الطلقات تتلاحق من الجانب الآخر.. عدي أيضاً كان يفعل ذلك في حفلاته.. إعتاد إطلاق النار تعبيراً عن فرحته.

هذه المرة اختلف الأمر.. كامل حنا يفعل ذلك وليس عدي.

عدي يصرخ في وجه عزام التكريتي: عد وأجبر ابن القحبة على التوقف.. قل له إن ابن الرئيس لا يرضيه ذلك.

ويذهب الرسول.. وبعد أقل من دقيقتين يعود والجواب يتلكأ على شفتيه.. يستحثه عدي بالصرخات لينطق: ماذا قال لك؟.. ويأتيه الجواب من هناك.. الطلقات لازالت تتواصل.. تغطي على الجواب الخافت الذي ينطق به رسول عدي: السيد كامل حنا يقول إنه لا يخضع إلاّ لأوامر السيد الرئيس.. جُنّ عدي.. إندفع عبر الأشجار إلى هناك.. جرى والدم يصعد إلى رأسه.. كامل حنا واقف على المنصة، يقبض بيمناه على الكلاشينكوف وفي اليسرى مخزناً إضافياً للطلقات.. أخذ يطلق دفعاً متلاحقة عندما لحظ عدي يتجه إليه.. صرخ عدي: آمرك بالتوقف.

خرست أصوات الموسيقى، والحضور أيضاً.. تلاحق النظرات الخصمين المتواجهين.. عدي يأمر كامل أن يهبط من على المنصة.. ينزل كامل في خطوات هادئة .. يتجه إلى عدي .. يقول وهو يتطوح بفعل الخمر: إني أطيع فقط أوامر الرئيس.. معارضة علنية أمام شهود يراقبون ما يحدث.. ازداد بفعلها غضب عدي وأخذ يرجف بشدة .. لأول مرة يُعارض هكذا وأمام شهود.. وأي شهود.. صفوة مجتمع بغداد.. وضيوف على رأسهم سيدة مصر الأولى زوجة مبارك.. متذوق الطعام، كلب أبيه يعارضه، يتجرأ على عدي، ابن صدام الأكبر.. الدماء تغلي في عروقه.. يرفع عصاه الإلكترونية ويضرب بها رأس كامل حنا، ضربات متلاحقة.. يتراجع الرجل أمام الضربات القاسية إلى الوراء، وعدي يتابع الهجوم الوحشي، يدفع بالشفرة الحادة إلى رقبة الرجل، يجز الحنجرة لتتدافع منها الدماء، ويتهالك الرجل على الأرض إلى جوار منضدة سوزان

مبارك.. تتناثر الأطباق وأدوات الطعام تغطي جسده المكوم.. صرخات النساء تتعالى، الضيفة يسحبها الحراس بعيداً، يتدحرج كامل حنا إلى الأرض، ويلاحقه عدى من جديد، يضربه ضربات مجنونة.. ويحاول كامل أن يدفع عن نفسه ضربات عدى.. يجاهد في وهن ليرفع كلاشنكوفه، لكن عدى يزيح السلاح جانباً وتتواصل لكماته للرجل، يندفع أخو كامل - وهو ضابط كبير في جهاز الأمن الخاص - نحو عدى وهو يصرخ: سوف أقتلك.. سوف أقتلك، لكن حراس عدى كانوا أسرع منه، أمسكوا به وألقوه أرضاً إلى جوار كامل.. عدى وصلت ثورته إلى القمة، وقف وهو يتنفس بجهد كثور هائج.. صوب مسدسه إلى كامل حنا المكوم على الأرض.. وأخذت طلقاته تتلاحق.. أصابت الأولى معدة الرجل واستقرت الثانية في الصدر.. خيم السكون.. لا أحد قادر على الحركة.. أو النطق.. لم يتحرك غير حراس عدى.. ركضوا إلى الهاتف ليعلموا صدام بالأمر.

وقف عدى على رأس الجثة يحدق في الميت.. يحدق في الرجل الساكن.. وفي الفراغ.. أخذ يدير نظراته في الأشباح الواقفة تحدق هي الأخرى في الفراغ وفي الجثة وفي عدى.. عدى الذي انتصب كواحد من أبطال الملاحم الاغريقية يهذي بكلمات مختلطة وهو واقف على رأس ضحيته.. يبكي ويضحك، يصرخ ويتمتم.. وقفة لم تطل .. قطعها البطل المأساوي قافزاً إلى الدغل.. ركض متوجهاً إلى بناية الوزراء وحراسه يتبعونه.. صعد إلى الطبقات العليا.. دلف إلى مكتب من مكاتب البناية وأحكم إغلاقه عليه.

بعد دقائق وصل الرئيس .. لم يكن يرتدي غير سروال، وقميص مفتوح، .. لقد أتى على عجل.. هرول إلى حيث تكومت جثة كامل حنا.. إنحنى وهو يصرخ فيمن حوله: الطبيب، أين هو الطبيب؟! وجاءت على

الفور سيارة الإسعاف لتنقل الجثة.. صدام لا يصدق أن حارسه.. خادمه الأمين جثة هامدة.. غادرتها الروح.. يصرخ في الأطباء، صعد إلى سيارة الإسعاف مع الصديق الساكن.. أسرعت السيارة إلى مستشفى ابن سينا.

ماحدث بعد ذلك.. عرفته في صباح اليوم التالي من عزام الحارس الأول لعدي.. لقد حاول الفتى الانتحار.. أمر حراسه بإحضار الأقراص المنومة.. دفع إلى جوفه محتويات علبة كاملة.. وقع مغشياً عليه.. وأسرع الحراس بنقله هو أيضاً إلى مستشفى ابن سينا.. في الطريق قال بصوت واهن للحراس: لا تقولوا لوالدي.. أريد أن أموت.. لكن الأطباء أبلغوا صدام أن ابنه جيء به أيضاً.. أسرع الرجل إلى ولده غاضباً.. أزاح جانباً الأطباء المنهمكين في إفراغ مافي جوف الفتى.. شد في قسوة الأنبوب البلاستيكي الذاهب إلى حلق عدى .. أخذ يصفع الراقد في وهن صفعات متلاحقة وهو يصرخ فيه: دمك سوف يسيل كدم كامل الذي أوديت به.

فعلة عدى آلمت صدام كثيراً.. كامل حنا كان يعني له الكثير.. وغادر عدى المستشفى بعد أيام، القصر الجمهوري أصابه الخرس، والصحف أيضاً، في القصر كان تقديرهم أن الحادث عمل وحشي.. كان نتاج ردة فعل عادية من رجل غاضب وغير قادر على امتلاك زمام نفسه.. كانوا يعرفون أن عدى يترك نفسه دائماً لأحاسيسه المتوحشة تسيره.. لديه ميل دائم للعنف .. تربى في أحضان تعشق القسوة وإهدار الحياة.. فوق ذلك كانت تسيره رغبة دفينة لتحقيق ماتوده الأم وتتمناه.. لقد أبدت مراراً - على مسمع منه - رغبتها في القضاء على تاجر النساء كامل حنا.. لم تأمره مباشرة بذلك، لكنها بإفصاحها عن هذه الرغبة زادته حنقاً على

الرجل الذي تسبب في إيلامها.. تسبب في تكدير صفو من يحبها حباً جماً.

وكان على عدى أن يغادر بغداد حتى تهدأ العاصفة.. صحبه جاسم إلى جنيف، أمر صدام أن يذهب إلى جوار عمه برزان التكريتي .. وأعلن صدام أن عدى يجب أن يدفع ثمن جريمته.. يجب أن يقدم الى المحاكمة، وفي ذات الوقت بدأ صدام بالضغط على عائلة كامل حنا.. ضغوطه في هذا الاتجاه أثمرت، جعلت الضابط الكبير أخو كامل الذي هدد وتوعد عدى يسارع بطلب العفو عن المتهم، طلب العفو عن قاتل أخيه وتنازل عن حق الأسرة في طلب المحاكمة.

ورغم سقوط الدعوى.. ورحيل عدى بعيداً.. لم تهدأ العاصفة التي هبت في أجواء العصابة.. أصاب الحادث جدارهم الصلد بشقوق غائرة.. الأسرة التي كانت متماسكة دائماً، وقادرة بهذا التماسك على المحافظة على سلطتها وجبروتها أصبحت بعد الحادث معرضة للخطر.. مجد صدام الذي بناه على أرض الوشائج العائلية يكاد أن يميل ويتداعى.. أقدام سميرة عندما خطت الى داخل القصر أتت معها بالمتاعب لصدام.

ساجدة ووالدها خير الله طلفاح وأخوها عدنان خير الله ثاروا في وجه صدام.. أكثرهم حنقاً وضيقاً كان عدنان خير الله.. عدنان الصديق الحميم وابن الخال وأخو الزوجة الأولى.. ذراعه الذي يركن إلى عونه وقت الحاجة.. عينه عندما قبض على مقاليد السلطة وزيراً للدفاع.. الرجل محبوب في العراق.. يعتبره الناس بطل الحرب... قائدها الحقيقي.. ويقدرون له لفتاته الإنسانية تجاه جنوده.. مشروعه لإعادة تأهيل معوقي الحرب لاقى استحسان أهل العراق .. العطايا والمنح التي أغدقها على الذين تضرروا من القتال جعلته محبوب الشعب، أصبح نجماً يحتفى به،

رفعه تقديرهم ليكون في موضع الرجل الثاني بعد صدام.. مستشارو صدام سجلوا في دفاترهم مايموج به الشارع من حب للرجل.. رفعوا تقاريرهم إلى القائد الذي يعرفون أنه لايرتاح إلى المزاحمة.. كانوا على ثقة من أن صدام لن يحتمل الرجل كعادته.. لكن صدام لم يتجاوب مع مخاوفهم حتى جاء حادث مقتل كامل حنا.. جرأة عدنان وثورته لماحدث جعلت الرجل يعيد التفكير في المسألة.. لم يتوقف عدنان عن المجاهرة بآرائه فيمايحدث للأسرة.. كان يصرح أنه يشعر بالعار من الطريقة التي يعامل بها صدام أخته ساجدة، يعلن عدم الارتياح لمغادرتها القصر وحلول منافستها فيه، ويتمادى في ثورته متهماً الرئيس بتدمير السلام العائلي.. المشاحنات العائلية زادت حدتها وأصبحت ملحوظة من حراس القصر وخدامه.. ساجدة ووالدها خير الله إمتنعا عن حضور اللقاءات الأسبوعية.. ساجدة أمرت حراسها أن يحولوا دون اقتراب سميرة من فيلتها في ساحة القصر.. عدنان يذهب كل يوم علانية الى أخته ليلقاها في مسكنها.

صدام يرد على ماتمور به جنبات القصر بطريقته الخاصة.. يرسل أولا سميرة وولدها في رحلة إلى أوروبا.. ويبدأ في مضايقة الأسرة.. المخابرات السرية تدهم محال الخال خير الله الطلفاح.. ألقى القبض على سبعة عشر مسؤولاً في شركة الرجل، وشنقوا بتهمة الاحتيال وخداع الشعب، جرت وقائع شنقهم في الوقت الذي كان يبث التلفاز حديثاً أجراه مع صدام، ويمدح صدام في الحديث المذاع الخال الذي رباه وأسهم في بناء العراق بقدرته السياسية.

ويصل تدبير صدام حده الأقصى.. بعد الحادث بأشهر يدعو صدام العائلة جميعها إلى رحلة إلى شمال العراق.. الزوجة ساجدة، قصي، بناته

الثلاث رغد، حلا، ورنا، وأيضا عدي الذي كان قد عاد من جنيف.. ويدعو إلى الرحلة أزواج بناته وزوجة قصي.. وعدنان خير الله.. ومن المقرر أن يسافر الجميع على متن طائرات مروحية.

صدام يستقل مروحية.. وتستقل الأخرى ساجدة وبناتها.. وعدي وقصي كل يأخذ مروحيته الخاصة.. وكذلك عدنان خيرالله.. المروحيات تقلع جميعها.. تتابعها كاميرات التلفاز.. ويصلون إلى هناك .. إلى المكان الذي دعاهم إليه صدام.. بعد أربع وعشرين ساعة يعلن التلفاز الخبر الحزين.. يقول المذيع بنبرات تتقطر حزناً إن وزير الدفاع عدنان خير الله أضطر لأسباب طارئة إلى العودة إلى بغداد، لكن عاصفة رملية هبت وطائرته تحلق في الجو فأدت إلى سقوطها.. ولقي هو وحراسه مصرعهم.

وعادت الأسرة جميعها لوداع جثمان البطل الذي سقط شهيد الواجب.. تساقطت دموعهم وهم يودعونه إلى مثواه الأخير.. تابعت الكاميرات دموع صدام المنهمرة.. تصنُّع الرجل الحزن.. كان يبكي الصديق والأخ والبطل.. يبكيه بحرقة.. رغم أن الكل يعرف أنها دموع تماسيح.. وأن العاصفة لم تكن سوى المشجب .. الستار الذي أخفى وراءه فعلته الآثمة.. الأسرة وشعب العراق موقنون أن الرجل قتل وأن صدام هو القاتل.

تنتهي مراسم الدفن.. وتبدأ المواجهة.. يصرخ خير الله الطلفاح في وجه صدام: أنت دمرت ابنتي، وأمرت بقتل ابني.. ولذلك أقسم أني سوف أنتقم منك.. ويعلن الرجل بعد أيام ماتمور به جوانحه.. يعلن حقيقة الحادث لمجتمع بغداد وينفي الرواية الرسمية.. دلل على الجرم بوقائع قال أنه يملك الدليل عليها:

- في الوقت الذي طار فيه عدنان عائداً الى بغداد لم تشهد سماء

العراق كلها أي عواصف رملية.

- لا سبب هناك لما قيل إن أمراً هاماً وعاجلا استدعى عودة عدنان الى بغداد.

- ويؤكد خير الله أن مروحية ابنه حوت أربع عبوات متفجرة في مكان خفي.. زرعها جاسوس يدعى كريم بأمر مباشر من حسين كامل زوج رغد الابنة الكبرى لصدام، وقال أيضاً إن علي حسن المجيد مسؤول عن تنفيذ العملية التي أمر بها صدام.. كريم المتهم من قبل والد عدنان سافر يوم الحادث على متن طائرة الخطوط الجوية العراقية إلى باريس .. وهو الآن لاجىء سياسي هناك.

صدام لم يكلف نفسه عناء الرد على اتهامات الخال.. إصطحب حراسه وذهب في رحلة لصيد الطيور البرية.



11
البنت الخرساء

◙ آب 1989، علامات الانزعاج أخذت طريقها إلى ملامح عدي، نقل إليه عزام أنباء عن اشتباكات جرت في محطة الباص وسط بغداد، كوكبة من جنود الجبهة العائدين اشتبكوا مع المدنيين.. خمسون مسلحاً جاؤوا من هناك يحملون على ظهورهم عناء سنوات القتال.. سنوات طبعتهم بالخشونة والتبرم.. ثاروا وربما لأسباب تافهة.. عشرات القتلى تناثرت جثثهم على الطوار.. هرولت حافلات الحرس الجمهوري ورجال جهاز الأمن الخاص للسيطرة على الوضع الذي تفجر.. دامت الاشتباكات طوال الليل.

عدي أرسلني صباح اليوم التالي وبرفقتي حراسي إلى محطة الباص لاستطلاع الأمر.. مهمة سهلة لكنها خطرة.. التعليمات تقضي أن نتوقف هناك.. نهبط من سياراتنا للمعاينة ثم نعود مسرعين إلى المكتب رقم سبعة.. أحضر لي جاسم حلة سوداء لأرتديها.. إنطلقت قافلتنا إلى وجهتها.. عشر سيارات مرسيدس ليموزين متشابهة.. عندما وصلنا إلى هناك لم نجد آثاراً لاشتباكات الأمس .. الوضع هادىء.. إلا أن الساحة تغص بالمظاهر العسكرية.. مدرعات جنود تزحم المكان.. عندما هبطنا ابتعد الناس الواقفون ينتظرون الباصات.. إتجهت إليهم.. كانوا متسربلين بصمت مخيف.. يحدقون في خوف.. ملامحهم تعكس ماتجيش به دواخلهم من ضيق وكراهية للنظام.. منذ عام مضى كنت هنا أشاركهم

أفراح النصر.. وجوههم التي كانت تطفح بالبشر والابتهاج أصبحت الآن شاحبة.. اليأس والإحباط يطبعان ملامح الجميع.. ثمانية أعوام من المواجهة أكلت الأخضر واليابس.. حرب ضروس جعلت عراقنا الموفور العافية يقف على حافة الإفلاس والضائقة.. جيش المليون جندي تدنت معنويات رجاله بعد أن توقفت طبول الحرب.. أخذوا يعيثون في الأرض فساداً.. تحول بعضهم إلى لصوص وقطاع طرق.. كانت تأتينا أخبار جرائمهم ونحن في القصر ولم نكن نصدق ذلك.. لكن هاأنا أشهد بعض مايجري.. لاجثث في الباحة.. لكن بقايا الدماء لازالت تلوث المكان.. خطوت إلى أربع نسوة وقفن وأطفالهن في انتظار الباص.. حاولت أن أتباسط معهن.. سألت عن الأحوال.. لكن خائفات.. ركعن عند أقدامي.. تلعثمت الكلمات الواهنة وهي تخرج من أفواههن.. قالت إحداهن والأمل يحدوها أن تلقى مني العون: سيدي، لا نعرف كيف نربي أطفالنا، كل شيء غالٍ وعزيز المنال.. حاولت أن أخفف بلواها بكلمات.. أعرف أنها مجرد كلمات.. قلت أني سوف أهتم بالأمر.. أمرت الحراس بتسجيل عنوان مخاطبتي، وعادت القافلة.. عكفت على كتابة تقريري حول الزيارة.. كتبت كل شيء.. سجلت ملاحظاتي.. ورأيي في أسباب ماحدث.. كتبت عن معاناة الناس والجنود.. كتبت عن حالة الإملاق التي وصل إليها ناس العراق.

ماكتبته لم يرق لعدى.. ثار في وجهي.. آلمه ذكر الحقيقة.. ضربني بعصاه الإلكترونية.. صرخ في وجهي: هذا كذب.. قل إن هذا غير صحيح. واصل ضربي.. وواصل الصراخ: لماذا لم تتقيد بتعليماتي؟ لماذا تكلمت مع الناس؟ لم يأمرك أحد بذلك. أنت فدائي، لا تنس ذلك أبداً.

جرائد الصباح التي يرأسها عدي أبرزت في صفحاتها الأولى الحدث الذي جرى عند محطة الباصات.. عناوين بأبناط كبيرة «الشرطة تلقي القبض على سارقي سيارات» وتحت العنوان تسرد القصة الملفقة: «فتحت شرطة بغداد النار على عصابة لتهريب السيارات، ومما يؤسف له أنه وقع أثناء الاشتباك بعض ضحايا من عامة الشعب تصادف وجودهم في موقع الإشتباك مع المجرمين».. ولا يختلف مابثوه عبر التلفاز والراديو كثيراً.. التلفيق ذاته.. كان جُلّ همهم التأكيد على أن الحال هادىء وطبيعي.. والنظام مستقر.

لكن الحقيقة رغم محاولات الطلاء تبرز رغم أنف النظام.. مشكلاته بعد انتهاء ضجيج الحرب آخذة في الطفو على السطح.. ويحاول النظام أن يحكم قبضته على الخيوط المتشابكة.. جيش المليون متعطل بلا عمل يشكو جنوده الفاقة، تدفعهم الحاجة والفراغ إلى احتراف السرقة.. شعب تحوطه إحباطات جمة ويحاول التململ من قبضة النظام القاهر.. لكن الحكام السادرون في غيهم راكنون إلى الدعة، غير آبهون بالبركان المتأجج تحت الغلالة الرقيقة للسطح الساكن.

عدي عاد بعد أن خبت نيران فعلته إلى سابق عهده.. لاهم له إلاَّ الاستغراق في اللهو.. مثله مثل بقية العصابة لا يكترثون بما آل إليه حال الناس في العراق المفلس من جراء غيهم.. يعبث عدي بالقول حين يريد أن يعلق على حال الناس: إذا كان الشعب لا يملك الخبز.. لماذا لا يأكل الحلوى.. بل يتمادى في غيه فيتباهى بإظهار مايملك.. يفاخر بأنه نجح وهو في سويسرا في إكمال مجموعة ساعاته الفاخرة لتصل إلى أكثر من ألف ساعة.

برنامجه اليومي عاد إلى سابق العهد.. التسكع في النوادي وبارات الفنادق.. سكر وعربدة، جيش من النساء يتبعه.. مريدوه كثيرون وأعداؤه أيضاً.. ليس اليهود والإيرانيون والمصريون والذباب الأزرق وحدهم فقط الذين يكرههم عدي، أضاف إليهم الكويتيين.. بغداد أصبحت هذه الأيام حافلة بأعداد كبيرة منهم.. كانوا يأتون خاصة في أيام الخميس للسهر واللهو في منتديات وخمارات بغداد.. يأتون ليغرقوا في الخمر الممنوعة في بلدهم.. يكرههم عدي لأنهم جاؤوا بدولارات بترولهم ليزاحموه أماكن لهوه.. يصفهم بلصوص البترول.. لم تشفع لهم عنده المساعدات الهائلة التي قدمها بلدهم لنظام الوالد ليصمد في سنوات الحرب.. مليارات الدولارات جاءت من خزانتهم طواعية.. كل أهل ذلك البلد لصوص في نظر عدي.. كلهم بلا استثناء.. حتى من تربطه بهم صداقة أو علاقة عمل.. جاء في يوم إليّ فندق الرشيد الأمير فهد الأحمد الصباح شقيق أمير الكويت.. رئيس اتحاد كرة القدم الكويتي، والذي يرأس أيضاً اللجنة الأولمبية الكويتية.. والتقاه عدي، أخذه بالأحضان.. قال أمام السُّمار.. هذا الرجل مثل أخي.. لم أكن حاضراً اللقاء، لكن الحراس أخبروني بوقائعه.

ورغم مظاهر الترحيب التي قابل بها عدي الضيف الكويتي.. فاجأه الأخير بما أحنقه.. سأله فهد عن الديون المستحقة على العراق.. قال له: أحد عشر مليار دولار اقترضها العراق منا.. متى سوف تعيدوها إلينا؟.. طالب بديون بلده جهراً وأمام شهود.. فأزعج ذلك عدي.. لم يتوقع ماجاء على لسان الرجل.. ظل ليوم كامل بعد اللقاء منزعجاً، ومتوتراً.. يردد في صوت مسموع: إنهم لصوص، لصوص ماكرون.. يسرقون بترولنا منذ

سنين.

يدور في مكتبه.. ويأتيه منعم حمد بملف عن العلاقات بين العراق والكويت.. وجلس إلى مكتبه يقلب الوثائق بضيق.. أخذ يطالعها ويهز رأسه.. ويهب واقفاً.. يمسك بخناق منعم ويخاطبه زاعقاً: أنت تعرف مثلي أنهم يسرقون بترولنا.. يسحبونه من الرميلة.. الرميلة ملكنا.. قل إنك تعرف هذا.

ويوافقه منعم علّه يهدأ.. يقول مؤمناً على الكلام: نعم يسرقون بترولنا.. وفوق ذلك يتهموننا أننا مدينون لهم.. حقل الرميلة يقع في منطقة الحدود بين العراق والكويت، القسم الأكبر من الحقل يقع داخل الحدود العراقية، كيلومترات قليلة تقع فقط في الأرض الكويتية.. لكن ماتمتلكه الكويت من تكنولوجيا عالية يتيح لها أن تسحب من الحقل أضعاف مايسحبه العراق.

ويواصل منعم حمد حديثه ليؤكد لسيده الحق العراقي: سيدي إنهم يضخون من الحقل الذي هو في الأصل مملوك لنا.. الفاصل الحدودي مجرد خطأ.. الرميلة كلها ملك للعراق.

عدي يهز رأسه علامة الرضا.. يؤمن على شهادة منعم: سوف يأتي اليوم الذي نبرهن فيه على ذلك.. وأضاف: والدي تحدث عن ذلك عدة مرات.

يستدير ليحدق في خارطة ضمها الملف الذي أتى به منعم.. مرسومة عليها الكويت كواحدة من مقاطعات العراق الثلاث وقت أن كان تابعاً للدولة العثمانية.

ويقرأ بصوت عالٍ تعليقاً كتب على حاشية الخارطة:

«سوف نوسع حدود العراق إلى جنوب الكويت، ولا يحق لغير العراق أن يعقد عقوداً أو اتفاقات بشأن الكويت، ولهذا نعتبر أن ما عقد بين مشايخ الكويت وبريطانيا باطل قانوناً باعتبار أن شعب الكويت جزء من شعب العراق».

النص الذي على الخارطة هو لعبد الكريم قاسم الرئيس الأسبق للعراق.. قاله بعد ستة أيام من منح بريطانيا الاستقلال للكويت في 19 حزيران 1961 وفق معاهدة وقعتها مع عبد الله السالم الصباح.

التوتر والاشتباكات طبعت العلاقة منذ ذلك التاريخ بين العراق والكويت نتيجة عدم اعتراف العراق باستقلال الكويت.. ووصل التوتر إلى ذروته بعد أن دفع العراق بعدد من ألويته إلى داخل الكويت حتى «المطلاع» التي لاتبعد عن الكويت العاصمة بأكثر من أربعين كيلومتراً.. وأرسل البريطانيون بدورهم أكثر من ستة آلاف جندي لصد الهجوم العراقي.

حمل الاستعمار البريطاني عصاه ورحل.. لكنه خلف ورائه توترات دائمة تبرز بين حين وآخر.. عام 1922 أتى السير برس كوكس بحكام المنطقة الى طاولة يحاورهم.. ولما أرهقته المحاورة رسم خطاً بقلمه الأحمر على الخارطة امتد من قمة الخليج إلى حدود الأردن.. وخطين آخرين لما عرف بالمنطقة المحايدة التي تقاسمتها السعودية والعراق فيما بعد.. البترول الذي تفجر في المنطقة جعل من تلك الخطوط الشائهة المرسومة في لحظة ضيق خطوط شائكة حافلة بالصراع.

لقد اضطر العراق بعد الإطاحة بقاسم أن يعترف بالكويت.. يجلس

معها في المؤتمرات الدولية والعربية باعتبارها بلداً لا مقاطعة من مقاطعاته.. لكنه ظل يتحين الفرص ليغير الأوضاع التي أرغم على مجاراتها.

عدى الجالس إلى مكتبه يفكر بصوت عالٍ.. يردد قناعات نظام أبيه: إذا استولينا على الكويت ينتهي العراق من مشاكله دفعة واحدة.. الجنود المتعطلون سيجدون لهم مهمة أخرى.. الكنوز التي تزخر بها بنوك الكويت سوف تأتي بالرفاهية لشعبنا.

منعم صامت يرقب الفتى.. جلست أتابعهما موزع بين الدهشة والاستغراب.. أجاهد لأبدو هادئاً.. لازال الفتى يردد كلمات أبيه.. ويؤكد في النهاية على أن: لو أن والدي كان في الحكم في العام 1961 لما كان هناك شيء اسمه الكويت.

كانت كلمات عدى تحمل نذر ماسوف يأتي.. أفصح عن النية المبيتة لاجتياح الكويت.. حرصت أن أسجل في دفتر ملاحظاتي الحديث الذي جرى بشأن الكويت.. سجلته إلى جانب ماتشير إليه صحف العراق بين حين وآخر حول الموضوع ذاته.. لقد دأبت صحفنا التأكيد على حق العراق.

«لم يتوصل إلى اتفاق حول الحدود بين البلدين..».

«لن تعترف بغداد بالحدود إلا إذا أبدت الكويت استعدادها التنازل عن جزر قربا وبوبيان للعراق..».

شذرات مما تنشره الصحف حول العلاقة المتوترة بين البلدين ومبالغاتها حول مايجري في الكويت وما يمتلكه الأمراء هناك حرصت على

تسجيلها.. غالبت ضحكاتي وأنا أسجل ذلك.. مجموعة سيارات عُدي تفوق ما تقوله تلك الصحف عن عدد سيارات أمير الكويت.. والعربدة وحياة العبث التي يغرق فيها عدي تدفع إلى مقدم رأسي المثل القائل: من كان بيته من زجاج عليه أن لا يقذف بالحجارة بيوت الآخرين.. الصحف مثلها مثل بقية وسائل إعلام النظام تبحث عن عدو توجه له سهامها، ولتشغل الناس عن مشاكل النظام المتفجرة.. مشاكل العصابة العابثة.. ومثالها الخالص عدي.. عدي الذي لا يتوقف عن طيشه.

- خريف عام 1989، الليل يقترب من ساعات سكونه، وسط الصالة الواسعة لفندق الرشيد وقف عدي.. الخمر التي أفرط في شرابها تدير رأسه، حراسه أيضا يتطوحون من السكر.. في ركن وقفت فتاة فاتنة اسمها ليندا إلى جانب أمها تبيعان الورود لرواد الفندق.. راقت الفتاة لعدي فأمر الحراس بأن يأخذوها معهم.. سيقت ليندا والأم ونظرات الرواد تتابعهما.. سحبهما الحراس في قسوة.. بعد أسبوع وجدت جثة الفتاة اللبنانية.. وكذلك جثة الأم على قارعة الطريق، عند أطراف شارع المغرب في بغداد.. لقد اغتصب الفتى ليندا وترك الأم للحراس.. ولما نال وحراسه مرامهم الحرام كانت النهاية المعتادة.

- في باحة نادي الصيد، واحدة من حفلات عدي الصاخبة، عادل العكلة واقف يغني بما يطرب له عدي.. الأغنية التي تمجد صدام الأب.. «صدام يا كبير.. الله يحفظك لنا.. ويحفظ شبابك».. يهتز عدي طرباً ويردد مع المطرب كلمات الأغنية.. يفعل الحراس والحضور كذلك.. إلاّ واحدة، غادة حافظ.. فتاة جميلة.. دفعها السُكر إلى الضحك بصوت مرتفع.. خدشت عالمهم.. قفز إليها عدي.. شدها من شعرها الطويل

وصرخ: لماذا تضحكين؟!.. غادة رغم الألم الذي اجتاحها تمادت في ضحكها الهستيري.. ردت عليه صارخة في استهزاء: كم ترى عمر الرئيس الشاب الذي يغني له مطربك هذا.. وتجاهد لتتخلص من قبضته.. وتنجح في ذلك.. سوت شعرها وواصلت غير مكترثة الكلام والضحكات.. الغضب الذي اجتاح الفتى وصل إلى الذروة.. صوب تجاهها فوهة مسدسه.. ثلاث طلقات متتابعة اخترقت صدر الفتاة.. توقفت الضحكات وتوقفت الأنفاس المهتاجة.

الحاضرون جميعهم رأوا الواقعة.. شاهدوا عدي يقتل الفتاة.. رغم ذلك ألصقت التهمة بآخر.. تاجر سيارات يعمل في خدمة عدي.. سروان الجاف، حكم على الرجل بالسجن ثمانية أشهر فقط.. قالوا إن الرجل قتل الفتاة لأنها سبت أمام شهود القائد صدام.

جرائم أخرى سجلتها في دفتري.. بطلها جميعاً الفتى الأرعن:

- في واحد من أيام الخريف قرر عدي أن يذهب وأصدقاؤه إلى الموصل بغية اللهو، هناك قصر أبيه الواقع إلى جوار فندق نينوى أوبروي.. توقفت القافلة عند أبواب الفندق.. دخل وركبه.. في ركن كانت واقفة.. عائلة جمعها السرور والغبطة.. توقفت نظرات عدي على قوام صغيرتهم.. جميلة وغضة.. لم تبلغ بعد سنتها السادسة عشرة.. أمر حراسه بأخذها إلى القصر.. إغتصبها في وحشية، ثم أمرها بالعودة وشدد عليها أن لاتبوح بكلمة عما جرى.. بخطوات متثاقلة من الألم جرت الفتاة نفسها إلى الفندق.. الفتاة غير قادرة على الكتمان.. تحاول أن تشكو إلى أهلها ماحل بها.. لكن الكلمات لا تطاوعها .. يالهول ما اقترف الفتى.. الصغيرة أصلاً غير قادرة على النطق.. لقد أصابها الصمم

والبكم بعد شهور من مولدها.. تجاهد بإشارات من يديها وقدميها لتروي الحادث للأهل.. تستدير إلى الرواد لتحكي لهم.. لاأحد يفهم إشاراتها.. أو على الأرجح لا يريد.. ويعوذ الحراس ليسحبوها من جديد.. هذه المرة إلى الغابة. ليغتصبوها هم بعد أن نالها سيدهم.. وطئوها حتى عجزت عن الوقوف.. عادوا لسيدهم.. قالوا إن الفتاة خالفت ما أمرها به.. أرادت أن تتكلم.. أومأ لهم.. فاستجابوا.. عادوا فقتلوها وأوسدوها حفرة في الغابة المتشابكة.

ـ من وقت إلى آخر كانت بيداء عبد الرحمن المشتغلة بالغناء وتظهر في برامج الصغار على التلفاز تأتي إلى المكتب رقم سبعة بدعوة من عدي.. وكانت الفتاة تفاخر بصداقة عدي.. وتركن الى مساعدته لها.. في يوم جاءت شاكية أن هناك أخرى تدعي أنها صديقة عدي.. طالبة شابة اسمها سناء الحيدري.. لاطفها عدي وحاول أن يبدو غاضباً، أمر بإحضار الشقية.

جلس ممداً وإلى جواره المغنية الحسناء.. الفتاة الأخرى وقفت ترتجف بعد أن انتزعوها من مقاعد الدرس في الجامعة.. قال يسألها: هل صحيح ماتقوله بيداء؟.. تقول إنك تدعين أنك صديقتي؟.

الفتاة المسكينة تقول في خوف وهلع: سيدي لم أقل ذلك أبداً.. لم أقل البتة إني صديقتك.

يتأملها ملياً.. كلماته متكاسلة لكنها آمرة: إنزعي ملابسك.. تمددي على الفراش.. وانتظريني.. وتطاوع المسكينة.. غير قادرة على الاعتراض فقد تناهت إلى مسامعها سيرته.. تعرف ماسوف يحل بها لو عارضت رغباته.. جاء وعصاه تلمع في فضاء الغرفة.. تلاحقت الضربات على

الجسد العاري.. وتلاحقت صرخات الفتاة.. هذا مايطرب له عدى.. يستعذب سماع آلام الآخرين.. تنفر الدماء من العروق.. يختلط البكاء بالصراخ.. ألقي بجسده الثقيل على الراقدة.. إغتصبها في وحشية.. ثم بدأ فصل الختام للمأساة.. أمر بإحضار شفرة حلاقة.. وأمسك الحراس برأس الفتاة.. أخرجوا لسانها.. قصه عدى بالشفرة.. قال متهكماً: لكي لا تتكلمي بعد الآن أيتها العاهرة.. أي وحش ذلك الفتى!!.. وأي أقدار ألقت بهذه المسكينة في طريقه الشائك!!.. لم يكتف.. شبقه لم يتوقف عند حد الاغتصاب وانتزاع اللسان.. أمر الحراس بنقلها إلى مروحيته.. طارت بها عالياً.. هناك فوق سطح بحيرة الثرثار القريبة من منطقة عنبر.. أسقطوها ليبتلعها القاع.

- نادي الزوارق في بغداد: أمر عدى بإقامة حفل للهو.. أتى الأصدقاء.. وأتى قواده بكوكبة من الجميلات.. واحدة من تلك كانت وئام الكبيسي.. والدها من كبار رجال الأعمال ومستشار لأم عدى كانت تستفتيه في أمور المال.. الفتاة أتت برفقة صديقها لؤى خير الله.. خال عدى .. وحفلت الليلة بالمجون.. وكالعادة أكثر الحضور مجوناً كان عدى.. ينتقل من امرأة إلى الأخرى.. يقبض صدر هذه.. ويقرص مؤخرة تلك..

قادته خطواته إليها.. إلى وئام.. قال لها وهو يتلوى مخموراً: أرغبك، وأنت أيضاً أعرف أنك ترغبيني.. أحاط بساعده خصر الفتاة، حاولت التملص، صرخت تنادي صديقها.. وأتى لؤى غاضباً.. هجم على عدى واشتبكا في عراك.. هاجت قاعة الاحتفال وماجت.. وانطلقت رصاصات لا أعرف من أطلقها.. حمل الحراس لؤى إلى الخارج.. إختفوا به بعيداً في الحديقة الواسعة.. وغادر عدى بدوره الحفل.. وتبعته وئام.. شاركته

ليلته.. هل ذهبت طواعية أم كرهاً.. الله وحده يعلم.. لكن عدى يزهو في الصباح.. يفاخر في حركة مسرحية: إني أحب النساء.. أحبهم كثيراً.. كثيراً.

وكانت ليلة النهاية للفتاة.. قتلها بعد أيام صديقها لؤى.. لم يقدر على تحمل الإهانة.. إهانة مضاجعة عدى لفتاته.. وبدل أن يثأر من عدى انتقم من الفتاة.

- بغداد.. منطقة المنصور.. ركبنا يتجه خلف عدى إلى النادي الأولمبي.. عقارب الساعة تشير إلى السابعة مساءً.. تسير القافلة على مهل.. سيارة تتجاوز القافلة.. يجلس فيها رجل وامرأة.. عدى أصابه مس من الجنون.. كيف سمح ذلك الرجل لنفسه أن يتجرأ ويتجاوز ركب السادة.. يجب أن يعاقب على فعلته.. هكذا قرر عدى.

أصدر أوامره عبر اللاسلكي بملاحقة السيارة المتجاوزة.. وأمر بإحضار المرأة التي تجلس إلى جوار السائق.. إنطلقت سيارات نمير التكريتي، سلام العوسي وعزام التكريتي لتقوم بالمهمة استجابة لأمر عدى.. أوقفوا السيارة وانتزعوا منها المرأة.. أخذوها في واحدة من سيارات المرسيدس.. وانطلق نمير التكريتي بالرجل إلى مكتب مكافحة الإجرام في المنصور.. بينما اتجه بقية الركب ومعه المرأة الى واحدة من مزارع عدى في أطراف بغداد.

في المكتب قالوا إن الرجل حاول مضايقة رئيس اللجنة الأولمبية.. ألقى بالرجل في السجن ليلقى أصناف التعذيب.. ظل هناك لأكثر من ستة أشهر.. الرجل واسمه حسن عبد الأمير جنابي حاول أن يشكو للرئيس ماحل به وبامرأته.. كان شديد السذاجة، ذهب إلى القصر وقال للحراس

أنه يبغي الوصول إلى الرئيس حكى لهم ماحل به.. وبدلاً من أن يذهبوا به إلى صدام ذهبوا به إلى عدى .. عدى أذاق الرجل العذاب من جديد.. ثلاثة أيام متواصلة ضرب خلالها الرجل ضرباً مبرحاً.. ألقوه بعدها على قارعة الطريق ليلفظ آخر أنفاسه.. كانت جناية الرجل أنه لم يستجب لأوامرهم.. قالوا له عندما أطلقوا سراحه: لا تتكلم.. لاتتفوه بشيء.. لكنه خالف إرادتهم.. قادته قدماه إلى زبانية لايرحمون.. أراد الشكوى.. طلب أن يسمع أحد أناته فأخرسوه.

ـ النظام الماجن السادر في غيه يختلق أشكالاً عديدة ليواكب المظاهر الغربية.. هناك يقيمون مسابقات لانتخاب ملكات الجمال.. فلماذا لا يفعل هو.. ينظم سدنته كل عام مسابقة على الطريقة الغربية لإنتخاب ملكة جمال العراق.. فرصة يقتنصها الفتى المدلل ليشبع نهمه إلى النساء.. تأتي الجميلات أو يؤتى بهن.. ودائماً ما تكون الملكة الفائزة باللقب من نصيب عدى.. في العام هذا كانت الفتاة الفائزة المدعوة إلهام علي، طالبة تدرس العلوم.. الفتاة تجرأت على رفض غمزات وهمزات عدى.. وكالعادة مجرد إيماءة منه استجاب لها الزبانية، أحمد سليمان لاعب الكراتيه، مؤيد فاضل ومحمد البغدادي.. كان عليهم أن يفعلوا مايروق لسيدهم.. أخذوا الفتاة عنوة إلى المكتب رقم سبعة .. سبعة أيام كانت كافية لتجعل من الفتاة المسكينة مجرد خرقة بالية.. رأس الفساد هتك عرضها.. أهانها.. طالت عصاه كل شبر في جسدها.. تركها بعد أن فرغ منها إلى الحراس ليتبادلوا اغتصابها.. وحتى أنا دعوني للمشاركة في حفلهم الخسيس.. إمتنعت فلم يحفلوا.. طردوها في نهاية اليوم السابع.. لاحقوها بالأقاويل.. أذاعوا في المنتديات أنها عاهرة.. رجل الأعمال الكبير علي

أصابه ماجرى لوحيدته بالجنون فأقدم على قتل فلذة كبده.

وبالوقاحة الفتى.. لم يكفه مافعل .. دعا الرجل المسكين وهو في غمرة أحزانه ليأتي إليه في مكتبه.. جلس يحدق في الرجل الواقف يغشاه الحزن ويهده الانكسار.. أخذ يدور بالكرسي، يشد أنفاساً متلاحقة من سيجاره الهافانا ويتمطى.. تعالت ضحكاته الساخرة.. خاطب الرجل متشفيا: الله هذاما جمال ولكن .. قال ذلك متمهلاً .. أخذ يؤكد على الكلمات: كانت فقيدتك بلا أخلاق.. جُن الرجل الذي جاهد طويلاً ليكظم مايدور بين جوانحه.. تفجر البركان المكتوم.. تصدعت قشرة الخوف.. قفز إلى عدى لينتقمَ لشرفه.. لكنهم كانوا أسرع منه.. كلاب عدى.. أوثقوه.. جروه إلى غرفة مجاورة.. وماجرى للرجل لا يختلف عن المألوف.. كانت ليلته الأخيرة..

ياله من عالَم فاجر هذا!!.. توقفت عن الكتابة لألتقط أنفاسي المهتاجة.. يا لسوء طالعي.. لماذا أنا هنا في وسط هذا العالم المجنون المولع بإهدار كرامة البشر.. أتوا بي لأكون عبداً لسيدهم.. مجرد نسخة من الكربون ليس أكثر.. رغباتي، عواطفي وإرادتي.. كلها أحالوها إلى عدم.. لاعمل لي إلاَّ مراقبة سلوكهم الشائن.. مجرد شاهد مسربل بالصمت.. يسير حثيثاً برغمه إلى الوحل.. لطيف.. تتعالى الصرخات داخلي.. يجب عليك أن تخرج من هنا.. أن تعود إلى عالمك.. تجارة والدك.. أمنياتك التي هفوت إليها.. أن تغادر الدوامة التي تغرقك في وسطها.. الرغبة في الخلاص تجاور الإقرار بالعجز.. الإحساس بالعجز أقوى.. كيف أخرج من هنا وقد أوصدت كل الأبواب والنوافذ.. لاأحد يسمع ما تمور به النفس.. والتفكير في البوح مجرد عبث.. تخاطب

من؟!.. ذلك المجنون عدي؟! أكره ذلك الفتى.. أكره جنونه ومباذله.. أكرهه كلما تذكرت أنه هو وحده المسؤول عن حالي.. سجّاني الذي أوصد عليّ باب القفص الذهبي.. يدللني متى راق له الحال ويوسعني بعصاه متى تكدّر مزاجه.

إختلطت الرؤى أمام ناظري.ولم أعد أعرف نفسي.. الشكوك باتت تراودني.. أفلحوا في إعداد ملامحي لتماثل ملامحه.. فهل نجحوا في إفساد داخلي ليماثل داخله.. أخاف وأقاوم هذا الخاطر.. مابداخلي أقوى من قدرتهم.. لن ينجحوا في إفسادي.. مختلف أنا.. عالمي غير عالمهم.. والدي بسط على رداء حكمته.. حصنني بشفافيته.. والأم الحنون كذلك.. لقد شببت عن الطوق وسط مناخ رائق.. أسرة متماسكة تحرص على الفضائل.. تعرف مايجب وما لايجب.. تخشى الله وتؤدي الفرائض.

لكن هذا العالم الذي أكرهت على دخوله يفسدني.. لم أعد قادراً على تمثل عالمي القديم.. لم يعد بمقدوري الحرص على أداء الفرائض التي ربيت على أدائها.. لا صلاة ولا صوم.. لم أكن أطيق رائحة الدخان.. الآن أدخن بشراهة.. الخمر التي لم أقربها في السابق الآن أصبحت بديلاً للماء تلازمني جلّ يومي.. أعب منها علّها تأخذني بعيداً.. أستعين بها لأنسى عالم الجنون والقذارة.. ياإلهي.. أسأل نفسي مرات.. لماذا لم أصب هناك على الجبهة أو يأسرني الأعداء.. ربما كان ذلك أفضل مما أنا فيه الآن.

اليوم 26 كانون الأول عام 1989، عقارب الساعة تقترب من الرابعة صباحاً، تعبت من الكتابة، جمعت أوراقي، خبأتها خلف الخزانة، وذهبت لأستحم.. وقفت أمام المرآة أسوي شعري.. أخذت في تأمل شفرة

الحلاقة.. قفز إلى ذهني مشهد تلك المسكينة التي بواحدة من الشفرات المماثلة قطع عدى لسانها.. لازال مشهد دماء سناء التي تفجرت من الفم مطبوع في رأسي.. يالهول ماأنا مقدم عليه.. الآن أملك إرادتي.. أملك طريقي إلى النجاة من عالمهم.. لا مهرب إلاّ الموت.. وجرت الشفرة على الشريان النافر في يمناي.. وأفعل بيسراي كذلك.. وقفت أتابع الدم المتفجر وهو يجري إلى الأرض.. دمي .. استدرت.. ذهبت إلى الفراش وتهالكت عليه.. الشفرة لازالت معي.. عزمت على جز رقبتي لكن لم أعد قادراً على الفعل.. إستسلمت للرقاد.. ولقدري .. صدري يعلو ويهبط في وهن.. فجأة يدق الهاتف.. غير قادر على الامساك بالسماعة.. والصوت يأتيني وكأنه قادم من عالم آخر.

●●●

12 حملة النهب

⊙ صاغراً كان عليه أن يستجيب لشلال الغضب.. عزام.. كلب السيد.. أخذ في خنوع يخلع ملابسه.. قطعة وراء قطعة.. وقف عارياً.. ومثله فعل حراسي الأربعة.. اصطفوا أمام مكتب عدى خانعين، طأطئوا رؤوسهم انتظاراً للآتي.. الجالس خلف المكتب ينفث دخان سيجاره، ويلوح بالكرباج، يأتي إليهم متمهلاً .. ويبدأ بعزام، وهكذا تدور الدوائر.. الآن هم يُجلدون.. يشربون من الكأس التي احترفوا إفراغها في أجواف الآخرين.. الآن يتفجر الدم من عروقهم، تتعالى آهاتهم تحت وقع السوط، لقد أهملوا .. وعليهم أن يتحملوا نتيجة هذا الإهمال.. لقد تركوني أفعل بنفسي مالا يجب أن أفعله.. تقاعسوا في الحراسة فأتاحوا لي الأقدام على الانتحار.

دقات الهاتف وحدها كانت هي التي نبهت إلى المحاولة.. على الطرف الآخر للهاتف كان عزام يحاول أن يقول لي إن عدى يستعد للسفر إلى جنيف.. لم يكن باستطاعتي إجابة الهاتف الذي ظل يرن لدقائق.. أصاب القلق عزام.. جاء مهرولا.. أمر الحراس الآخرين باقتحام شقتي في عمارة الحياة.. لم أسمعهم وهم يكسرون باب الشقة، لم أعرف شيئاً البتة.. غبت عن الوعي مع آخر رنات الهاتف .. إستعدت الوعي بعد جهود مضنية قام بها أطباء مستشفى ابن سينا الذي نقلوني إليه.. أمضيت يومين طريح الفراش ألقى العناية على يد الأطباء المهرة.

بالكاد قادر الآن أنا على الوقوف بعد أن أمر عدي أن يحضروني إلى المكتب رقم سبعة، أراد أن أشهده وهو يعاقب الحراس.. لقد أعدني لأكون بديله والآن هؤلاء المتقاعسون كادوا بإهمالهم أن يفسدوا الأمر.. أعادوني إلى فراشي بعد أن شهدت جلد الحراس.. أخذت أفكر فيما يدور حولي.. الأيام القادمة جعلت وجودي هاماً وفاعلاً.. الأخطار تحوط بالفتى من كل جانب.. الحفاظ عليَّ مسألة لايجب أن تغيب عن بال أحد.. أقاويل كثيرة ترددت في القصر أن شيئاً ما يجري خلف السطح الساكن.. منعم حمد لم أعد أراه كثيراً .. قالوا لي إنه يدرب تلميذاً آخر.. إبن خال بعيد يعده منعم ليكون بديلاً لقصي صدام حسين.. أقاويل تملأ القصر مجدداً عن مقتل عدنان خيرالله وزير الدفاع السابق.. تحاول الأقاويل أن تضيف للأسباب الشخصية التي أودت بالرجل أسباب سياسية، قالوا إن الرجل لم يوافق على ماكان ينتويه صدام بشأن الكويت.. كان رأي الرجل أن اجتياح الكويت سوف يستفز الغرب ويستنفره ضد العراق.

نية النظام المبيتة ضد الكويت لم تكن خافية.. كان صدام يسعى لاقتحام الكويت.. كان يطلق بين حين وآخر تهديدات غير مباشرة.. تتردد أخبار كثيرة أن صدام أقر مع بداية 1990 خطة لاجتياح الكويت.. رافق ذلك محاولات تعتيم.. وجه النظام أبواقه لمهاجمة اسرائيل.. صحف النظام تحفل بالمقالات النارية ضد العدو الصهيوني الغاصب.. وتذكّر بالهجوم الذي دمرت خلاله طائرات إسرائيل المفاعل النووي العراقي عام1981 في غارة مفاجئة.. تصرخ وسائل الإعلام.. تدعي أن هجوماً جديداً تعد له إسرائيل بموافقة أمريكية.. ويتوعد النظام: إذا حدث ذلك، سوف نقضي على كل الشعب اليهودي بالغاز السام.

بابل الصحيفة التي يرأس تحريرها عدي كتبت في صدر صفحتها الأولى: «صواريخنا قوية وتكفي للوصول إلى اسرائيل».. مباهاة فارغة يعرف النظام قبل غيره أنها بلا مضمون.. لكنها تقود إلى كارثة جديدة.. لقد دفعوا بنا إلى حرب مجنونة مع إيران أكلت الأخضر واليابس.. والآن يدقون طبول الحرب من جديد.. إحساس بالعنترية الفارغة إلى جانب الإفلاس الذي تعاني منه الخزانة يدفع إلى المغامرة.. نوايا النظام تتكشف في لحظات المجون .. فتانا يثرثر بمايعرف وهو غارق في سكره: الكل يعرف أن الحرب مع إيران كلفتنا أموال طائلة، لقد أجبرونا على تلك الحرب، والآن يريد الآخرون أن يجوعوا شعب العراق .. هناك في الكويت تحاك المؤامرة ضدنا.. وتهتز الرؤوس لتوافقه.. تتقارع الكؤوس لتبارك الجهاد المقدس ضد أعداء شعب العراق.. ويقرأ الفتى على سماره بعضاً مما قاله الوالد ونقلته الصحف العراقية: «..أحياناً يستخدم الجنود كآلات في الحرب، وتستخدم المتفجرات والقتال الضاري للتدمير، وفي أوقات أخرى تستخدم في الحرب أدوات اقتصادية، لهؤلاء الذين لا يريدون للعراق الرفعة، أقول: يجب أن يفهموا أن هذه المضايقات الاقتصادية حرب ضد العراق». النظام المفلس يلوي عنق الأشياء.. لايريد أن يرد الدَّين لمن أقرضوه، يماطل، يهدد ويتوعد علّهم يسكتون عن المطالبة، ليس السكوت وحده مايطلبه ذلك اللص المفتون بقوته .. يطالبهم كذلك بتعويضه عن خسائر يدعيها.. يقول إنهم سرقوا بترول الرميلة، يردد عدي: نعرف كلنا أن الكويت أخذت من الرميلة بترولاً بقيمة 28.8 مليار دولار، لكي نؤمن حقلنا ضدهم لاحل إلا انتزاع المساحة الصغيرة التي تتيح لهم سرقتنا.. نستطيع بتوسيع الحدود التخلص من مشاكلنا.. وهكذا أصبحت النية

واضحة.. يعرف النظام أن الكويت لن تتنازل طواعية عن الأرض التي يطلبها.. أحاديث صدام خلال التلفاز تنذر بالعاصفة التي تلوح في الأفق .. يقول إن الكويت تضخ من حقولنا كميات هائلة، ليست من حقها، وتسهم في تدنّي السعر، تسببت في الهبوط بسعر البرميل من عشرين إلى أربعة عشر دولاراً.. قال مؤكداً: إننا نخسر من وراء ذلك أكثر من مليار دولار سنوياً.. ويردد عدي كالببغاء: مايفعلونه كضربة سيف مسموم توجه إلى الظهر.. إنه هجوم مباشر ضد أبي.

لم أعهد الفتى مهموماً بالسياسة إلى هذا الحد .. الآن يجهد نفسه ليعرف أكثر.. يتابع مايكتب.. لكن هذا لايدوم طويلاً.. قال لنا أنه سوف يسافر إلى جنيف، وسوف يأخذ معه وعدالله أبو صقر.. علامات الدهشة ارتسمت على وجوهنا.. لماذا هذا الشخص بالذات.. أبو صقر هو المسؤول الرئيسي عن حماية القصر الرئاسي.. يتولى الإشراف على تدريب الحراس، وعن عدة فرق من فرق حماية الرئيس .. لكن ماغمض علينا في البداية أضحى جلياً بعد عودتهما من الرحلة التي دامت عشرة أيام.. لقد أنجز الرجل هناك عملية سرية.. نجح في جلب فرقة حماية من الرجال الكوبيين.. أتى بهم ليكونوا حراس إضافيين للوزراء وبعض شخصيات الحزب أفرغوا للحراس الجدد أربع طوابق في عمارة الحياة ليسكنوها.. أحاطهم النظام باهتمام زائد ورعاية خاصة.. لم يسمح لنا أن نتواجد في نادي الرماية في وقت تدريبهم.. رواتبهم تدفع بالدولار وليس بالدينار.

حزيران عام 1990، تكثفت لقاءات الرئيس بأفراد العائلة، يعود لنا عدي بعد كل اجتماع يحوطه الصمت.. على غير عادته توقف عن

الثرثرة.. مجرد ملاحظات ينطق بها: العراق لديه مليون جندي.. الكويت لا يملك أكثر من سبعة عشر ألف رجل.. وسلاحه الجوي غير فاعل.. بحريته لاتتعدى عشرين زورق مراقبة لاغير.

وهكذا ظل الفتى يفاخر بقوة وضخامة جيش أبيه، ويسب حكام الكويت.. آل الصباح.. أخذ يشتمهم واحداً واحداً.. بدأ برأسهم الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي تولى الإمارة عام 1977، ولم ينس ولي عهده الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح.. ويؤكد على سب وزير المالية الشيخ علي الخليفة الصباح، وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وزير الداخلية الشيخ سالم الصباح، ووزير الدفاع الشيخ أحمد الجابر الصباح، كلهم في نظر عدى سواء يسيطرون على بلد يموج بالثروة، يصف آل الصباح بعصابة وينسى أن العصابة الأقوى والأكثر ضراوة هي عصابة بغداد التي هو واحد من أركانها!!.

للحظات أتفكر في النظامين في العراق والكويت.. صحيح أن عائلة الصباح تسيطر على السلطة في الكويت مثل عائلة صدام في العراق.. لكن هناك فروق واضحة لاتخطئها العين المدققة.. في الكويت برلمان ومعارضة، ينشط أحياناً، ويعطل أحياناً لكنه موجود وفاعل على عكس العراق التي لايعلو فيها صوت فوق صوت صدام.. المعارضة في الكويت تتجرأ إلى حد انتقاد الأمير وغير متصور هذا في العراق، وعندما عطل الأمير البرلمان واجهته عاصفة من الانتقادات حتى اضطر الى إعادته عام 1990.. النظام في العراق يظهر دائماً عطفه على المعارضة الكويتية ويسعى لدعمها في مواجهة آل الصباح، لايريد استقرار النظام هناك، ويفعل كل مايقض مضاجعه، يدفع رجاله إلى مواجهة بين الشارع وشرطة

النظام.. مخابرات صدام تعرف أن الكويت رغم مظاهر الثراء بلد بالغ الهشاشة في تركيبته السكانية، ثمانمائة ألف يحملون الجنسية الكويتية، منهم مائة ألف فقط كويتيون أصليون.. تنوب هذه الأقلية وسط بحر من الأجانب يزحمون البلد.. فلسطينيون وعرب من بلاد أخرى، آسيويون وأوروبيون.. تعرف عيون العراق أن الامتيازات التي يتمتع بها الكويتيون تستفز الآخرين.. خاصة الذين يسمون هناك «البدو».. لهذا يثق نظام صدام أنه في حال اجتياح العراق للكويت سيجد أنصاراً يقفون في صفه في مواجهة آل الصباح.. وأكثر من يعول عليهم نظام بغداد هم الفلسطينيين.. ويمثلون الجالية الأجنبية الأكبر في الكويت.. والتي تسيطر على مراكز الأعمال هناك.. يقول عدي: يجب أن نساعد إخواننا الفلسطينيون هناك.. هم أسياد الكويت الحقيقيون، بدونهم لن تستطيع الدولة أن تبقى على هذا الحال الاقتصادي.. يجب أن يقفوا في مواجهة دولة آل الصباح الاستغلالية.. وتأخذه الجلالة فيكشف بعض مخططات نظام أبيه للنيل من آل الصباح.. يؤكد أن جهاز الأمن الخاص العراقي يحاول منذ أسابيع أن يحرض سياسيين كويتيين معارضين، وكذلك الفلسطينيين.. ويقول: لقد تكلمنا مع أحمد السعدون، ومع محمد القوادري من الجبهة الديمقراطية.. ويدعي أنهم يطلبون ويلحون في أن يقوم العراق باجتياح الكويت ليخلصهم من حكامها.. ويؤكد أن العراق سيفعل ذلك: سوف نذهب لمساعدة إخواننا.. ونطرد هذه الحكومة الفاسدة.. نطرد الذين لاهم لهم غير العبث بمقدراتنا واقتصادنا.. سوف نقوم بهجوم مفاجيء لندعم فرقة ثورية معارضة طلبت المساعدة من بغداد للقضاء على الأمير وحكومته.. سوف تذهب قواتنا إلى عقر دارهم.. قصر الوزمان..

لتضعهم أمام الأمر الواقع.. سوف نجبرهم على أن يكونوا طوع إرادتنا.. إذا رفضوا.. مصيرهم معروف ومقرر.. الإعدام على الفور.. لم يعد الفتى قادراً على إخفاء نوايا النظام.. يبوح الآن بكل التفاصيل.

نهاية حزيران 1990، القوات العراقية تسارع إلى الحدود مع الكويت.. ثلاثون ألف رجل بقضهم وقضيضهم دُفعوا إلى هناك ليكونوا طلائع الغزو.. العائدون من الجنوب يقولون إن أتوستراد القادسية مزدحم بالدبابات والقوافل العسكرية المتجهة صوب الحدود مع الكويت.. سألت عدي فأكد على الأمر: نعم.. لقد أرسلنا عدة فرق إلى الجنوب.. فقط للاحتياط.. ربما احتاج الأخوة في الكويت المساعدة في حربهم ضد حكومة الصباح.. أرسلنا أكثر من مائة ألف رجل.

هكذا تأكد لي أن الغزو تقرر، والعد العكسي لساعة الصفر قد اقترب.

مع إشراقة الأول من آب 1990 غادر عدي مقره على غير العادة.. قالوا إنه ذاهب إلى النادي الأولبي.. كنت بدوري متيقظاً.. أنتظر أوامره، هاتف لي في التاسعة.. أكد عليّ لأكون متأهباً.. صوته عبر الهاتف لم يكن واضحاً.. كان يأتيني من بعيد.. تأكدت أنه ليس في النادي الأولبي.. وضح كل شيء عندما أدرت المذياع لأسمع أخبار الظهيرة.. قال مقدم النشرة إن المباحثات التي جرت في جدة بوساطة السعودية بين الوفدين العراقي تحت رئاسة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت ابراهيم والكويتي برئاسة رئيس الوزراء الكويتي وولي العهد سعد العبد الله السالم الصباح قد انتهت بعد أن سادها استفزاز علني وتهجمات ضد العراق.. وتابع مذيع النشرة: الكويت رفضت الاقتراحات العراقية بالنسبة للحدود الفاصلة لحقول نفط الرميلة، ورفضت أيضاً التعويض الذي نطلبه عن

بترولنا الذي نهبته.. لم تدم المباحثات أكثر من ساعتين.. تعلقت بالمذياع أشغل نفسي بمتابعة المستجدات.. عاد الوفد العراقي إلى بغداد.. وأعلن عن إغلاق الحدود بين البلدين.. عبر النافذة أخذت أطالع الحركة الدائبة.. قوافل الوزراء وكبار رجال الحزب تأتي متسارعة إلى القصر الجمهوري.. المروحيات لاتهدأ.. هديرها يصم أذنيّ وهي تدور في فضاء القصر.. حركة دائبة هنا وهناك.. لاأحد ينطق بماهو آت.. الحراس مستنفرون، خطوط الهاتف في عمارة الحياة قطعت.. لم يعد مسموحاً بالاتصال إلاّ عبر الاستعلامات.. كل شيء يجري وفق ماخطط له.

أخذني حراسي في المساء إلى نادي الرماية.. النادي شبه خالٍ.. فقط بعض رجال من جهاز الأمن الخاص.. أخذت أتدرب على الرماية حتى الثانية عشرة.. أتى حارس مسرعاً وكان واضح الارتباك.. قال إنه عليّ أن أسارع بالعودة إلى شقتي.. وقال ونحن في الطريق إن صدام سوف يذهب إلى الكويت في الساعات القادمة.

في الثاني من آب، في تمام الثانية صباحاً عبرت دباباتنا الحدود عند العبدلي، 350 دبابة اتجهت مسرعة إلى العاصمة الكويت ولم تلقى مقاومة.. قليل من المناوشات اليائسة قام بها جنود كويتيون عند المداخل.. سلاح الجو الكويتي فر إلى السعودية.. 36 ميراج طارت هاربة إلى هناك.

غادرنا النوم.. جلسنا نترقب أنباء جديدة.. جلسنا ننتظر أيضاً أوامر عدي.. في الليلة التالية دعاني إلى المكتب رقم سبعة.. هناك كانوا جميعاً.. أصدقاء عدي ومريدوه .. مئات السيارات تزحم الساحة أمام البيت.. عزام قال لي إن عدي قرر الاحتفال بالنصر في نادي الصيد وأن

الوضع قد رتب، تحركت قوافل السيارات بنا إلى هناك.. عبر البعض عن الفرحة بإطلاق النار من مسدساتهم وكلاشينكوفاتهم ونحن سائرون على الطريق.

مدخل النادي يموج بالسيارات الراقية من مختلف الماركات.. وفي الداخل حشد هائل من البشر.. أضواء باهرة تتراقص وكأنها تشارك صفوة بغداد حفلهم.. الخدم نشطون.. تجدهم في كل الأركان يقدمون الشمبانيا للجميع.. الحشود تفسح طريقاً لركب القادم.. ركب عدي.. يتعالى التصفيق احتفاءً به.. قابلوه بالانحناء.. وسارع البعض إلى تقبيل يده.. منتفخة أوداج الفتى وهو يسير متبختراً وسط حراسه.. يبتسم للجميع.. ويتوقف ليلمس الجدائل المنسابة على ظهور الحسناوات.. وقفت في ركن أتابعه وهو يختال في حلته السوداء المخططة بخطوط ذهبية.. كنت مرتدياً حلة الحراسة العادية فلم يلتفت أحد إلى ملامحي التي تشبه ملامح عدي.. كلهم كانوا مشدودين إليه.. إلى رمز النظام المنتصر.. تابعوه وهو يتجه إلى الميكرفون.. صاح عبره ليسمع الحشد صوته المزغرد: لقد وصلنا إلى هدفنا.. أخذ كلاشينكوفاً من أحد الحراس وصوبه إلى السماء لتنطلق حمم النار.. ودعا الحشد إلى المشاركة في مهرجان النار.. ازدحمت السماء بالحمم والدخان، عكرت صفو سماء بغداد، أحالت الليل إلى نهار.

الأنباء عن وقائع الاجتياح تتناقلها الشفاه.. رجالنا نجحوا في السيطرة على المراكز الهامة هناك.. قصر الوزمان.. محطات الإذاعة والتلفاز.. لامقاومة تذكر إلا عند مدخل قصر الوزمان.. مقاومة قادها فهد الأحمد الصباح أخو الأمير.. عندما نقلوا إلى عدي نبأ مقتل فهد قال

بعصبية: ياله من شقي.. كان مثل أخي.. كان باستطاعته أن يكون نائبي.. علـى ماذا أراد أن يبرهن من خلال هذهالمقاومة التي أودت به!!

فهد الأحمد الصباح حاول مع حراس الأمير صد هجوم القوات العراقية التي أتت إلى القصر.. دافع ببسالة، أخذ يطلق مسدسه وهو واقف على درج القصر.. لم يجبن رغم كثافة القوات المهاجمة.. وقف صامداً إلى أن صرعته رصاصة جندي عراقي.. بعدها سكتت المقاومة في القصر.. وأخذت جثة الشيخ إلى عرض الشارع لتمزقها الدبابات التي تدور حول القصر.. تحول المقاوم إلى مزق تناثرت على أطراف الطريق.. لم يأسف عدي كثيراً لما حل بصديقه.. قال إنها الحرب.. لم نرد قتل أحد، أردنا فقط مساعدة الثوار.. شيء واحد أخفاه عنا عدي.. لم يقل لنا أن القصر كان خالياً.. لقد تركه الأمير قبل الغزو بلحظات.. الأمراء كلهم نجحوا في الفرار.. عبرت قوافلهم إلى السعودية.. عندما وصلت طلائع الغزو إلى القصر الأميري لم يكن فيه غير الأمير فهد الذي دافع وحيداً مع نفر قليل من الحراس .. ولقوا جميعاً حتفهم.

ماروج له النظام أصبح مأزقاً.. المعارضة الكويتية التي تحدث عنها كمبرر للغزو لم يوافق أحد منها على الإنضمام إلى الغزاة.. أوراق النظام التي أعدها تكشفت.. لكنه عاد يلعب من جديد.. في الرابع من آب أمر صدام بتشكيل حكومة كويتية بعد أن أعلن تحويل الكويت إلى جمهورية .. ونصب على رأسها شخص يدعى العقيد علاء حسين علي ادعى النظام أنه ضابط في الجيش الكويتي تزعم الثورة ضد النظام الأميري السابق..

إدعاء زائف لم يصمد طويلاً.

هذا الشخص مجرد اختلاق.. لايوجد ضابط كويتي بهذا الاسم..

نعرف نحن في القصر أن الذي انتحل ذلك الاسم ليمثل الدور في اللعبة هو حسين كامل حسن زوج رغد كبرى بنات صدام.

حسين كامل هذا يسمونه في بغداد كلب صدام الوفي.. بدأ كحارس عادي في الشرطة.. تدرج إلى أن أصبح السائق الخاص للرئيس السابق أحمد حسن البكر.. وظل يقوم بعمله هذا إلى آخر يوم في حياة البكر الذي قيل أنه مات إثر نوبة قلبية.. شائعات كثيرة قالت إن الرجل مات مسموماً، وإن السائق هو الذي تولى مهمة وضع السم في طعام سيده.. وكوفىء الرجل على فعلته.. مرق كالبرق في طريقه إلى سلم السلطة.. مما قوى من مصداقية الرواية عن دوره في قتل الرئيس البكر.. في البداية عينه صدام حارساً أول له.. منصب أكثر أهمية من منصب وزير.. رقاه إلى رتبة الملازم الأول مع أنه لم يحضر أيّ دورة من دورات التأهيل لرتب الضباط.. هذا لايهم في عرف نظام صدام.. الأهم أن يكون الشخص مخلصاً وأميناً.. المكافأة الأكبر كانت زواجه من ابنة الرئيس.. شرف لايناله إلاّ من يثق صدام في ولائهم الكامل.. وكان هذا حال إخوته أيضاً.. أخوه صدام كامل زوجته رنا، وحكيم كامل زوجوه الصغرى حلا.. الإخوة الثلاثة تزوجوا من بنات صدام.. إرتبطوا بالعصابة برباط وثيق.. الأخ الأكبر حسين كامل حسن الذي أصبح الحارس الأمين ازدادت ثقة صدام به وارتكن إليه أكثر.. ولاه وزارة جديدة كما لو أنها أنشئت من أجله.. وزارة الصناعة والتصنيع العسكري.. أصبح السائق السابق مسؤولاً عن نظام التسليح بكل تعقيداته.. وزارة الصناعة كانت في السابق مسؤولة عن تصنيع السلاح.. بعد أن تولى حسين كامل أمر وزارة التسليح دمجت معها وزارة الصناعة. تحولت أنظاره أيضاً إلى وزارة النفط.. أوغر صدر

سيده على وزيرها، فأجبر الرجل أن يعترف علانية وعبر التلفاز أنه خان النظام.. إعترف أنه خالف القوانين وباع نفطاً لحسابه الخاص.. كان الرجل يرجف وهو يعترف بجرم يعرف الكل أنه جرم زائف.. وأتت نهاية مسرعة.. أُعلن بعد أيام أنه مات متأثراً بنوبة قلبية.. واستحوذ الفارس الجديد على الوزارة الثالثة أيضاً.. ثلاث وزارات هامة أصبحت تحت إمرة زوجِ ابنة صدام.. وظل الرجل يصعد.. وتولى وزارة الدفاع بعد سقوط المروحية بعدنان خير الله.



13 الكل سرقة

○ بعد الاجتياح بأيام هجرت المدينة.. تحولت العاصمة الكويت إلى مدينة أشباح.. خلت الشوارع من الناس.. كانت السيارات واقفة مبعثرة والدكاكين موصدة.. تهشمت أفاريز الشوارع بعد أن داستها الدبابات.. سكتت الحياة إلاّ من جنودنا.. يصخبون في الباحات الخالية.. يمتطون بدلاً من ناقلاتهم عربات المرسيدس التي تركها أغنياء الكويت وهربوا.. اطمأن الجنود فقد خفتت المقاومة.. أضحت البلد تحت قبضتهم.. الإذاعة والتلفاز.. مرافيء النفط والمطار.

وهناك في بغداد فصول الكوميديا العابثة لازالت فصولها تتوالى.. أعلن التلفاز العراقي في خبر عاجل: أن رئيس حكومة الكويت العقيد علاء حسن علي «حسين كامل حسن» أرسل رسالة خطية للرئيس صدام يعرب فيها عن استعداده إجراء محادثات مع العراق الشقيق حول مسألة الحدود.. ويستجيب الرئيس صدام للرسالة.. يكلف عزت إبراهيم بإجراء المحادثات.. وأعلن التلفاز أيضا: أن الحكومة الثورية الجديدة في الكويت قررت عزل الضباط الكبار في الجيش والشرطة وإحالتهم إلى التقاعد.

لكن لم يسعد النظام طويلاً بنصره الموهوم.

الثامن من آب 1990 يرسل الرئيس الأمريكي جورج بوش طلائع قواته إلى الخليج.. فرق جنود المظلات 18 مع خمسين سفينة مرافقة.. طائرات الفانتوم تطير من قواعدها في بريطانيا متجهة صوب قواعد جديدة في تركيا.. حاملات القذائف «B_52» تتوجه من قواعدها في المحيط الهندي إلى الظهران في السعودية.

الأحداث تتوالى مسرعة.. والنظام العراقي لازال يسدر في غيه.. ويأخذ في التمادي.. أعلن عبر التلفاز والراديو ضم الكويت.. ظهر صدام على الشاشة ليؤكد الحدث: الشكر لله، أصبحنا الآن شعب واحد، بلد واحد، بلد سيكون فخر العرب، عراق جديد من زاخو في الشمال إلى الأحمدي في الجنوب.. ويخرج الآلاف إلى الشوارع.. يحشدهم الحزب على طول شوارع بغداد ليعبروا عن الابتهاج بإعلان الرئيس.

في المكتب رقم سبعة جمعنا عدي.. حراسه ومعاونيه.. جلس إلى مكتبه وأمامه قائمة حدد عليها المهام القادمة.. وقف.. جاء إلينا وأخذ يدور في الغرفة.. قال وهو يحدق في الفراغ: الكويت أصبحت الآن لنا.. ثم عاد الى المكتب وأمسك بالقائمة.. وواصل دورانه في الغرفة وهو ينفث دخان سيجاره.. توقف ليتحدث من جديد.. نطق جملة قصيرة بصوت خافت: غداً نبدأ بعملية الكويت.

لم يتركنا طوَيلاً للدهشة.. أخذ يشرح الخطة.. عزام سوف يؤلف سريعاً مجموعة من الفرق.. أفراد كل فرقة عشرين شخصاً.

الفرقة سيارة: مهمتها جمع السيارات المتروكة ماركة مرسيدس و BMW وإحضارها بواسطة الشاحنات إلى بغداد.. علي الفرقة ألا تهتم بماركات الكاديلاك أو الرولز رويس.. عليها أن تركز على الماركات الألمانية الحديثة.. لن تحتاج الفرقة إلى مفاتيح لإدارة السيارات.. تديرها بأي طريقة أو ترفعها على الناقلات.. أي اعتراض من تجار أو أصحاب السيارات يجعلهم عرضة للإعدام على الفور.

الفرقة أثاث: مهمتها مصادرة الفيلات المتروكة.. تجمع الأثاث.. وأدوات المنزل.. المكيفات.. الرخام.. كل شيء له قيمة تحمله الشاحنات إلى بغداد.. وأيضا الفنادق والمستشفيات تجوبها الفرقة لتجمع منها كل ما هو ثمين..

فرقة هاي فاي: تتولى هذه الفرقة مهمة اقتحام محلات السوبر

ماركت، عليها أن تركز على المعدات الإلكترونية.. عليها أن تركز فقط على الأشياءالثمينة.

لم يأت عدي على ذكرٍ لمحلات الساعات والمجوهرات.. أدهشني هذا لكني لم أسأل.. إنتظرت ما هو قادم.

في اليوم التالي تحركت الفرق على اوتوستراد القادسية.. ذهبت مع فريقي.. كان علينا أن نشق طريقنا وسط زحام الحافلات العسكرية المتجهة إلى الكويت.. لم تواجهنا مشاكل اعتراض .. لقد زودنا عدي بأوراق المأمورية.. أوراق تبين أننا نقوم بمهمة خاصة.. عرضوا علينا في الطريق أن ترافقنا الشرطة.. قلت لهم إننا لانحتاج حماية إضافية.. كانت قافلتي تتألف من أربع سيارات مرسيدس ليموزين متشابهة ترافقها ست ناقلات سيارات من الحجم الكبير، وخمس جرارات لعربات النقل.. حدد لنا في هذا اليوم موقع قريب من الحدود السابقة، وقفنا عند «معرض الغانم».. كان المعرض مزحوم بالسيارات الأوربية والأمريكية.. كانت تجارة السيارات رائجة في الكويت.. كل أسرة كانت تملك ثلاث سيارات على الأقل.. الوقود كان متوفراً وبسعر زهيد.. ولاضريبة على السيارات.. أكثر الماركات المرغوبة كانت الأوروبية مثل المرسيدس والبورش وBMW والجاكوار والرولزرويس.. وكذلك الأمريكية الضخمة الفاخرة.. قبل الغزو كان رقم السيارات المسجل في الكويت يزيد عن سبعمائة ألف سيارة.. أتى ضابط إلينا وكان مكلفا بحراسة معرض السيارات.. غادرت سيارتي إليه.. كنت مرتديا حلة سوداء بخطوط مذهبة مكتوب عليها اسم عدي صدام حسين.. حياني الضابط.. كان غامق البشرة.. أوضحت له ماسوف يفعله رجالي.. حياني للمرة الثانية.. انحنى وقبل يدي.. ثم انصرف.. دخلنا إلى باحة المعرض.. وجدنا هناك جنوداً .. منتشرين كالجراد، عاكفين على تفكيك أجزاء من السيارات الواقفة، راديوهات، لمبات ومرايا.. ينهبون مايقدرون عليه.. لما رأونا توقفوا، حاولوا الاختباء..

الضابط عرف أني رأيت جنوده، أصابه الارتباك، ابتسمت له فاطمئن.. أمرته أن يأخذ جنوده وينصرفوا.. استجاب على الفور.. إختفوا جميعهم خوفاً من العقاب.. لقد شاهدت ونحن على الطريق شاحنات كثيرة عائدة إلى بغداد.. تحمل أثاثاً وقطع سيارات نهبها الجنود.. الكل حرص على أخذ نصيبه من التركة.. الجنود والضباط.. كأن هاجساً ما استقر داخلهم أن الوقت يتسارع وأن الكويت لن تبقى في قبضتنا طويلاً.. على الكل إذن أن يأخذ نصيبه قبل فوات الأوان.. كانوا يعرفون أن الجيوش تتجمع هناك في صحراء السعودية.. تتأهب لاستعادة الكويت.. الجنود الذين أرهقتهم حربنا الطويلة مع إيران وأرهقهم أكثر العوز بعدها.. جعلهم نهمون إلى تأمين العيش بالنهب قبل العودة المتوقعة إلى بغداد.

الفوضى تعم أنحاء الكويت.. حافلات تهرول إلى الشمال قاصدة بالمسروقات الطريق إلى بغداد.. وأخرى تحمل الفارين.. عرب وآسيويين نحو الجنوب أو الغرب للنجاة من قبضة جنود الاحتلال.. يفرون في قوافل متتابعة.. جنودنا لايمنعونهم.. خصوصاً بعد أن تقبض أياديهم على النقود لتحشي بها ستراتهم العسكرية.

احتاجت فرقتي لساعتين.. جمعنا إثنين وأربعين مرسيدس 500 وBMW من النوع الكبير.. قضى الحراس بعض الوقت ليمتعوا أنفسهم بقيادة السيارات .. داروا بها في جنبات المعرض فرحين قبل أن يرفعوها إلى الشاحنات.. وتحركنا إلى الراشدية.. هناك تقع مزرعة عدي في منطقة الجزيرة السياحية.. المزرعة التي يربي فيها كلابه الشرسة.. وفهود ونمور أيضاً.

عندما وصلنا المزرعة وجدنا هناك عزام ورجاله.. سبقونا بأحمالهم الثمينة.. ازدحمت جنبات المزرعة بالغنائم.. أكثر من مائة سيارة ألمانية فاخرة.. جاء عدي .. علامات الرضا تطبع ملامحه.. كل الفرق عادت دون أن تواجهها مشاكل.. قال لنا إنه علينا أن نعود ثانية إلى هناك لمعاودة

المهمة في اليوم التالي.

إتجهت مع إشراقة 11 آب ومعي الرجال إلى مناطق شويك وحولي.. قيل لنا إنها تضم معارض سيارات كبيرة.. عند وصولنا وجدنا ضباطاً وجنوداً يفعلون مثل مانفعل.. ذهبت إلى قائدهم.. صرخت في وجهه: ماذا يحدث هنا؟.

حياني في أدب.. قال: سيدي، لدينا أوامر بإحضار سيارات أوروبية ونقلها إلى مزارع حسين كامل حسن في تكريت.. يالهم من عصابة.. كلهم وليس عدي.. الكل يسعى لنهب البلد المسكين.. كانت إجابة الضابط كافية.. تركته لأواصل مهمتي.. لاحاجة لمزاحمة.. المعارض بها مايكفي.. لنا ولهم.. لمحت وأنا أتابع عمل فريقي ضابط من الفريق الآخر وهو يوقف كويتياً كان يعبر بسيارته المكان.. أجبره على الخروج من السيارة، أمره بالهرولة بعيداً.. استجاب الرجل على الفور.. هرول بحثاً عن مكان آمن.. لم يستغرق عملنا وقتاً طويلاً هذه المرة.. أصبح الرجال على دراية بالأمر أكثر.. وعدنا إلى هناك.. وذكرت لعدي أننا لقينا فريقاً يعمل لحساب حسين كامل حسن.. استشاط غاضباً.. صرخ.. وفضح مالم نكن نعرفه.. قال وهو يسب: لقد اتفقنا على أنواع السيارات.. من يأخذ هذا النوع ومن يأخذ ذاك.

يالهم من عصابة.. جشعون إلى درجة البشاعة.. يتعاركون على الفريسة كما الضباع.. لقد نهبوا الكويت دون رحمة.. الرأس الأكبر فاز بنصيب الأسد.. نقل صدام السبائك الذهبية.. حملت مروحياته أوراق النقد، وكذلك الآثار والتحف التي ضمتها صالات المتحف الدولي.. وكذلك حذا كل كبار رجال النظام.. حذو حذوَ الرأس الكبير.. حتى الناس العاديون شاركوا.. كل على قدر طاقته.. آثار النهب كانت واضحة.. تجلت في أنواع البضائع المتعددة التي أتخمت بها محال بغداد رغم الحظر الدولي الذي فرض على العراق بعد العدوان على الكويت.. المواد الغذائية

التي أتوا بها من الكويت تكفي للاستهلاك لشهور طويلة قادمة.. وكانت تباع بأسعار رخيصة.

عرفت أن أغلب المحال تأخذ بضائعها من حسين كامل حسن.. لقد كون الرجل أيضاً فرقاً عديدة لنهب الكويت تأتيه بالبضائع.. يتاجر لحسابه.. مليارات الدولارات دخلت خزائن الرجل.

فرق عدى التي شاركت فيها استطاعت خلال مدة وجيزة جمع أكثر من عشرة آلاف سيارة.. مزارع عدى امتلأت جنباتها بالمسروقات.. وكذلك جراجات وساحات النادي الأولمبي.. لم يعد هناك مكان لسيارات جديدة.. الأشياء الثمينة التي جلبتها الفرق الأخرى تعهدها تجار عدى، محمد قرغلي، خالد الكبيسي، زيد كمونة ودريد غناوي ليبيعوها لحساب عدى.. والسيارات أيضاً.. إزدحمت صفحات جرائد بغداد بإعلانات عن مزادات البيع.. أمام النادي أقيمت المزادات.. الدفع يتم بالدولارات.. يقوم عزام بإدارة المزايدة، وأحيانا أنا.. بيعت السيارات المسروقة بأسعار رخيصة.. عدى يجلس بعيداً داخل مكتبه في النادي يراقب المزايدة.. كنا نبيع مايقرب من سبعين سيارة كل يوم.. المتلهفون على الشراء يتغاضون عن بعض النواقص.. سيارات بلا مفاتيح ليس مهماً.. ورش الإصلاح ستقوم بالواجب.. الأوراق وأرقام السيارات كلها مشاكل هينة يمكن تدبيرها.. نافذة جديدة للتجارة.. مقابل مائة دينار تجد من يدبر لك رقماً للسيارة.. ملايين ثمانية جمعناها في اليوم الأول.. طاولة عدى التي يجلس إليها زحمت بالدولارات.. كل يوم مزاد جديد ودولارات جديدة تزحم الطاولة.. عدى لا يغادر النادي.. يبقى فيه طوال ساعات المزاد.. إزدحمت مكاتب النادي أيضاً بسماره ومريديه.. الكل أتى ليشارك في المجون والعربدة.. الخمر تزاحم الدولارات المرصوصة على الطاولات.. أصبحت ساحات النادي ومكاتبه وكراً للعهر..(النساء العاريات يتجولن بلا حياء مع الحراس.) الكل غارق في المجون والعبث.. ما أبشع مايجري، عدى يطلب

من فتاة كانت تعريد وهي عارية أن تصعد إلى الطاولة المزجومة بالخمر وأصناف متعددة من المأكولات.. قفزت الفتاة وسط الضحكات الصاخبة.. أخذت زجاجة من الويسكي، رفعتها إلى رقبتها ليسيل الخمر على جسدها العاري.. رصعت صدرها بالحمص المطبوخ.. أشارت إلى بعضنا ليأتي إليها ويلعق ماعلق بلحمها البض.. ضحكات ماجنة تتابع الألسن التي تلعق في شبق.)

إزدحمت شوارع بغداد بسيارات المرسيدس و BMW .. أصبحت مألوفة وعادية بعد أن كان استخدامها مقصور على رجال النظام.. ومع ازدحام الشوارع ازدحمت خزانة عدي.. حتى 10 أيلول وصلت الحصيلة إلى أكثر من 125 مليون دولار.. وبدأت حمى المنافسة تسود مزادات البيع.. الأسعار تدنت.. رجال حسين كامل يبيعون بثمن بخس.. الشيفروليه بخمسة آلاف، الكاديلاك أربعة وال BMW بثمانية آلاف دولار.. إضافة لذلك يقدمون لوحات الأرقام مجاناً للمشترين.. يعطونهم مكتوباً لوزارة الداخلية لإستلام اللوحات.. معارض سيارات حسين كامل حسن في النهضة وفي منطقة البياع تحولت إلى معارض كبيرة يفد إليها الآلاف للشراء أو المشاهدة.. المنافسة ضايقت عدي.. أمر رجاله بمراقبة رجال حسين كامل.. قادت المراقبة لفضيحة.. حسين كامل النهم لم يكفه هذا الكم الهائل من المسروقات.. جلب إلى مزارعه في تكريت آلات لطبع النقود.. ثمانين مليون دينار عراقي.. أوراق من فئة الخمس وعشرين ديناراً، الخمسين.. والمائة.. أغرق بها أسواق بغداد.. رجال عدي سربوا الحكاية إلى القصر.. أمر صدام علانية في حديث عبر التلفاز بالتحقيق ومتابعة مزوري النقود.. الشرطة تقبض على التجار.. الخيوط تقود إلى رأس الأفعى.. يعرف صدام أن صهره هو الذي يفعلها.. يذهب بنفسه إلى مزرعة تكريت.. يساق إلى الهاوية سبعة رجال من أعضاء جهاز الأمن الخاص.. تنطلق رصاصات متتابعة من مسدس الرئيس لتصرعهم على

التتابع.. يُعلن عبر التلفاز عن إقالة حسين كامل حسن من مناصبه الأربعة.. يفقد مقاعد الوزارات التي هيمن عليها طويلاً.. ويفقد الضمانة الأقوى.. صلة المصاهرة.. يجبره صدام على تطليق ابنته رغد.. الغضبة على الرجل لاتطول.. أيام وتعود المياه إلى مجاريها وكأن ماحدث لم يكن غير زوبعة في فنجان.. تلغي كل الإجراءات التي اتخذت بحقه.. ويعلن الرئيس عبر التلفاز؛ أنه ثبت براءة حسين كامل حسن وتعود المناصب والزوجة.. وثقة الرئيس بالصهر العزيز.

ونعود إلى الكويت: في 28 آب 1990 يعلن صدام أن الكويت أصبحت المحافظة التاسعة عشرة للعراق.. وفي 15 أيلول 1990 يعين علي حسن المجيد حاكماً على منطقة الكويت..

علي حسن المجيد، ذلك المجرم المسمى بالكيماوي الذي قاد هجوم الغاز السام عام 1988 ضد الأكراد في الشمال يمارس دوراً جديداً في الجنوب، ذهب ليردع المعارضين للنظام في المنطقة الجديدة.. أخذ الضوء الأخضر من سيد بغداد ليمارس جنونه الدموي.. أخضع سكان منطقة بأكملها للعقاب بعد أن نقل إليه أن طلقات متفرقة صوبت من مكمن في الحي تجاه دورية عراقية.. إنتزع الجنود السكان من منازلهم في قسوة.. أمروهم بالوقوف إلى الحائط صفوفاً متراصة.. نساء ورجال وصبية، شيوخ وأطفال حصدتهم رشاشات الجنود.. ومن بقوا على قيد الحياة أمروا بنقل جثث القتلى.. تفنن رجال المجيد في ممارسة صنوف التعذيب.. خمسة عشر كويتياً ذبحوا وهم وقوف.. جرت السكاكين على رقابهم متمهلة لتطول مدة الإيلام.. آخرون ظل الزبانية يضربون أقدامهم المعلقة حتى برزت العظام.. حوض ماء مخلوط بالبول والقاذورات يجبر البعض بعد الضرب على الشرب منه.. كل من يضبط ومعه نقود كويتية يوسم بالخيانة ويلقى سوء المصير.. عاثوا في الأرض فساداً.. كل جندي انتصب داخله «مجيد» دموي يتلذذ بإهدار كرامة الناس وتعذيبهم.. عمت

التأوهات والصرخات جنبات البلد الواقع تحت أقدام الاحتلال الثقيلة.. لاأحد يسمع الأنين.. الكل منصرف إلى النهب.. حملاتنا لاقتناص السيارات صارت أعنف.. أصبحنا وحوشاً ضارية.. لم نعد نكتفي بنهب المعارض.. لقد أخليناها كلها.. الآن نترصد السيارات المارة.. نقذف بركابها إلى عرض الطريق.. نأخذ السيارات عنوة.. ولم تعد مهامنا مقصورة على السيارات، أمرنا عدي مرة باقتحام ڤيلا جواهري في منطقة شامية إحدى ضواحي الكويت العاصمة.. قال إن لديه معلومات أن الڤيلا تحوي ذهباً يزيد عن مائة كيلو، إضافة للماس والحلى والساعات.. عندما اقتحمنا الڤيلا وجدنا ما أذهلنا.. وجدنا فرقة أخرى كانت قد سبقتنا إلى هناك .. جثة الجواهري ملقاة على الأرض وسط بحيرة من الدماء.. الرجال واقفون منكبون على حشر النقود في بطن تابوت خشبي.. إنهم رجال علي حسن المجيد، محافظ المنطقة 19، توقف اللصوص لحظة دخولنا.. وتوقفنا نحن أيضاً.. أخذتنا المفاجأة.. لحظات من الصمت المتحفز حتى صك أسماعنا صوت أتى من خلف الرجال اللصوص.. كان صوت سيدهم المجيد.. أمر بطردنا على الفور.. آثرت الانسحاب برجالي.. تحاشيت معركة مع الكيماوي.. استدرنا لنخرج في اللحظة التي كانوا هم أيضاً يوشكون فيها على الرحيل.. انتهوا من جمع مجوهرات المقتول، أوسدوها بطن التابوت ولفوه بالعلم العراقي.. عرفت بعد ذلك بقية القصة من حراس عدي.. نُقل التابوت في صحبة الحراس إلى بغداد على اعتبار أن العائد جثمان شهيد وقع في ساحة الواجب.. واستقر التابوت ليدفن الشهيد ـ الماس والذهب ـ في خزانة المجيد المخبوءة في مزرعته على أطراف بغداد.. ولقى اللصوص رجال المجيد جزاء سنمار.. الضابط والجنود الثلاثة الذين رافقوا التابوت شنقوا.. علقت جثثهم في الشارع العام ليطالعها المارة.. وأعلن أنهم لصوص ضبطوا وهم يسرقون جواهرياً في الكويت، المحافظة 19.. وبث التلفاز صورهم

ومعها خبر يحذر اللصوص والمجرمين.. المجيد يحذر: كل من يضبط وهو يسرق سوف يعدم على الفور وبدون محاكمة.

حتى ساجدة.. أم عدي.. حراسها ذهبوا إلى هناك ليأتوها بنصيب من الكنز.. شاحناتهم امتلأت بالمرمر الذي تحتاجه المرأة لبناية جديدة أنشأتها بالقرب من فندق بابل أوبروي.. مرمر للأرض والجدران.. للمحلات التي تشغل الطابق الأرضي.. والتي أُجِّرت بعد الانتهاء الواحد بمايقرب من ثلاثمائة ألف دينار.

فرقنا تواصل مهام النهب، ومايجري على الجانب الآخر لانعرف عنه إلاّ ماياتينا عبر إعلامنا، لاعلم لنا بالعاصفة التي تتجمع هناك في الصحراء السعودية لتهب صوب الشمال.. الهواجس تجتاح الناس في بغداد لكن لاأحد يعرف بعد ماهو آت.. الزيف الذي يتدفق من إعلامنا يملأ الأفق حولهم بالسراب الخادع.. تهديدات صدام الصاخبة تجاه إسرائيل، رهائن الغرب في العراق تلك الورقة التي يلوح النظام بها في محاولة لكبح العدوان تأتي إلينا ببعض الطمأنينة.. رهائن أسماهم صدام بالضيوف.

عملنا الشائن زكمت رائحته أجواء بغداد.. الصحفيون الأجانب نقلوا عبر رسائلهم إلى خارج أسوار العراق تفاصيل مخزية عن جرائمنا في الكويت.. وحاول النظام تقييد حركة هؤلاء المراسلين.. إلا أنهم نجحوا في اقتناص الحقيقة.. السيارات المنهوبة التي يتاجر فيها أقطاب النظام تزحم شوارع بغداد.. المحال زاخرة بأصناف فاخرة من كل شيء نهبه لصوص النظام وباعوه للتجار.. امتلأت صحف الغرب بأخبار وقصص لصوص بغداد وفضائحهم.. ويختلق النظام عشرات الروايات ليمنع سيل الانتقادات لما يجري.. يحاول أن يرتق الخروق التي برقشت ثوبه الآخذ في الاهتراء.. الإعلام العراقي يبث الأكاذيب في محاولة يائسة ليستر عورة النظام.. يقول إن البضائع أتى بها اللاجئون الذين فروا إلى بغداد

وياعوها في الأسواق.. لكن الإعلام غير قادر على ملاحقة ماتجيش به الصدور.. رأس النظام منزعج من اتساع رقع ثوب نظامه في وقت يحتاج فيه إلى تماسك خيوط الثوب.

الخطر يحيق بالجميع بعد أن اهتزت قبضة النظام.. أحسه يطولني .. لم يعد دوري مستوراً.. لم تعد مهمتي كبديل خافية.. حماقة عدي واستهتاره جعلاني في دائرة الخطر.

الفتى أصبح يدرك أن بديله أصبح محروقاً.. وصلتني مصادفة بعض أفكاره التي حاور فيها عزام بشأني .. سمعته يقول للرجل: أفضل حل، تقتل لطيف وتغرق جثته.. قال له عزام: موت هادىء.. لا يصل بنا إلى حل.. الناس لن تتوقف عن الكلام، وسمعتك لن تتحسن سيدي.. كنت على مقربة في الغرفة المجاورة أسمع عبر الباب المشرع حديثهما.. رياح الخطر المحدق تدور حولي.. موزع أنا بين القلق والطمأنينة.. يحتاجني الفتى لأستمر في أداء دوري مما يحملني على الاعتقاد أن غدره لن يطول رقبتي.. لكن مخاوفي من دفعي لأكون كبش فداء قائمة وتشغلني.. بعد يوم من ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين عزام استدعى الفتى مدربي، واستدعى أيضا الضباط الذين شاركوا في إعدادي.. جمعهم ليجدوا له حلاً لإخراس الهمسات التي تدور وتزحم البلاد.. أتى بهم ليصنعوا جداراً يحصنه ضد ريح الانتقادات الآخذة في الإزدياد.. جاء منعم حمد.. وآخرون بينهم شكر التكريتي.

شُكر الضابط في جهاز الأمن الخاص انبرى ليشرح مايراه لمواجهة الأمر.. قال إن لديه خطة ناجعة، وأخذ يشرحها في إسهاب.. تحلقناه لنسمع تفاصيلها.. حدق في عدي وقال له: أنت لديك سلطة على وسائل الاعلام.. الجرائد والتلفاز.. أليس كذلك؟

عدي: نعم.

شكر: بواسطتها نقدر أن نخلصك من المشكلة.. ويتابع.. أنت لم تظهر

في الأماكن التي قالوا إن السيارات نهبت منها.

علامات الحيرة والارتياب تجتاح عدي.. يهز رأسه ويسأل: ما علاقة ذلك بالخطة.. سارع شكر بالإيضاح.

شكر: مهلاً.. سوف أشرح كل شيء.. أنت لم تذهب إلى الكويت.. لم تسرق أي شيء.. ولم تبع أي سيارات.. لا أحد رآك تفعل.

لم نكن قادرين على الإمساك بخيوط ما يصبو إليه الرجل.. لكن شيئا فشيئا تحل العقدة وتتكشف ملامح الخطة.

قال شكر وهو يشير إليّ: عبر شاشة التلفاز يعترف لطيف.. يقول أنه لطيف يحيى، وإنه هو الذي ارتكب كل الجرائم التي نسبها المغرضون إلى عدي.

عليّ أن أعترف أني استغليت الشبه بيني وبين ابن الرئيس، أعترف أني خدعت الضباط ونقلت مئات السيارات إلى بغداد.. وتماديت.. قمت ببيعها.. عليّ أن أظهر في صورة المجرم.. أن أكون كبش فداء.. أن ألطخ سمعتي بالأقذار ليَظل ثوب ابن الرئيس أبيض. يالهم من مجرمون.

عدي موزع بين الذهول والفرح.. والمتحلقون الآخرون كذلك.. لحظات صمت قصار.. أغرقوا بعدها في ضحكات عالية.. أمطروا شكر بالمجاملات.. قالوا له إن خطته أكثر من رائعة.. لقد وجد لهم مخرجاً.. وأي مخرج.. قفز عدي إلى التكريتي وعانقه.. طبع ثلاث قبلات على خده.. قال: أخي هذا رائع.. حقاً رائع.. سوف نبث اعتراف المخادع لطيف يحيى عبر التلفاز ونورده في كل الصحف.. العالم كله يجب أن يعرف أن مخادعاً أفاقاً أساء إلى شرفي ولطخ سمعتي.. وابتسم في خبث.

إستدار إليّ.. ربت على كتفي؛ قال ضاحكا: سوف نحكم عليك بالإعدام لطيف.. سوف تلعب اللعبة معنا.

وكان عليّ أن أشاركهم لهوهم العابث.. قدري أن مصيري مرهون

بإرادتهم.

في اليوم الثاني انهمكوا في الإعداد لوضع الخطة موضع التنفيذ.. حولوا شقتي في عمارة الحياة إلى استوديو تلفزيوني.. دفع إليّ شكر التكريتي بنص الاعتراف لأردده في مواجهة الكاميرات المنصوبة:

«أنا لطيف يحيى لطيف.. مولود في 14 حزيران 1964، استغليت شبهي بعدي صدام حسين لأسرق بضائع من الكويت بإسمه وأبيعها في بغداد، ولكن في الحقيقة فعلت كل ذلك لنفسي، حصلت النقود لحسابي وليس لحساب عدي صدام حسين، عدي بريء، هو أشرف إنسان على الأرض».

قالوا إنه عليّ أن أردد النص.. أتمرن على إجادة النطق بكلماته.. وقالوا إن ذلك يحتاج إلى اثنتي عشرة يوماً.. مضحك هذا.. لقد حفظت النص بعد عشر دقائق.. تسجيلات عديدة أجريناها.. أجلسوني على كرسي وخلفي جدار رصاصي.. أتلو الاعتراف وأنا في ملابس عدي.. حرصوا أن أكون على هيئته ليكون الخطاب مقنعاً.. دفع إليّ عدي بسيجاره الضخم.. قال إنه يجب عليّ أن أنفث الدخان وأنا أتلو الكلمات.. وأن أجلس كما اعتاد أن يجلس.. أن أحرص على محاكاة لوازمه وحركاته.. تابعني عدي وأنا أتدرب على طريقته في القبض على سيجار الهافانا.. فعلت ذلك أكثر من مرة.. أعدنا التسجيل مرات ومرات.. عدي يعترض كثيراً.. لم تعجبه طريقتي في القبض على السيجار.. يريدني أن أسترخي على المقعد أكثر.

9 تشرين ثان، 1990، جاء اسماعيل الأعظمي الحلاق الخاص لعدي ليشذب ذقني ورأسي.. وجاء بعده جاسم ومعه الحلة التي سوف أرتديها.. بعد ساعة أصبحت جاهزاً.. أجلسوني على الكرسي في مواجهة الكاميرا.. أشار الرجل الواقف خلفها إشارة البدء.. حدقت في الكاميرا وبدأت.. رغم الهدوء الذي حرصت أن يطبع ملامحي، أصابتني مواجهة

الكاميرا بالاضطراب فأخطأت «أنا، لطيف يحيى لطيف، مواليد 18 حزيران 1964.. من بغداد..» قاطعني التكريتي في حدة: مغفل، يوم 18 حزيران لم تولد أنت بل ولد عدى.

ضحكنا وعاودنا التسجيل.. لم أخطيء هذه المرة.. قمت بدورى بشكل جيد.. أديت بدقة وفق السيناريو المعد.. وكنت طبيعياً.. لاقلق.. هادىء ومسترخ.. لاعلامة واحدة تدفع إلى الظن أني أعترف بفعل إكراه.. وتوقفت الكاميرا عن الدوران فتركت كرسى الاعتراف.. تهالكت على إريكة في الزاوية.. دارت بيَ الأفكار وتنازعتنى الخواطر.. ماذا فعلت بنفسك يالطيف!!.. جرّمت نفسك علانية.. تماديت فى الطاعة.. غرقت في بركتهم الآسنة.

11 تشرين ثان، 1990، توقف المذيع الشاب عن تلاوة نشرة الأخبار الرئيسية.. قال: لقد جاءنا الآن خبر هام.. قال ذلك بطريقة لبقة ليبدو مقنعاً .. وأخذ في سرد الخبر.. جلست أتابع ملامحه الجادة مترقباً.. قال إنه في الأيام الأخيرة ألقى القبض على مجرم من بغداد يدعى لطيف يحيى لطيف، ابن تاجر كبير في بغداد.. ألقى القبض عليه بعد أن اتضح أنه المسؤول عن تهريب البضائع المسروقة من الكويت والمتاجرة فيها.. إستغل شبهه بابن الرئيس ليقوم بعملياته الإجرامية، لقد لطخ اسم عائلته.. وأكثر من ذلك اسم الابن الأكبر للرئيس.. وتوارت صورة المذيع لتتصدر الشاشة صورتى.. وتنطلق كلماتى.. إعترافى بالجرم.

إلى جوارى جلس شكر التكريتي.. وعدى، وحراسه.. تابعوا وتعالت ضحكاتهم.. إرتجت جنبات المكتب رقم سبعة بالقهقهات الماجنة.. عاد المذيع يتصدر الشاشة من جديد.. ليكمل بقية الخبر.. قال والجهامة مرسومة على محياه: لطيف يحيى لطيف تسبب بجرمه في الإساءة إلى شرف عدى صدام حسين.. لذلك حكم عليه بالإعدام شنقاً.. وسينفذ الحكم في الأيام القادمة.

تحسست رقبتي.. وأنا أرقب عدى والحراس، أرقب نشوتهم بالملهاة التي أعدوها.. أخذت أفكر طويلاً كيف سيكون وقع الخبر على أسرتي .. بالكارثة.. إبنهم الأكبر يلطخهم بالعار.. يأتيهم بالخزى.. ربما هم هناك الآن متحلقون حول التلفاز يشهدون البلية.. أو ربما أخذت الهواتف المعزية تتلاحق لتدق رأسهم الموجوع.

لقد غيبوه عنهم طويلاً.. الآن يصمونه بالخزى.. يلطخون اسمه بالعار.. يذهبون به إلى النهاية مدموغاً بالخيانة.. أيتها الأم الحنون كيف أنت الآن؟! أى آلام تعصف بفؤادك.. وأنت أيها الحكيم.. أى دمار سوف يلحق بك وبتجارتك من جراء ذلك.. لك الله يا أبي.. ما أتعسكم إخوتي.. دموعكم من يقدر على تكفيفها.. كيف ستواجهون النظرات القاتلة.. كيف.. كيف؟! ما أهول الألم على نفسى وعليكم.

مجرم أنا.. نعم.. لقد شاركت.. قدت الحملات لحساب عدى.. وفي بعض المرات اقتنصت لنفسي عدة سيارات.. لم يعرف عدى، أو عرف ولم يهتم.. ولم أشعر ساعتها بندم.. كنت مساقاً برغمى في طريقهم الآثم.. لكنى الآن أدرك حجم البشاعة.. والخزى الذى أنا فيه غارق.

سألت عدى: وماذا بعد؟! ماذا بعد المسرحية؟!

قال وهو يهم بالرحيل: سوف يُعلمونك بذلك.

وعدت أسأله والقلق يحتوينى: هل أستطيع أن أعلم أهلي أنى لازلت على قيد الحياة.

قال بحسم: لا.. لن تغادر بعد الآن القصر.. عليك ألاّ تبرح شقة عمارة الحياة.

علامات القلق تحوم حول رأسى.. اتسعت دائرة الخطر.. أدلف سريعاً إلى قبو مظلم.. ميت أنا الآن طبقاً لروايتهم الرسمية.. حياتى ووجودى استحالا إلى عدم.. أحاول أن أبدد سحابات القلق الذي يغشانى.. أقول لنفسى.. لقد نسجوا عشرات القصص على هذه الشاكلة.. لكن الشعب

الفطن يدرك أنها مجرد قصص ينسجها اللئام لتبييض وجه نظامهم القبيح.. والعالم أيضاً.. لا أحد يصدق رواياتهم.. كل ناس العراق تعرف أن عدى يتجر في كل شيء.. لن يَخيل عليهم أن واحداً مثلى مهما بلغ عظم مكره قادر على القيام بكل تلك العمليات الواسعة ولأشهر.. كيف قدر على ذلك وغفل عدى.. عيونه المبثوثة في كل مكان لاتفوتها شاردة أو واردة.. أطمئن إلى أفكارى.. أطمئن إلى أن أهلى لن يصدقوا الرواية التلفزيونية.. تنتابنى رغبة جامحة في الفرار.. الخروج من عالمهم.. لكن تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن.. ولا تسير الأمور في المسار الذي أرغبه وأتمناه.



14 القذائف تتساقط

○ الليالي تمضي متثاقلة.. ضيقوا الخناق عليّ بعد المسرحية التلفزيونية.. يحوطني الحراس جُلّ ساعات اليوم.. إنقطعت عن العالم.. لاأعرف مايدور حولي.. إلاّ النذر اليسير الذي يتسلل عبر شفاه الحراس المطبقة.. لم أعرف بتسارع الأحداث.. قال لي الحراس أن الرهائن الأجانب أطلق سراحهم.. وإن الأمم المتحدة الواقعة تحت النفوذ الأمريكي وجهت إنذاراً للعراق.. حددت يوم 15 كانون الثاني 1991 موعداً أخيراً لإنسحاب جيشنا من الكويت.. توعدتنا أن قوات الحلفاء سوف تحرر الكويت بالقوة إذا لم نستجب وننسحب في الموعد المضروب.. الحراس يرددون كالببغاوات كلمات النظام.. يرفعون كلاشينكوفاتهم ويهددون.. يقولون عبارات لامعنى لها «سوف نخنق كل جندي أميركي يقع تحت أيدينا» «إذا هاجمنا بوش سوف نلقنه درساً.. سوف نُفهم هذا المتوحش أننا قادرون على كسب أم المجازر».. عبارات جوفاء لامعنى لها.. كيف لهؤلاء الحمقى مقاومة جيوش جرارة أتت من كل العالم.. ألم تكفهم مآسي حربنا مع إيران.. علامات الفاقة.. الثكالى والأرامل.. لاأحد يريد مأساة جديدة.. حرباً أشرس وأكثر اتساعاً.. لاأحد يريد الجحيم القادم.. فقط وحده النظام الغارق في الغطرسة والبلاهة.. النظام المقامر بمقدرات شعب فرض عليه الخرس.. أعزي نفسي أن صدام سوف يسارع إلى الانسحاب في الدقائق الأخيرة ليتفادى المذبحة الدامية.. هو مثل لاعب البوكر.. يخادع.. لكنه يتراجع في النهاية.. يعرف أن أوراقه هي الأسوأ.

حتى الحراس ببغاوات النظام.. يتسلل القلق إلى ملامحهم مع تسارع الأحداث.. يسألونني في توجس «يتحدث الغرب عن أرقام هائلة.. تقول وسائل إعلامه إن أكثر من نصف مليون جندي عراقي متمركزون في الكويت مع آلاف الدبابات، ومعدات جديدة.. أنت كنت في الكويت، كيف كان الوضع هناك؟!».

قلت ما أعرفه: ماأعتقده وفق مشاهداتي وأنا هناك.. أن جنودنا أقل بكثير من الأرقام التي يُروج لها في الإعلام الغربي.. قد لا يتعدون ربع مليون.. فضلاً عن ذلك يغشاهم الإحباط ولارغبة لديهم في قتال يدركون أنه سبيل إلى كارثة محققة.. قلت ذلك وأنا أعرف أن ماأقوله قد يدفع بي إلى التهلكة.. لكن علامات التوجس البادية على الحراس بددت حذري وخشيتي.. أدركت أنهم مثلي قلقون وخائفون من المجهول القادم.. تجول في رؤوسهم نفس أفكاري.. وتشغلهم نفس هواجسي.

جمعتني الصدفة بمنعم حمد أمام عمارة الحياة.. قابلته بترحاب وصافحني في مودة.. سألني عن أحوالي.. شكوت له وحشة التعطل وقيود العزلة.. كاشفته برغبتي في الحصول على مهام جديدة.. قلت إنني لم أعد أطيق البقاء هكذا.. هز رأسه.. أطرق قليلاً ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس وتشوبه رنة حزن: سوف تأتي المهام متسارعة.. وفي وقت ربما لايروقنا.. قال ذلك ومضى.. عبارته الغامضة زادتني قلقاً.. ماذا في جعبة الرجل؟! كلماته موحشة وقابضة.

أخذت الأيام تتوالى، والأقاويل تجري على ألسنة الحراس.. تنقل إليّ مايفك طلاسم كلمات منعم القلقة الموحشة.. عائلة صدام رحلت بعيداً عن الخطر.. حملتها السيارات إلى الأردن.. قوافل ولت بهم متتابعة في غبشة الظلام.. قافلة عدي وحراسه.. ساجدة والبنات.. حتى عائلات الوزراء

ورجال الحزب سارعت بالفرار.. إلى الجزائر ومنها إلى البرازيل.. وبعضهم إلى موريتانيا.. قالوا إن عدي لم يمكث طويلاً في البرازيل.. ذهب إلى جنيف إلى جوار عمه برزان التكريتي.. روايات الحراس أجمعت على رحيل العصابة.

لم يبق في بغداد غير صدام وقصي.. الفرار الكبير هذا أكد لي أن الحرب قادمة.. المفاوضات التي أجراها وزير خارجيتنا طارق عزيز في جنيف مع السكرتير العام للأمم المتحدة بريز دي كويار تعثرت.. عناد قادتنا يدفع إلى الكارثة.. صدام يرفض الانصياع للإرادة الدولية.. يدق طبول الحرب.. يهدد ويتوعد.. يقول إنه في حال هجوم الحلفاء سوف تدك صواريخه اسرائيل.

تجتاحني المخاوف على أهلي.. إلى أين يذهبون.. بغداد لم تعد آمنة.. لاملاجىء كافية.. ماهو صالح منها يخصصه النظام للعملاء وأعضاء الحزب.. تمنيت أن يذهبوا عند أقاربنا في الشمال.. أو إلى أحد فنادق الضواحي.. جلست إلى واحد من حراسي.. كان مهموماً وقلقاً على أهله أيضاً.. قال إن والده يرى أيضاً أن العراق غير قادر على تحمل حرب جديدة.. وإن لافرصة للنجاة.. قال والده إن الأمريكيين والاوروبيين سوف يدمرون البلد.. قال الحارس إن أهله حاولوا الرحيل إلى عمّان لكنهم عجزوا عن استخراج الأوراق التي تسمح بالرحيل.. وأطرق حارسي حانقاً ومهموماً.

16 حزيران 1991.. نذر العاصفة تتجمع في الأفق.. لحظات وتنتهي المهلة التي حددها إنذار المجتمع الدولي.. جاء الحراس إلى جواري.. جلسنا نرقب التلفاز.. ألصق أحد الحراس راديو ترانزستور إلى جوار أذنه يحاول التقاط محطة خارجية.. لم ينجح في إلتقاط غير لحظات

قصيرة من إذاعة مونت كارلو.\ حاولنا أن نلتقط محطة «C.N.N» على التلفاز ففشلنا/ ليس أمامنا إلاّ الاستماع إلى إذاعة وتلفاز العراق.. مذيع النشرة ينقل لنا تأكيدات الرئيس القائد: الشعب العراقي سوف يقضي على البغاة.. لم يعد بوسعنا سماع المزيد من الكلمات الجوفاء.. الكارثة تزحف سريعاً في الأفق.

المخاوف تدفعني للسؤال.. أين الملجأ.. يطمئنني حارس أننا لن نبقى في عمارة الحياة إذا حدث هجوم.

لم نكن نملك غير الانتظار والحملقة في الجهاز البغيض.. تابعناه مكرهين وهو يبث صوراً متتابعة لمظاهرات التأييد وهي تصرخ.. آلاف متدافعة حشدها النظام تحمل صور صدام القائد.. فليسقط بوش.. فليسقط بوش.. جعيرهم الخاوي.. المعاد والمكرر يصيبني بالغثيان.. حمقى يجهلون مايدور على الساحة.. لايعرفون أن أسرة قائدهم المغوار ولّت هاربة.. ولّت وتركتهم ليكونوا ضحايا الجحيم المقبل.

تتعالى خفقاتنا مع دوران عقارب الساعة المعلقة على الجدار.. يقتلنا الانتظار والترقب.. أخذتنا السؤالات بعيداً.. ماذا لوصدقَ صدام في وعيده وأطلق صواريخاً على تل أبيب.. هل سترد إسرائيل على هجوم الغاز بسلاحها النووي.. عند السابعة تماماً دق الهاتف.. أمسك أحد الحراس بالسماعة.. راقبناه .. إبيضّ وجهه وقفزَ صارخاً: يجب أن نغادر إلى الملجأ سريعاً.. رجال مخابراتنا في السعودية حصلوا على معلومات مقلقة.. تحركات مكثّفة في مطار الظهران.. ربما تقصف بغداد الليلة.

هرولنا إلى أسفل.. قطعنا المسافة بين المدخل والملجأ في لحظات.. أضواء باهرة في ساحة القصر.. أي جنون هذا.. لماذا تركوا كل هذه الأنوار إذا صحت المعلومات التي جاء بها رجالهم المبثوثون في الطرف

الاخر.. بالتأكيد سوف يكون القصر أول مايستهدف بالقصف.

جلسنا هناك في أركان الملجأ.. ستة عشر رجلاً يحوطهم القلق.. ساعات طويلة من الانتظار القاتل.. عقارب الساعة تشير إلى تمام الثانية وأربعين دقيقة.. هزات متتابعة ارتجت لها جدران الملجأ.. رائحة البنزين تخرق أنوفنا.. لن نخرج من هنا أحياء.. تمتم بها مجاوري.. وتسللت عبارته الملتاعة إلى داخلي.. تكومت إلى الجدار وأخذت أبسمل وأحوقل.. لازالت أصوات الانفجارات تصل إلى مسامعنا.. الملجأ الحصين الذي نحن فيه قالوا إنه قادر على الصمود حتى في وجه ضربة نووية.. أخذنا نشغل أنفسنا بتخمين المواقع التي تصيبها الانفجارات وفق قوة كل هزة.. هذه غارة قريبة.. بالتأكيد ضرب الآن مقر الحرس الخاص.. هذه أبعد ربما كانت تدك المشروع ألفين المقر الرئاسي لصدام.. كل خمس دقائق تأتي هزة جديدة.. ومعها يزداد خوفنا وشعورنا بالاختناق والألم.. حاول البعض أن يقاوم.. ضحكات ومزحات مصطنعة علّها تخفف الاختناق الذي يأسرنا.. زاد من انقباضنا انقطاع التيار الكهربائي.. فتشنا علّ البناة الفرنسيين نصبوا محولاً للطوارىء.. لم نجد أثراً يدل عليه.. سخر حارس من هؤلاء البناة.. قال إنهم مهملون وبخلاء.. ولصوص أيضاً.. سبهم.. قال وهو يسخر في مرارة: وربما أيضاً سرقوا بعضاً من الأسمنت المسلح.

بقينا فى الملجأ حتى الخامسة صباحاً.. توقفت الانفجارات .. وساد الهدوء.. انفرجت أساريرنا قليلاً.. وعدنا إلى تبادل الحديث.. نحاول أن نبدد بالكلمات ظلام الملجأ.. أتى ضابط إلينا.. أمرنا بالتخلص من حللنا العسكرية.. الجنود الذين أتوا في رفقته أعطونا الدشاديش.. إرتديناها وغادرنا الملجأ.. خرجنا من الجُب الخانق إلى الفضاء.. إلى فضاء تزحمه

سحابات الدخان.. لتزكم أنوفنا رائحة الحريق.. أتطلع صوب القصر.. لابد أن كل شيء أصبح حطاماً.. قال الضابط الذي جاء ليرافقنا: ليس كل شيء.. المشروع رقم ألفين فقط.. دكته القنابل التي انهمرت كالسيل.. صعدنا إلى ناقلة عسكرية كانت تنتظرنا، غادرت بنا مسرعة ساحة القصر.. أقلتنا إلى منطقة الدجيل.. ستون كيلومتراً بعيداً عن بغداد.. لم نجد آثاراً لدمار.. منازل في صفوف منتظمة.. لاتدل هيئتها على أنها منطقة عسكرية.. بيوت عادية .. أدخلونا إلى واحد منها.. أسفل كل بيت ملجأ له مدخل خارج البيت.. الأشجار الكثيفة تخفي الممرات الواسعة ومداخل الملاجيء.. مكثنا في المنطقة الآمنة حتى بداية شهر شباط.. أسرّ لي حارس بمايعرف.. قال إن صدام موجود في المكان.. قال أن القائد يختفي في واحد من بيوت الدجيل.. قافلة صغيرة تتألف منها رفقته.. أربع سيارات عادية.. لاحاشية ولامظاهر ملفتة للنظر.. بعد أيام ثلاثة قال الحارس: لقد غادر القائد المنطقة.. غادر كما جاء بهدوء.. إلى أين لم يكن الحارس يعرف.

نهاية كانون ثان 1991، الطائرات المعادية لازالت تحوم في السماء.. إعتدنا سماع الانفجارات البعيدة.. لم يعد الخوف يجتاحنا.. إعتدنا جو الحرب.. سمعنا قبل أيام أن صدام زار الفرق المرابطة في الكويت رغم كثافة الغارات.. الطائرات الأمريكية تحوم فوقنا على ارتفاع عالٍ.. وسائل دفاعنا عاجزة عن إعتراضها.. عولنا على رداءة الجو.. جعلناه حليفنا.. عندما يسوء تقل الغارات الجوية ونتنفس بعض الصعداء.. كنا نمضي أوقاتنا نرقب السماء ونتشوف لمعرفة مايجرى.. تنفرج أساريرنا كلما جاءنا أن صواريخنا السكود انطلقت لتضرب أهدافاً في السعودية أو إسرائيل.. ترتفع معنوياتنا قليلاً.. ويُحدِّث من يأتي إلى مكمننا أن

جنودنا كذلك يفرحون عندما تدك صواريخنا التي تنطلق بين حين وآخر مواقع في جبهات الأعداء.. جبهات الأمريكان والصهاينة.. والفلسطينيون هناك أيضاً تتعالى زغاريدهم مع كل صاروخ يهبط على رؤوس المحتلين.. يصعدون إلى أسطح منازلهم ليشاهدوا مسارها.. تتعالى صيحاتهم الفرحة.

لحظات فرحنا قصيرة ولاتدوم طويلاً.. كل يوم يأتينا بماهو سيء ومحبط.. الهجمات المتتابعة تحصد إلى جانب الجنود الآلاف من السكان الآمنين.. تدمر مدننا وقرانا دون أن تلقى من يردعها.. الجنود هناك قابعون ينتظرون المجهول في كل لحظة.. تتهاوى الملاجيء ليدفنوا في جوفها أحياء.. أو يقبرون في العراء.. ونسمع أن جنودنا في الكويت يعانون من يأسٍ قاتل.. طرق الإمدادات إليهم تمزقت تحت وطأة الغارات.. ويموتون أكثر من الغم عندما تبث الإذاعات الغربية أخبار عائلة صدام التي ولت بعيداً عن الخطر.. وتغيظهم الأخبار التي يسمعونها عن لهو العصابة في المنتديات خارج حدود الوطن.

28 كانون ثان 1991، جاء روكان التكريتي أحد المقربين من صدام ليصحبني، أخذني إلى ملجأ آخر.. قطعت بنا السيارة مسافة لاتتعدى 20 كلم بعيداً عن المطار الدولي.. ملجأ حصين مشيد بين مساكن خاصة تحجب مداخلها أشجار عالية.. المكان هاديء.. ولاآثار تدل على أن الغارات المعادية عرفت طريقها إليه.. صحبني مرافقي إلى بطن الملجأ.. وكان بالغ الاتساع.. في ساحته الأمامية تربض طائرتان من طراز ميج 29 وعدة ناقلات عسكرية.. تجاوزنا الساحة وأربع غرف لها أبواب من الحديد المطلي بلون أحمر قان.. هبطنا بضع درجات إلى طابق سفلي.. كان في استقبالي حراس متجهمون.. أخضعوني لتفتيش دقيق..

تحسسوا ملابسي.. غاصت أصابعهم في أعضائي.. بعدها قادوني إلى غرفة اجتماعات واسعة.. طاولة تشغل وسط الغرفة وحولها.. صفت الكراسي في نظام.. وسادات الكراسي الخضراء تقلل من وحشة المكان.. جلت ببصري أتعرف أكثر على جنبات الغرفة.. باب جانبي مشرع يقود إلى غرفة أخرى.. غرفة ممتلئة إلى آخرها بتجهيزات إلكترونية.. كمبيوترات وهواتف.. أغلق روكان الباب وتركني أنتظر.. استدرت عندما انفتح باب القاعة ثانية.. دخل قصي صدام حسين وتبعه حسين كامل حسن.. ثالثهم كان القائد.. صدام.. أربكتني المفاجأة.. تطلعت إليه وأنا واقف غير قادر على امتلاك لجام نفسي.. جلس الرئيس إلى الطاولة.. وإلى يساره جلس حسين كامل.. وجاوره من اليمين ابنه قصي.. وقفت أتطلع إليه.. إلى صدام.. عينان ذابلتان.. ووجه منتفخ.. يده الملقاة على سطح الطاولة ترتجف قليلاً.. نظر فجأةً إليّ دون أن ينبس ثم أطرق.. ثم عاد وعاود النظر.. جاءني صوته المشوب بالهم.. وجه إليّ الخطاب وهو يتملاني بعيون زائغة: أريدك أن تذهب مع حسين كامل إلى الكويت.. عليك ياولدي أن تقوم بواجبك جيداً.. كلماته الهادئة الوقورة المشوبة بالحزن انسابت إلى داخلي.. واستدار قليلاً إلى قصي .. حطت يمناه على كتف الفتى وهو يشرح له هامساً بعض ما يدور في خاطره.. تمنيت أن تطول وقفتي لأطالع الرجل أكثر.. لكن روكان قادني الى الخارج.

29 كانون ثان، عند التاسعة مساءً تحركت قافلتنا في طريقها إلى الكويت، ثلاثون مرسيدس ليموزين سوداء تتابعت على الطريق.. سارت برفق.. أطفأ قادتها الأنوار طلباً للأمان.. السيارة الأولى تقود القافلة.. بين حين وآخر يشعل سائقها ضوء مصابيحها الأمامية ليتبين الطريق لحظات ثم يعود فيطفئه.. السيارات الأخرى تهتدي بضوء خافت يأتيها

من السيارة القائدة.. نستعين بضوء القمر معظم الوقت.

يرافقنا، أنا وحسين كامل خمس وسبعون حارساً.. سياراتنا تنساب في هدوء على الطريق.. ألمح عبر زجاج السيارة الأمامى ضوء باهر يسطع في الأفق البعيد.. ضوء حرائق تتصاعد من المعسكرات التي دمرتها الطائرات.. وصلت قافلتنا مع ساعات الصباح الأولى إلى مشارف البصرة.. دمار كامل يدمى القلب.. بيوت المدينة وطرقاتها تعمها الفوضى ويطبعها لون الدخان.. ولاأحد هناك.. وكأن سكانها هجروها.. تابعنا إلى صفوان حيث المقر الجوى الكبير على الحدود مع الكويت.. وصلنا إلى هناك.. إنحرفت سياراتنا في طريق جانبى لتصل بنا إلى معسكر قريب من المقر الجوى.. سويت هندامى.. حلقتى السوداء.. وارتديت الريبان.. لأبدو في هيئة عدى.. هيئة ابن الرئيس.. قادة المعسكر كانوا في استقبالنا، قادونا إلى مواقع قتال تحت الأرض.. محصنة بشكل جيد.. لم تتأثر كثيراً بالقصف رغم أنها تعرضت له طوال الأسبوعين الماضيين.. إنشغل حسين كامل مع قائد المعسكر ليسمع مايقوله حول وضع المعسكر.. أحوال الجنود.. أخذ يتملى وثائق وخرائط ازدحمت بها الطاولة.. وحرص قائد المعسكر وضباطه على تزويق وضع معسكرهم.. لم يصرحوا بمعاناة جنودهم وقلة الإمدادات التي تصلهم.. تعرضهم بين حين وآخر إلى جانب القصف لهجمات يقوم بها رجال المعارضة الشيعة.. المصورون الذين جاؤوا معنا نشطوا في توجيه كاميراتهم ليسجلوا تجوالنا في جنبات المعسكر.. صوروني بكاميرات الڤيديو.. صوروا عدى وهو يتناول الشاى مع الجنود.. لقد اختاروا جنوداً ليقوموا بالدور أمام الكاميرا.. منحوهم ملابس جديدة.. أمروهم أن يغتصبوا الابتسامات.. أوقفونى أمام اللاسلكى وقرب مضاد للطائرات.. وأجلسونى على مائدة

لأتناول الطعام مع جنود المعسكر.. جعلوا الجنود يصرخون أمام الكاميرا.. يهتفون في استقبالى.. استقبال ابن الرئيس.. صدام.. صدام.. يعيش صدام ويسقط بوش.. جعلوهم يرددون كلمات جوفاء خاوية.. وقفت فى مواجهة الجنود ألقى خطاباً أعدوه لى سلفاً.. وكلماتى أيضاً.. كانت مجرد كلمات لرفع معنويات الجنود.. أخذت أنعتهم بالمغاوير.. أسودنا الشجعان.. لمحت بين صفوفهم وجه صديق.. خضنا معاً معارك 1987 على الجبهة.. إلتقت نظراتنا.. بادلته الابتسام.. لم تضلله هيئتى المستعارة.. تمنيت أن أندفع نحوه وأعانقه لكنى أحجمت.

ليلتنا التالية قضيناها فى مدرسة تبعد عن البصرة بعدة كيلومترات.. حسين كامل حسن يحاول أن يتجنب البصرة لنتفادى الخطر بعد تعرض المنطقة أيام متتالية للقصف المتواصل، ولنتجنب أيضاً غارات الشيعة التى تستهدف معسكرات الحرس الجمهورى.. قضينا ليلة هادئة أنا وسبعة عشر حارساً بعد أن غادرنا حسين كامل إلى بغداد برفقة الحراس الآخرين.. سافر ليقدم للرئيس الوثائق التى أخذها من قادة المعسكر الذى زرناه.. جلست إلى فراشى أطالع الصحف التي جاءتنا من بغداد.. طالعت صورتى تتصدر معظمها.. تطلعت إلى صورتي وأنا واقف بين الجنود.. وإلى العناوين التي تتحدث عن بطولة عدى: عدى الابن الأكبر للشعب يقاتل مع الفرقة الشجاعة ضد العدو الأمريكي الإمبريالي.. شعارات.. شعارات لاجانب لها من الحقيقة.. صور مضللة وكلام خادع يثير في النفس الضيق.. ألقيت بها في قرف ظاهر.. لم أعد قادراً على مطالعة ما حفلت به من صور النفاق الرخيص الممجوج.. لم تتجرأ إحداها على ذكر حتى أقل القليل مما يدور حولنا.. يأس الجنود وإحباطاتهم.. قناصة الغبش الذين يأتون من أوكار المعارضة الشيعية ليطعنوا حراس

معسكرات النظام.

مع ساعات الصباح الأولى تحركنا من جديد إلى البصرة.. القواطع المقامة على الطريق حذرنا رجالها.. قالوا إن اضطرابا يشيع هناك.. لم نبعد سوى بضعة أمتار عن القاطع.. جاء ماحذرونا منه.. حمم من النار انطلقت تجاهنا.. رجال كانوا يكمنون خلف الهضبة.. إنطلقت نيران رشاشاتهم وقنابلهم اليدوية قاصدة موكبنا.. وكان علينا أن نتبادل معهم النار.. السيارة التي كانت تحمي جناحي الأيسر أصابتها قنبلة يدوية فاحترقت، وسقطت أخرى على مقدمة سيارتي المصفحة.. إنفجار مروع هشم زجاج المصفحة.. أصابتني الشظايا في كتفي ويمناي.. لم أعد أحس بأصابع يدي.. غرقت في الدم المتفجر.. سقطت على أرض السيارة وغبت قليلاً عن الوعي.. خلع الحراس باب السيارة وأخذوني إلى سيارتهم.. نهبوا بي الطريق إلى بغداد.. آلام مبرحة بدأت تسري في جسدي، كتفي ورأسي.. يدي اليمنى والفخذين.. توقفت السيارة بعد أن بعدنا عن دائرة الخطر.. إجتهد الحراس ليضمدوا جراحي.. ثم واصلوا السير، أخذوني إلى أول مستشفى قابلتنا على مشارف العاصمة، تحلق الأطباء حولي.. خاطوا الجروح.. سمعت همساتهم وأنا نصف غائب عن الوعي بفعل المخدر.. قالوا ربما احتاج الأمر بتر الإصبع المصاب.. إنها الكارثة.. أجروا ثلاث عمليات متتابعة وأنا نصف متيقظ.. حاولوا إنقاذ الإصبع.. بقيت رهين الفراش لأيام أعاني من الحمى.. الإمكانيات المتواضعة وقلة النظافة في المستشفى حالت دون العناية الكاملة بي.. أصيب الجرح بالتهاب خطر.

والأسوأ أن محاولة الاغتيال التي تعرضت لها عرف بها الكل.. يبدو أن الثوار الشيعة أرسلوا تقريراً لقيادتهم عن نجاحهم في مهاجمة موكب

ابن الرئيس.. سمعت الخبر عبر الراديو الصغير الذي جاء به حراسى ليرافقنى في الفراش.. بثته إذاعة مونت كارلو وصوت أمريكا.. قالت النشرة.. قتل عدى الابن الأكبر للرئيس العراقي صدام حسين بعد تعرضه لعملية هجومية قام بها الثوار الشيعة في البصرة.

بعدها عرفت أن الإذاعات الأخرى.. العالمية والعربية بثت الخبر أيضاً.. أصاب الاهتياج أبواق دعاية النظام.. أصابها الخبر بالارتباك.. محاولة الاغتيال تزيد من مأزق النظام.. ترفع معنويات الثوار الشيعة وفصائل المقاومة الأخرى.. وتكذّب الروايات الدائمة للنظام عن التفاف كل فئات الشعب من حول القائد في مواجهته للعدوان الأمريكي والصهيوني.

●●●

15 معركة الرضوانية

○ اجتاحتني موجة من الأسى والحزن عندما جاء يبلغني بالخبر. تعثرت كلماته الدامعة وهو ينقله إليّ.. جاء الحارس ليبلغنى أن أربعة من ضباط الحماية لقوا ربهم.. سقطوا عندما تعرض موكبنا لنيران القناصة الشيعة في طريق البصرة.. الرائد صبرى كامل مطر، ملازم أول حسين فتح الله محمد، ملازم ثان ناظم هلال الدورى، وملازم ثان بشير يونس التكريتى.. أربعة من الرجال الشجعان سقطوا ضحايا الواجب.. قفزوا من سيارات القافلة.. زحفوا على الأرض قاصدين الهضبة.. أرادوا الاشتباك المباشر مع القناصة.. قال ناقل الخبر أن أول من سقط كان صبرى كامل، أصابته طلقة كلاشينكوف إصابة مباشرة في الصدر.. الثلاثة الآخرين أصابتهم شظايا انفجار قنبلة سقطت إلى جوارهم..

عاودتنى الآلام بعد أن غادرنى الحارس.. الرجال الأربعة زاملونى لفترة ليست قصيرة.. كُلفوا برفقتى بعد الاعتراف التلفزيونى.. كنت رهينتهم ولم أكرههم.. تآلفنا.. قضيت معهم أياماً موزعة بين الهناءة والألَم.. كنا معا في الملجأ عندما بدأت الغارات على بغداد.. هربنا سوياً إلى الدجيل.. رافقونى إلى صفوان.. وفضلاً عن كل ذلك لقوا حتفهم وهم يجاهدون لحمايتى من الاغتيال.

جاء روكان التكريتى لزيارتى.. استمع إلى الأطباء.. جراح الرأس والفخذ اندملت.. لا زالت يمناى تعانى من الورم.. حث الأطباء على تكثيف العناية بى.. قال أن علىّ أن أستعد للعمل .. لاوقت للتلكأ.. ثم أردف: إذا لم تأت العناية بنتيجة سريعة.. فسوف نضطر لاصطحابك إلى الجبهة

بضماداتك هذه.. قال إنها إرادة الرئيس.. يرغب أن تكون بين الجنود.. وقال أيضاً إن عدي لازال في جنيف رغم أن تعليمات عاجلة من الرئيس أمرته بالعودة.. سألته عن الأحوال فلم يعطِ جواباً مباشراً.. ولم أكن في حاجة لمعلوماته.. أخبار مايجري تتناقلها الشفاه هنا في المستشفى.. يتطوع الممرضون والمرضى بنقل الأخبار إلى مسامعي.. والراديو الصغير رغم المشقة التى أعانيها في اصطياد المحطات الخارجية يأتيني بزاد آخر.. قوات الحلفاء تكثف غاراتها .. تقوم الطائرات المعادية بأكثر من ثمانمائة غارة.. تهاجم مواقع الحرس الجمهورى ومواقع الفرق الأخرى.. قواتنا حبيسة الخنادق.. غير قادرة على الحركة.. الدبابات والآليات مطمورة في الرمال.

جاء مريض من غرفة مجاورة ليعودني كعادته كل صباح.. جاء وعلى لسانه الزاد اليومى.. قال: سوف أتلو على مسامعك موجز أنباء البارحة.. لقد قامت الفرقة المدرعة الخامسة بهجوم بالدبابات على ثلاثة مواقع حدودية.. مواقع عند نقطة التماس بين أرض الكويت والسعودية.. الطلائع الأولى سُحقت على الفور.. لكن نجحت وحدتان في الوصول إلى الخفجي «مركز لتكرير النفط» سيطرت قواتنا على المنطقة وبقت هناك لأيام.. نقلت الإذاعات العالمية الخبر.. قالت أن أكثر من أربعمائة دبابة وناقلة جنود مدرعة أرسلها صدام إلى المنطقة.. أخذت أتطلع إلى الرجل متشوقاً إلى سماع المزيد.. قال إن الموجز انتهى.. قال ذلك وهو موزع بين مشاعر الفخر ومشاعر الألم.. لكنه لم ينس ككل يوم أن يختم النشرة بتحليل للحدث.. قال إن العملية لاقيمة لها من الناحية العسكرية.. مجرد عملية دعائية.. قال ذلك بلهجة العارف المدقق.. محدثي مجرد عامل بسيط.. لكنه مثل كل أبناء شعبنا أصبح يملك قدرة على النفاذ إلى جوهر الحرب.. تعايش ناسنا مع الحرب أملكهم قدرة عالية على معرفة لغة القتال..

والقدرة على التفريق بين الفعل و«البروباجندا».. ولم ينس الرجل أن يترك لي كالعادة جرائدنا.. أخذت أقلبها وأنا أعرف أنها خاوية.. مملوءة بصور كاذبة.. صور ابن الرئيس مع فرقنا على الجبهة.. وعناوين ضخمة عن احتلال قواتنا لمناطق سعودية.. لم أقل للرجل أن منطقة الخفجي مجرد منطقة أشباح.. سكانها هجروها مع وصول الأنباء عن دخول قوات العراق للكويت.

طاحونة إعلام النظام لازالت تدور محمومة.. تعثرت قليلاً بعد المحاولة التي قام بها الثوار الشيعة لاغتيالى.. ثم عادت تطحن الهواء من جديد.. التلفاز الذى في غرفتى تسيل منه الأكاذيب بلا انقطاع.

16 شباط 1991، أمر عدى بالعودة إلى بغداد، غادر جنيف إلى روما ومنها طار إلى عمّان، وكان هناك رجال جهاز الأمن الخاص ينتظرون، رافقوه على الطريق الموصل إلى بغداد.. طريق الأتوستراد لازال رغم تعرضه للقصف صالحاً للسير.. ذهب عدى إلى أبيه أولا ثم جاء لزيارتي.. دلف على الفور إلى مكتب مدير المستشفى والتقى بالأطباء.. عندما جاء لم يظهر اهتماماً بى.. سمعت صوته الغاضب وهو يعنف الأطباء في الممر.. يريد تفسيراً لطول مدة علاجي.. لم يهتم بالجهد الذى بذلوه لإنقاذى.. كانوا يعملون فوق طاقتهم.. لم تعد إمكانيات المستشفى قادرة على مواجهة الحالة الطارئة المفروضة عليها.. آلاف الجرحى كدسوا في الغرف تتعالى أناتهم.. يجرى الأطباء هنا وهناك بلا كلل.. قال له الأطباء أن أصبعى المصاب يحتاج لعملية بلاستيكية تكلف كثيراً.. عندما دلف إلى الغرفة معهم لم يتوقف عن متابعة الحديث.. فقط حياني بإيماءة واستمر فى متابعتهم.. قالوا إنهم لايملكون هنا غير حل واحد.. هو بتر الإصبع.. كنت أعرف مايدور بخاطرهم.. يدركون أن واجبهم الإنسانى يقضي بالانصراف إلى إنقاذ آلاف الجرحى الذين تتعالى صرخاتهم في جنبات

المستشفى.. ولاقدرة ولاوقت لديهم لإجراء عملية يحافظون بها على مجرد إصبع.

استمع الفتى إليهم طويلاً.. ثم قال متوعداً: إذا لم تستطيعوا تجنب بتر إصبع هذا الرجل فسوف أقتلكم جميعاً.. قال ذلك ثم خرج مهرولاً يحوطه حراسه.

20 شباط 1991، بعد أربعة أيام من زيارة عدى جاء الحراس وأخذونى.. ذهبت معهم وعلامات الإعياء لازالت بادية علىّ.. أمرونى بارتداء حلة ابن الرئيس السوداء.. عرفت أننا سوف نذهب إلى البصرة من جديد.. وربما - لو سمح الموقف العسكرى - نذهب إلى معسكرات الحرس الجمهورى في شمال الكويت.. على الطريق فزعت للدمار الواضح المعالم.. كان الركب يسير في تمهل حذر.. ليلة بطولها ونهار كامل كنا نزحف بسياراتنا على طريق جانبى لنتفادى الغارات.. إلتقينا فيه بفرق كثيرة أجبرت على ترك مراكزها، تتراجع مرتبكة إلى مراكز أخرى.. وصلنا إلى مشارف البصرة وقرص الشمس يميل ليختفى وراء الأفق.. راديو السيارة يبث الأنباء.. وزير الخارجية طارق عزيز عاد من موسكو إلى بغداد وصرح أن العراق مستعد للانسحاب من الكويت.. لأول مرة أسمع لغة النظام المنكسرة.. ملامح الهزيمة تبدو في الأفق.. الراديو يبث خبراً آخر أشد إيلاماً.. طلب الأمريكيون باستسلام العراق دون شروط.. كان إلى جوارى في السيارة مصور.. قال معلقا: نحن العرب يعز علينا أن نرضخ للوعيد.. الموت أحب إلينا.

وكأن الرجل كان يقصد الرئيس.. نعرف أن صدام عنيد ومكابر.. لن يقبل بسهولة أن يتنازل عن صلفه.. لايريد أن ينحنى للعاصفة.. من المؤكد الآن أن الهجوم الأرضى قادم لامحالة.. الطائرات المغيرة دأبت في الأيام الأخيرة على إغراق مواقعنا بالمنشورات.. تدعو الجنود في وضوح إلى

الاستسلام.. كانوا يحرضونهم على رفض الحرب والخضوع للمنطق.. قالوا لهم لاأمل ولامخرج إلاّ برفع الرايات البيضاء.. وقالوا إن آلافاً من رفاقهم استسلموا في مواقع كثيرة.. وصلنا إلى مركز صغير يكمن عند هضبة قرب صفوان.. قضينا هناك أكثر من ساعتين.. لم نتمكن من تصوير لقائنا بجنود المركز على الفيديو.. اكتفينا بالصور الفوتغرافية.. الغارات لم تتوقف طوال مدة بقائنا.. قال لنا الرجال إن الأمريكيين يقصفون المنطقة بواسطة قانفات «B-- 52» على الدوام بعد أن رصدت وسائلهم منصات لإطلاق صواريخ سكود.. رصدوها وهي تطلق صواريخاً تجاه شرق السعودية.. لم ننجح في الوصول إلى غايتنا.. الطريق إلى معسكرات الحرس الجمهوري محفوف بالمخاطر.. أخذنا طريق العودة إلى بغداد.. آلام مبرحة تحوطني.. النار تسري في ذراعي المصاب.. أغالب النعاس فيغلبني.. لا أحس بهزات السيارة ولا صوت الانفجارات البعيدة.. بعد ساعتين من وصولنا بثت الصور التي صورها مرافقونا.. بثت أولاً صورة لي مع الجنود.. قال المذيع إني ألقيت كلمة تشجيع على الجنود.. تحاشوا بث صور واضحة المعالم.. لم تظهر ضمادتي إلا في لقطة واحدة وبشكل خاطف.. أخذني العجب.. لم يظهروا الحدث بشكل كافٍ.. خاطرنا بحياتنا من أجل لقطات قليلة.. شغلت بالكاد بضع ثوانٍ على الشاشة.. قلت ذلك لحارسي الجالس إلى جوار فراشي في المستشفى الذي أعادوني إليه.. قال في الغد سوف تعرف وابتسم.. مع إشراقة الصباح جاء ومعه حزمة جرائدنا .. جاء ومعه نصف جواب الأمس.. تطلعت إليها.. مسرحية جديدة.. قلت ذلك ساخراً.. وابتسم هو موافقاً.. لم أحاول أن أخفي مابداخلي.. لقد تآلفت والرجل فلم نعد بحاجة إلى مداراة مايمور بين جنباتنا.. أوضح لي الأمر أكثر.. قال لي إنهم في الوقت الذي ذهبنا فيه نحن الى الجنوب كانوا هم يصورون عدي في الاستديو.. صوروه وذراعه اليمنى مضمدة.. والرأس أيضاً.. نسجوا رواية حول إصابة الفتى

على يد الثوار ليصنعوا منه بطلاً.. أخذت الصحف تلوك القصة لتعوض غياب التلفاز.. لم يعد الإعلام يعول كثيرا على البث عبره بعد أن كثر انقطاع التيار عن منازل بغداد.

24 شباط 1991، في الرابعة صباحاً انطلق الجحيم.. عوت دبابات الحلفاء وهي تأخذ طريقها إلى حيث تتخندق فرقنا.. وبدأ الهول الكبير.. ازدحمت غرفتي بالأطباء والمرضى.. تحلقنا المذياع الصغير نفتش عن الأخبار.. لم يعد أحد ينظر إلى شاشة التلفاز الذي تركناه يدور.. لم يعد أحد ممن زحموا الغرفة يولي انتباهاً لصورة صدام ولا لكلماته الباكية وهو يصرخ عبر الجهاز: بوش الأثيم وأتباعه بدأوا هذا الصباح بالهجوم الأرضي.. هاجموا بلدنا وشعبنا على كل الحدود.. العار لهم.. سوف يعرفون أن الشعب العراقي البطل أقوى منهم.. وظل يصرخ فينا: قاتل ياشعب العراق الشجاع، يا أبناء أمهات كل المجازر قاتلوا لحماية نسائكم وأطفالكم، هذا يومَ مجدكم.. نحن الآن بحاجة لمعرفة مايدور.. الإذاعات كلها خصصت معظم ساعات إرسالها لمتابعة يوم الهول.. استسلم في اليوم الأول للحرب أكثر من عشرين ألفاً دون أن يطلقوا طلقة واحدة.. وآلاف آخرين داستهم الدبابات والمجنزرات.. تهاوت حصوننا متلاحقة.. واختلط الحابل بالنابل.. وسائل إعلامنا لا تذيع إلا خطب صدام ونداءاته التي تستجدي الصمود.. بغداد وحدها توقفت الطائرات عن قصفها.. فقط تمرق في الأفق القريب في عروض جهنمية لبث الرعب دون أن تسقط القنابل.. لازال صوت صدام يصرخ: السلاح الذي صنعوه ليقاتلونا به سيرفع من أيديهم، ثم يبدأ القتال بين أهل الإيمان وأهل الكفر، قاتلوهم: لاترحموهم، لاتأخذكم بهم شفقة، سوف ينصركم الله ويشد أزر المؤمنين.. يغشانا الصمت وتلفنا الكآبة.. صوت الموسيقى العسكرية والأغاني الوطنية التي تتخلل الإرسال تصيبنا بالتعاسة.. تجسد لنا مأساة النظام

الذى خارت قواه ويوشك على الانهيار.. الضربات أقوى وأشمل.. تفوق طاقته وقدرته.. يستسلم أو ينتحر.. السكين تزحف إلى الرقبة.. والعدو لايرحم.. وكان لامنجاة له إلا برفع الرايات البيضاء.. أربعة أيام كانت كافية.

3 آذار 1991، في صفوان تبدأ المحادثات لوقف إطلاق النار، أرسل صدام سلطان هاشم أحمد نائب وزير الدفاع وصلاح عبود محمود قائد الفيلق الثالث ليشاركوا في المحادثات.. هموم النظام الخائر تتزايد بعد أن هدأت نار الحرب.. كان عليه أن يعيد ترتيب أوضاعه في بغداد، وأن يواجه القلاقل الآتية.. شوكته التى انكسرت فجرت الحمم التى تمور تحت السطح.. الجيش الذى تشتتت فرقه في الجنوب سادته صور التمرد على النظام.. أخذ الجنود والضباط الحانقون يمزقون صور صدام في جرأة.. ينزعونها من على جدر البصرة ويدوسونها بالأقدام.. تدافع الجنود في طرقات المدينة يفتشون عن مراكز الحزب وأعضائه.. يلاحقون رجال جهاز الأمن الخاص ويذبحونهم علانية على قوارع الطرق.. تقتحم سجون البصرة ويطلق السجناء.. ملامح الثورة على النظام تتشكل فى الجنوب.. أوجاع النظام تتزايد مع إشراقة كل يوم جديد.. المعارضة التى يقودها في الجنوب التجمع الإسلامى الثورى الأعلى تخرج إلى العلن وتشارك في مطاردة رجال النظام.. وفي الشمال أيضاً .. الأكراد يقوى ساعدهم بعد الهزيمة التى مزقت هيبة النظام.. ينشط رجال البشمركا للسيطرة على كردستان.. أرخت الحرب قبضة النظام.. تيبست أصابعه ولم تعد قادرة على الإمساك بخيوط اللعبة.. فقد سيطرته على الأطراف ولم يعد له غير المركز.. لم يعد يملك إلاَّ فرق الحرس الجمهورى المعسكرة فى بغداد.. بقيت وحدها تحت قبضة النظام وطوع أمره.

استنفر النظام البقية الباقية من رجاله لمواجهة خطر الحرب الأهلية

التي تدق أبواب العراق.. بعد أحداث كربلاء جمع صدام رجاله المقربين.. ولديه عدي وقصي، أصهاره حسين كامل حسن وصدام كامل حسن، وعلي حسن المجيد الكيماوي، ومدير جهاز الأمن الخاص.. الرجال الستة وصدام يؤلفون القيادة العليا لمواجهة الثوار.. يدرك النظام أن التصدع داخل جسد الأمة أشد خطراً عليه من نار الحلفاء.. ووزعت المهام لمواجهة الخطر.. قصي صدام حسين وبشار السبعاوي أوكل إليهما مهمة قيادة أجهزة الأمن الخاص، عدي عين رئيساً لاتحاد الصحفيين ليسيطر على وسائل الإعلام.. وكان أول خطوة قام بها هي رفع رواتب الصحفيين بنسبة 25٪ .. وقدم لهم صكوك تملك أراض للبناء.. خاطبهم بود: هدفي هو المحافظة على حرية الصحافة وحمايتها.. محاولته لمخاطبة ودهم لم تمنعه من وخزهم بتهديداته المبطنة: عليكم بالانتباه والتدقيق.. تحذير يعرفه كل من يعمل في مهنة الصحافة.. يعرفون أن كلمة واحدة ليست في موضعها كافية لجز الرقبة.

حسين كامل حسن وصدام كامل حسن توليا قيادة الفرق التي لم تدخل الحرب.. وأوكل أمر ثماني فرق من الحرس الجمهوري لعلي حسن المجيد.. قبض الثلاثة على مقاليد هذه الفرق وأعدوا الوسائل لمجابهة الثوار.. الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال.. وبدأت ملامح المجابهة: خرجت كل الصحف تنذر وتتوعد «من يعتقدون أنهم قادرون على زلزلة الوحدة القومية العراقية.. القوات الحكومية والشعب سوف يسحقهم.. كل الخونة سوف يعاقبون.. سنلاحقهم أينما كانوا..». لكن لم يعد الوعيد مجدياً.. المشاكل تزحف وتدق حتى أسوار العاصمة.. تزحف الكتابات المناوئة للحكم على جدران بغداد لتقول للطغاة نحن هنا.. قادرون على الوصول إلى عقر داركم الحصينة.. المواجهة في البصرة وكربلاء تتصاعد، وقوات الحرس الجمهوري توالي محاولاتها للبطش بالثوار

والمتمردين.. إعدامات متلاحقة للجنود وللقادة.. يساق إلى سجون بغداد زعماء شيعة.. يضغطون على الرجال ليمارسوا تأثيرهم الديني على الثوار.. ويرفض الرجال أن يرضخوا لمطالب النظام فيلقوا ربهم شهداء.. صرخ أحدهم في رجال النظام: أقول لرجالي مزقوا صورة هذا الظالم، حطموا تماثيله، إبعدوا الكفرة عن المساجد.. لم يرحموا شيخوخة الرجل.. أوقفوه في العراء وسكبوا البنزين عليه ثم أشعلوا في جسده النار.

المعتقلين الآخرين أخضعوهم لتعذيب وحشي لكي ينطقوا بأسماء النشطاء.. أوقفوهم صفوفاً.. إستعرضهم قصي وهو يلوِّح أمام وجوهم بسوط العذاب.. يغرق وجه آخر من يقف في الصف بمسحوق حارق.. عرَّضوهم لغاز الأعصاب.. شلوا قدرتهم على التنفس.. فقئوا عيون بعضهم وقصوا آذان وأنوف البعض الآخر.. بلا رحمة بتروا الأطراف.. امتلأت سجون الرضوانية والدجيل بالصرخات والتأوهات.

أول نيسان، ومخاوف النظام آخذة في التزايد دعاني قصي للمثول في حضرته، أخذني في رفقته إلى الرضوانية.. هالني ماتموج به الزنازين من بشر.. ثوار شيعة وأكراد.. حطام رجال حشروا في غرف ضيقة ومظلمة.. روائح كريهة تعبق المكان وتخنق الأنفاس.. اختلطت روائح البول والغائط برائحة اللحم المحروق.

جال قصي وأنا معه على بعض الزنازين.. كان التوتر بادياً على محياه.. خنقته الروائح النتنة التي تحيط بالمكان.. اتجه مسرعاً إلى مكتب مدير السجن.. دخلنا فوجدنا صدام كامل .. عانق قصي ثم اتجه ونحن معه إلى ساحة السجن.. الساحة خاوية.. لاشيء غير الغبار.. جلس قصي وصدام على كرسيين أتى بهما الحراس.. أمر مدير السجن بإحضار مجموعة من النزلاء.. بعض من شيعة كربلاء الذين اتهموا بالتحريض على الثورة.. صدام يقبض بيمناه على مسدس ضخم.. وفي اليسرى ملفات

الخونة.. جاؤوا بالرجال ليستجوبوا تحت لظى شمس الظهيرة الحارقة.

:قُلْ إن صدام هو الأكبر ـ لاأحد يلفظ بكلمة ـ أنتم جبناء.. أطلبوا الرحمة أطلق سراحكم.. بعض من خارت قواهم طلبوا الرحمة كما أمر الرجل فأعدمهم على الفور وهو يصرخ: الرئيس لا يحب الجبناء.

خمسة عشر رجلاً حصدتهم رصاصات الرجل الجالس في هدوء على كرسيه وسط الساحة.. لأربع ساعات متواصلة كان علينا أن نراقب مايحدث.. نرى البشاعة مجسدة.. جثث القتلى تجر إلى الزنازين لتروع الأحياء ولتدفعهم إلى طلب الرحمة.. طلب الرحمة من رجل لا يرحم.. ترتفع بشاعته مع ارتفاع حرارة الشمس .. يسعى لإرضاء سادته لينال الرضا والتقدير.. عشرون ألف دينار مقابل كل رأس سوف يدفعها له على حسن المجيد.. وسيارة مرسيدس من الرئيس وعمارات في بغداد.

منتصف نيسان 1991، تعرض صدام كامل الذي سمى لقسوته بجزار بغداد لمحاولة اغتيال.. كان عائداً من منطقة الكرادة التى أعدم فيها مئات المعتقلين.. كمن له بعض الثوار وأطلقوا النار على موكبه.. لكن حراسه استطاعوا إفشال المحاولة.. طاردوا الثوار وقبضوا على ثلاثة منهم.. ثلاثة تعساء وقعوا في قبضة الرجل.. مارس عليهم كل أحقاده.. أفرغ في أجسادهم كوامنه الحيوانية.. قتلهم بعد أن حولهم إلى خرق بالية.. عرّضهم لصعقات الكهرباء.

كم هو مجرم وطاغية هذا النظام.. كل رجاله آثمون ومتوحشون.. حتى رئيس البغى يشارك في حفلات الدم.. أخذونى إلى واحدة منها.. وقفنا عند أطلال قصر صدام الذي دمرته الغارات.. وقفت السيارات المرسيدس متراصة.. ووقف صدام يتطلع إلى أنقاض قصره مهتاجاً.. نظر إلى رجاله والحنق يغلى في صدره.. روكان التكريتى، شبيب التكريتى.. عبد حميد وصدام كامل.. وقصي.. تسربل الكل بالصمت.. لايعرفون

كيف يحولون دون سيدهم وبركان الغضب الذى اجتاحه وهو واقف عند الأنقاض.. قبل أن يفوه بالكلمات عرفوا ماسوف يأمر به.. تلقفوا أمره قبل أن ينطق به .ركضوا ليلبوا رغبته.. أحضروا له المساجين ليفرغ فيهم ثورته.. هرول روكان إلي ساحة القصر، عاد يسوق أمامه ثلاثين من الثوار الأكراد.. أوقفوهم صفاً واحداً .. وانطلقت الرصاصات متتابعة من مسدس صدام.. تساقط الرجال تحت أقدامه.. نشط رجاله في إزاحة الجثث حتى لا تلوث حذاء المهيب.. الضباط الآخرون يقلبون الجثث علّ بينها من فيه بقية أنفاس ليسكتوها بأحذيتهم الثقيلة.. ولم ترو الدماء المسكوبة عطش القائد فأمر بإحضار ثلاثين آخرين.. أعاد معهم الكرة.. بعدها انفرجت أساريره وانطلقت ضحكاته من معقلها.. ضحكات مجنونة.. قال بعدها الرجل: هؤلاء الخونة .. يريدون الاستيلاء على السلطة.. عملاء إيران وأمريكا.

الكراهية تتعمق في داخلي.. كراهيتي لصدام ولنظامه.. وحتى نفسي كرهتها.. عطاياهم أصبح لها طعم العلقم.. عند أنقاض القصر التى لوثتها دماء الثوار وقفت ثانية في حضرة صدام .. جئت إليه ليكرمني.. ليهديني سيارة مرسيدس 500 زرقاء.. وصك قيمته مائتى ألف دينار تقديراً لبطولتى في الحرب!! أى حرب يارجل.. قلت ذلك لنفسى.. إنها ملهاة.. قمة من قمم المآسى.. نستحق جميعنا لأدوارنا فيها السحل وليس المكافأة.. كلنا مجرمون.. وجبناء.. يتصدرنا كبير النظام ورأس العصابة.. هل من مخرج؟!.. أفتش عن طاقة أمرق منها قبل أن أحترق.. أحترق في أتون النظام الذى لازال يسدر في غيه.. لم يردعه الدرس.. ولم تردعه الغارات التى أودت بحياة الآلاف من أبناء شعبنا الطيب المسالم.. لم تردعه وعاد رجاله يمارسون غيّهم ولهوهم غير مكترثين بما حل بشعبهم.. بل أضافوا إلى نشاطاتهم التجارية الأنشطة التى تخلفها الحروب بعد أن

يخفت دوي قنابلها.. أخذوا يتاجرون في كل شيء.. المواد الغذائية وحليب الأطفال والدواء.. إنهم لايستحون، يكسبون حتى من عذابات الجرحى.. وآلام الأطفال.

18 حزيران 1991، اليوم يوافق يوم مولد عدي.. بلغ الفتى سبعة وعشرين عاماً.. نظفت طرقات ألقصر وأزيلت آثار القصف.. عاد المكان إلى كامل بهائه ورونقه.

احتشدت ساحة القصر والمسبح بالضيوف.. أكثر من ثلاثمائة صبية وامرأة دعاهن الفتى ليشاركن في الاحتفال بيومه الكبير.. خليط من الرجال.. تجار سيارات وسماسرة أراض.. وقوادون.. تحول المكان إلى ماخور يموج بالبشر والخمر وأصناف المأكولات التي تتصاعد روائحها.. لكنها تتبدد في فراغ القصر حتى لاتعبر أسواره حيث تتعالى أنات الجوعى.. جوعى بغداد المتعطشون إلى كسرة خبز وشربة ماء.. جوعى الحصار الدولي.. وحصار العصابة أيضاً.. هياكل عظمية تدور في الطرقات تبحث عن القوت الذي عزّ.. تدور بحثاً عن لقمة بينما يدور أغنياء الحرب القوادون في ساحة القصر يعبون الخمر ويعانقون العاريات.. إنتبهت من خواطري على صوته الفاجر.. قفز عدي إلى المنصة.. إنتزع الميكرفون من قبضة عادل عكلة.. أخذ يقهقه بصوت بذيء.. زعق في مجون عبره: هيء هيء هيء.. كل النساء تتعرى.. أريد أن أراهن جميعاً عاريات.. ضحكة هنا ونصف ضحكة هناك.. ونساء تسارع على الفور لتلبي النداء.. وتتمنع في خجل أخريات.. وقف يراقب.. ثم عاد ليزعق من جديد: قلت كل النساء.. التي تمتنع ستكون الليلة من نصيب حراسي.. وأخذ يضحك في مجون.. ذاب تردد الخجلات فسارعن إلى الانخراط في القطيع العاري.. سارعن قبل أن تسارع أيدي الحراس لتشد حمالات الثياب.. تَعرّيْن طواعية قبل أن يُعرين عنوة.. وجاء دور الرجال.. عاد

الفتى ليأمر من جديد: الرجال أيضاً.. هيا أيها القوادون.. لا أريد أن أرى سروالاً يحيط بوسط أحدكم.

واختلطت الأجساد.. إختلط العرق بالخمر وبلعاب القبلات.. طفت خيوط القذارة على سطح الحمام ولطخت أوراق العشب على حوافه.. الموسيقى الصاخبة الماجنة وصوت عادل عكلة يعلوان ليزيدا الماجنين مجوناً.. وهدهم المجون والتعب فألقوا بأجسادهم على العشب حتى أفاقتهم شمس الظهيرة الحارقة.

ياله من داعر.. دعاني إلى مكتبه بعد أن استعاد وعيه.. قال إني متهم بالتحرش بواحدة من فتياته.. قال أني ضبطت متلبسا وأنا أسعى لمغازلة بيداء مذيعة التلفاز.. ألجمتني المفاجأة.. أخذت أسترجع أحداث الليلة الصاخبة.. مصادفة جاءت وقفتي إلى جوارها، بدأتني هي بالحديث، كانت تعرف أني أعمل بديلاً لعدي.. طلبت أن أرافقها وبعض صديقاتها.. وأشارت إلى موضع عند حافة الحمام.. قالت ذلك وهي تضحك في خلاعة.. قلت لها لا ياسيدتي.. لا أريد مشاكل مع عدي.

عدي وقف ثم جلس.. ثم عاود الوقوف وهو يصرخ في وجهي: لماذا تتحرش بصديقتي، لماذا تلاحقها؟.. أخذ يرجف وهو يصيح: أنت تكرهني، وتتمرد عليّ.. نسيت نفسك.. نسيت أنك طوع إرادتي.. يجب أن أعود لتأديبك حتى تعود إلى صوابك.. المسألة إذن ليست إلا شعوره الكامن الذي يؤكد له أنني لاأرغب في الاستمرار في خدمته .. واضح أنه دفع فتاته الماجنة لتتحرش بي.يفتش عن ذريعة ليعود إلى تأديبي.

الفتى أصبح يحس ماتموج به نفسي.. لم تعد ملامح الكراهية له ولنظام أبيه قادرة على التواري داخلي.. ليس أمامه غير أن يطوعني أو يقتلني.. لازال بحاجة إلى خدماتي.

أخذني الحراس من أمامه إلى غرف التعذيب.. إقتادوني إلى معسكر

الرضوانية خارج بغداد.. معتقل موحش وقاتل.. تضربه الشمس الحارقة فتشوي أبدان الخمسة آلاف معتقل الذين ساقهم النظام إلى حُجره الخانقة.. ليست حجر بالمعنى المألوف للكلمة.. مجرد حفر لاتصلح للحيوانات فضلاً عن أبناء آدم.. وأوكل النظام أمر هذا المعتقل إلى مجرمين ثلاثة.. أنقذهم صدام من حبل المشنقة.. عفا عنهم بعد أن أصدر ضدهم أحكاماً بالإعدام.. وقبل أن تتراقص أجسادهم على أعواد المشانق صدر العفو.. واستداروا ليخدموا النظام.. يخدموه بكل تفان فلازال الحبل معلق على العود لمن تسول له نفسه التقاعس.

وكان الرجالَ عند حُسن ظن سيدهم.. أحالوا المعسكر إلى واحة للرعب.. برنامج يومي شديد الصرامة والقسوة.. تدق ساعة الاستيقاظ عند الرابعة تماماً.. ونصطف في الخامسة للتمام.. دورة التعذيب تبدأ في السادسة وينهيها الجلادون مع دقات العاشرة.. الضرب بالكابل، الجلد على الظهر.. تقطعت أنفاسي.. وأخذت أخور كثور مذبوح.. الضربات تهد قواي.. أجثو فتتعفر رأسي بالتراب الذي يفور بالسخونة.. يقبض الحارس على أنفي.. تتقطع أنفاسي.. أجاهد لأتملص من قبضته.. لكنه يزيد من الضغط على رقبتي.. أخضعونا للعبة معذبة يسمونها (البوش أب) من لاينجح في الاستمرار يغرسون الدبابيس تحت أظافره ثم يجعلونه يواصل المحاولة.. مع دقات العاشرة يتركونا لنلتقط أنفاسنا.. ساعة واحدة ثم نعاد إلى مسلسل العذاب.. نأمر بالاستلقاء من جديد وبطوننا تلاصق الحصى.. تلسعنا حرارته..وتلسعنا الضربات التى تلاحق ظهورنا العارية.. علينا أن نقاوم الإعياء حتى نهرب من تلويث أجسادنا الدامية بالأوساخ.

لم أعد قادراً على الصمت.. جاهدت أن أخفي آلامي طويلاً لأظهر قدرتي على الصمود في وجه ظلمهم وطغيانهم.. قدرتي على مقاومة

قدرتهم على تحطيمي.. دفعتهم رغبتي في المقاومة إلى زيادة جرعات العذاب.. ربطوني إلى طاحونة الهواء المعلقة إلى الجدار.. أخذت تدور بي وهم يلاحقونني بالضربات.. أصابت إحداها أنفي فحطمته.. غبت عن الوعي.. سحبوني إلى الحفرة وتركوني ليومين.. أعود إلى الوعي ثم أعود ثانية إلى الإغماء.

جاورني في الغرفة الضيقة تعس آخر.. صباح مرزة محمود.. أخبرني أنه سبقني إلى هنا منذ أشهر سبعة.. كان يبحث عن الكلمات.. صوته المتكسر يرتجف عند حافة الفم .. يحاول أن يبوح بماتمور به جنباته.. يقطع المسافة بين الشك واليقين في معاناة قاتلة.. يريد أن يبوح لي ويخاف مني.. يخاف أن أكون أداة من أدواتهم زرعوها في طريقه.. لأربعة أيام متواصلة ظل التردد يلازمه ثم تجرأ وبدأ يحكي لي حكايته.. إنسابت كلماته المحبوسة.. وتدفق شلال أحزانه مع الكلمات: لقد كنت زميل صباه.. جمعتني وصدام ألفة الصبا.. شهدت سامراء على الود الذي ساد بيننا.. كان عمري ستة عشر عاماً وقت أن التقيته وتصادقنا.. لم تفرقنا الأيام.. أزرته في المحن.. وواكبت خطوه.. إنخرطت في الحزب رفيقاً حتى وصلت إلى قمة المسؤولية.. لازمته حتى أصبحت حارسه الأول.. وأتى مالم أتصوره أو يجول بخاطري.. كنا في حفل من الحفلات التي تقام دائماً في نادي الصيد.. واحتشد المكان بقادة الحزب ورجال الحكم.. ظهر على المسرح المغنى العراقى محمود أنور.. كان يغني أغنية يشيد فيها بصدام.. على الطاولة المجاورة للمسرح كان يجلس رئيس ديوان الجمهورية أحمد حسين.. أراد أن يعلن رضاه عن المغني فرمى إليه بحزمة دنانير.. لم يرقني تصرفه.. قلت له غاضباً إن هذا عبث.. وتعبير فج.. تبادلنا كلمات جارحة.. توقف المطرب عن الغناء وصمتت الفرقة المصاحبة.. كفت عن العزف.. وجاء الابن الأكبر لأحمد حسين ليهاجمني

دفاعاً عن أبيه.. بلغ الغضب مني مبلغاً صعب عليّ عنده كبت انفعالي.. أطلقت من مسدسي طلقات متتابعة في الهواء لأنذر الابن المهاجم.

في اليوم التالي ذهب الرجل إلى صدام شاكياً.. بعاني صدام ليواجهني بالرجل.. كانت ملامحه غاضبة.. يدور في مكتبه كثور هائج.. طالبني بأن أعتذر لأحمد فعصيت أمره.. توقف عن الدوران.. حدق في ملامحي وهمهم غاضباً: سوف تذهب على التو إلى معسكر الرضوانية للتأديب.. سوف تبقى هناك إلى أن تعتذر.

أيامنا في سامراء.. صداقتنا.. الرحلة الطويلة إلى جواره خادماً ومؤازراً.. تبدد كل شيء طيب في لحظة غضب.. أخذني الزبانية على الفور.. ألقوا بي في هذا المعسكر الموحش.. أذاقوني العذاب ألوانا.

أخذت أنظر إلى الرجل وكلماته المتدفقة كالسيل تفرج أساريره.. أرثى له أم لنفسي.. وحّدت بيننا الآلام المشتركة.. رافقته في زنزانتنا الصغيرة واحداً وعشرين يوماً.. إلى أن أتى المجرمون.. دخلوا علينا.. أمسكوا بالرجل وألقوه أرضاً.. حقنه أحدهم بغلظة.. فأخذ يتلوى من الألم.. ظل ينازع وهم يسحبونه على الأرض إلى خارج الزنزانة.. وتركوني وحيداً.. تكومت عند الحائط أفكر في آخر الكلمات التي نطق بها وهو يودعني: لماذا تعمل مع هؤلاء المجرمين؟!.. أليس لديك شرف؟!.. سوف يفعلون بك مافعلوه بي.. سوف يرمونك عندما ينتهون منك.. رأسي المحترق ضغطته بين ركبتي.. قلت هامساً للرجل الذي غاب: وداعاً .

●●●

16

الهروب من الجحيم

○ وحيداً بقيت في الزنزانة.. ثلاثة أسابيع متعاقبة ألوك فيها عذاباتي.. يأتون ليمارسوا الوحشية في جسدي كل يوم.. يتركوني معلقاً بين الحياة والموت.. أزحف إلى الأركان علّ الحركة تخفف حرقة الألم.. وتُخافت من قرصات الجوع.. الجراح المتقيحة تدفعني إلى البكاء المكتوم.. أتشوق إلى شربة ماء تخفف قيظ الزنزانة ولسعات الكرابيج.

بدأ الخوف يتسلل إلى داخلي.. طويلاً قاومت ذلك الملعون، قاومته لأظل متماسكاً.. مالكاً لإرادتي.. خيط من أمل بقيت ممسكاً به.. كنت أمني النفس بانتهاء الكابوس.. لكن الشقة تتسع والآلام تطغى على إرادتي.. تقتل الأمل داخلي.. لم أعد أملك القدرة على المقاومة.. أضحيت مجرد خرقة بالية.. أسلمتهم نفسي بلا غضب أو كره.. تركتهم يعذبون جسدي دون أن أنبس أو أتأوه.. فقدت الإحساس بالألم.. كما فقدت القدرة على النوم.. تساوت كل الأشياء.. النوم واليقظة.. الألم والراحة.. صرت لاشيء.. مجرد خرقة لا أكثر.

لم أعد حتى قادراً على التفكير.. لقد فكرت طويلاً.. حتى نضب البئر الذي في رأسي.. كل الأفكار السوداء أدرتها في مخيلتي.. سوف يفعلون بك يالطيف مافعلوه بمحمود.. سيحقنونك لتتلوى ثم تموت.. لا سوف يعاملونك بقسوة أقل.. سيرمونك بالرصاص لتموت على الفور.. لن تحس بالآلام والكلاب تنهش جثتك.

لا يالطيف عليك أن تتماسك.. قاوم.. يقدرون على جسدك نعم.. لكن

رأسك لك وحدك.. في لحظة صحو قلت لنفسي سوف أقاوم.. سأستعين بالكراهية.. أتوكأ عليها لتحصلني بعيداً عن عالمهم الموحش.. تذكّر نفسك بجرائمهم فأنت لست وحدك.. الآلاف شربوا من كأس العصابة.. تجرعوا المر وقاوموا.. وأخذت في التذكر.. صنعت نضداً في رأسي.. ألقيت عليه حزمة من الأوراق .. غمست الريشة في دواة دموعي وكتبت قائمة بالأسماء.. الضحايا الذين تساقطوا في جب النظام المظلم:

علي جعفر.. سمٌم، محسن الصحاب.. سمٌم، منعم حادي.. جوّع، أحمد صالح.. ضرب حتى الموت، حامد الدليمي.. كسرت رجليه أولاً ثم تركوه للكلاب، صالح السعيدي.. فقئوا عينيه ثم ضربوه حتى الموت، صبري الحديثي.. صرع.. وقبل أن يسمح لأهله بأخذ الجثة أجبروا أخاه على الرقص فوق جثة القتيل.

وقائمة الوزراء: ثلاثة من الذين تولوا وزارة التجارة صرعتهم الرصاصات، ووزيران للصناعة أيضاً، ثلاثة وزراء خارجية وثلاثة وزراء دفاع.

تسعة وخمسون عضواً من العاملين في الحكومة حصدتهم الرصاصات المجنونة.. طاحونة النظام لا تتوقف عن الدوران.. تبتلع الرجال مع كل دورة.. تطحن أجسادهم بلارحمة.

حتى حرب الخليج لم تكسر شوكة النظام.. ازدادت شراسته، قتل الآلاف بعدها.. جزّت سكينه رقابهم.

عملاء الرئيس جاثوا فساداً في المناطق التي خص بها النظام أعضاء الحزب والحكومة.

- وفي ناحية الكبيسة مثلاً.. وقع رجال تفانوا في خدمة النظام..

وكانت المكافأة القتل بلا رحمة:

خالد عبد عثمان الكبيسي.. وزير سابق.

رحيم السطار سليمان الكبيسي.. عضو في الحكومة.

عبد الحنان الكبيسي.. ضابط.

ـ وفي ناحية حديثة مجزرة مماثلة:

كردي سعيد عبد الباقي الحديثي.. عضو حزبي.. شنق.

عبد العزيز الحديثي.. قائد في الجيش.. أعدم رمياً بالرصاص.

شوكت داكوم الحديثي.. عضو في الحكومة.. أعدم رمياً بالرصاص.

مرتضى سعيد عبد الباقي الحديثي.. وزير سابق.

محمد صبري.. نائب وزير.

نيسان الحديثي.. ضابط.

كاجي الحديثي.. طيار.

كلهم كوّموا في مقبرة جماعية في وسط الناحية.

وتوقف القلم.. أصابته هو الآخر دفقة من ألم.

لماذا استسلم كل هؤلاء؟!.. تركوا النظام يذبحهم مثل البقر.. هل خوت البلد من جَسور يملك القدرة على قولة لا.. أو يشرع سلاحه ليقتل رأس الأفعى.. طرحت على نفسي السؤال وأنا أعرف الجواب.. أعرف أن العصابة متشابكة.. والخيوط معقدة.. والرجل داهية وماكر.. يزرع الحب ويجاوره بالكراهية.. يطوّع الرجال كما تطوع الخيل والكلاب.

وأنا أيضاً.. ألست أكره عدي.. أمقت كل يوم أمضيته إلى جواره.. أعرف أنه عندما يأخذ مكان أبيه سوف يكون أكثر بطشاً وجوراً.. أتيحت

لى فرص كثيرة لأفرغ فى صدره رصاصاتي لوكنت أردت.. صحبته مرات ومرات.. شاهدته وهو يضرب نساءه.. رافقته وهو يجّرب السيارات الجديدة.. ضغطة واحدة على الزناد كانت كافية.. لكنى لم أفعل.. لاحق لي إذن في لوم الآخرين.. كلنا جبناء.. موزعون بين الخوف والرغبة في الركون إلى دفء النظام.. نحبه ونكرهه بنفس القدر.. ندور في فلكه.. تحولنا إلى دمى تحركها أصابعه اللاهية.

سحابات الخوف الرمادية حوّمت طويلاً في سماء العراق.. البيوت والناس والحجارة.. الكل يشارك في اللعبة.. البعض بإرادته والبعض الآخر طلباً للنجاة.. تصرخ الحناجر بالهتاف للنظام لتخرس الأصوات التى تغلي بالكراهية في تجاويف الأفئدة.

ينام الناس على أمل أن يأتيهم الصباح بمخلص طالت غيبته.. يحدقون في السماء علّ الطير الأبابيل تأتي لتمطر العصابة بالحجارة.. ولما أتت أمطرتهم هم بالقنابل وتركت النظام.. أتاحت له القدرة من جديد ليصول ويجول بين الديار.. يحصد رؤوساً أينعت وحان قطافها.. زادت قبضته إحكاماً، وتسلم الفتى المدلل العصا الغليظة ليحمى ظهر أبيه.. تربع قصى على رأس جهاز الأمن الخاص ليحوله إلى أداة أشد قهراً وطغياناً.. وكانت باكورة أعمال الجهاز في عهده الجديد قتل الملازم أول سلمان حرب التكريتى.. إتهموا الرجل بالتجسس لحساب المعارضة.. والحقيقة على غير ذلك.. فقط أراد قصى أن يقول أنا هنا.. يؤكد قدرة النظام الأمنى الجديد بعد أن أعاد ترتيبه.. كان الجهاز الأمنى في السابق مؤلفاً من أربعة أجهزة «جهاز الأمن الخاص، المخابرات، الاستخبارات العسكرية وجهاز الأمن العام».. بعد أن أطلقت يد قصى أخذ إلى الجهاز أفضل من عملوا في الأجهزة الأخرى، أغدق عليهم

الامتيازات ورفع رواتبهم.. وفضلاً عن ذلك خضعت كل الأنظمة الأمنية الأخرى لأوامر قصي.. الأنظمة المتصارعة أصبحت كلها تحت قبضته.

وأتى يومي الثالث والعشرون في المعسكر الموحش.. جاء الجلادون في الرابعة صباحاً ليأخذوني كالعادة.. لم يذهبوا بي هذه المرة إلى غرفة التعذيب.. لكن إلى غرفة أخرى.. قيدوني على مقعد ثُبّت في الأرض بإحكام.. لم أسأل ماذا ينوون أن يفعلوا بي.. تحاشيت النظر إليهم.. حدقت إلى الأرض.. فجأة وجه أحدهم الخطاب إليّ: أتريد أن تعرف بماذا حقنا صباح مرزا محمود.. لم أتكلم.. فقط أومأت برأسي.. تعالت ضحكاته.. وجهه بشع وأسنانه نخرها السوس.. مشى إليّ في تمهل.. ضغط على ساعدي بيمناه.. وباليسرى أخرج قلماً من جيب سترته.. أخذ يجريه على ذراعي ذهاباً وإياباً كأنه يبحث عن عرق.. يفعل هذا وهو يواصل ضحكاته، ويتمتم بالكلمات عند أذني: تاليوم.. كان تاليوم.. تعرف ماذا يكون التاليوم؟.

بدني الذي ظل ساكناً ارتعش عند سماع كلمات الرجل.. نعم أعرف التاليوم.. يالبشاعة الرجل.. التاليوم مادة تسري في الجسد.. تدمره خلية خلية.. يتساقط شعر الرأس شعرة وراء الأخرى.. تبدأ الأطراف في الارتجاف.. يفقد الجسم القدرة على السيطرة.. يختل ميزانه وتتوقف مراكز الإحساس.. يفقد المرء القدرة على الأكل.. يتحول إلى وحش ينهش نفسه.. يموت كلّ لحظة.. أعرف هذا السم القاتل.. لقد وضعوه في طعام بعض الضباط أثناء حرب الخليج الأولى ليتخلصوا منهم في هدوء.. ولما أصابهم المرض أنهوا خدمتهم.. ولم ينسوا أن يكرموهم بدعوى أنهم أبطال تفانوا في خدمة النظام والشعب.

زاد الرجل من وخزاته المؤلمة.. أحس بالقلم ينغرس في الجلد..

وتنغرس في ظهري أيضاً أنفاس الرجل اللاهثة.. وبمدماته تتسارع بالكلمة المجنونة.. تاليوم.. تاليوم.. يدور حولى كثور هائج.. يلفحنى بأنفاسه الكريهة.. لوأملك بقية من قدرة لبصقت في وجهه ورفسته بين فخذيه.. وقع أقدام آتية في الممر أنقذتنى من أنفاسه.. قال له رفيقه أنهم آتون.. إبتعد عنى.. فُتح الباب واسعاً.. دخل عزام ثم تبعه عدى...ومن خلفهما تتابع اثنا عشر حارساً.. كلهم كانوا يرتدون حللاً سوداء وتتخفى عيونهم خلف نظارات الريبان.

تقدم عدى نحوى.. أخذ يلوح بكرباجه.. سألنى وهو يضحك في فجاجة: كيف وجدت التأديب.. اكتفيت أم تحتاج إلى أسابيع أخرى.. نظر إليّ في كُره.. لوح بكرباجه أمام وجهى.. وضرب به الهواء.. أخذ يدور حولى ويكرر السؤال: هل اكتفيت؟.. لاينتظر جواباً.. يقولها متلاحقة.. يصرخ فجأة ويضربنى على صدرى: أجبنى.

بماذا أجيبك أيها الشرير.. الجواب هاهو أمامك.. هيكل عظمى.. وشفاه متورمة.. وظهر تغطيه الجروح والقذارة.. انهارت قواى تحت وقع الضربات.. رجوته في صوت واهن أن يرحمنى: سيدى لم أعد أحتمل.. سيدى أنا فدائيك وسوف أكون دائماً.. أنت تسيطر عليّ. سوف أكون رهن أمرك.. الله يحمى الرئيس.. وولده القوى ويحفظهما من كل سوء.

توسلاتى لم تجد إليه طريقاً.. أمر الحراس بمعاملتى معاملة القرود.. قال لهم: احلقوا له مثل أولاد العبيد الأفارقة.. وكان يعنى بأولاد العبيد الثوار الشيعة أتباع حزب الدعوة الإسلامى.. الثوار الذين تراجعوا إلى المستنقعات وراء دجلة والفرات بعد الحرب.. ليعاودوا شن الهجمات ضد قوات صدام.. المواجهة معهم تزداد شراسة.. يحرق جنود النظام غابات كاملة ويمسحون سطح المستنقعات بحثاً عن الثوار.. يأخذونهم لتحصدهم

الطلقات بلارحمة.. يؤخذون الشيوخ إلى حيث الإذلال.. يحرقون الشوارب واللحى وشعر الرأس.

قبض الحارس على رأسي.. قص شعري وسوى ذقني.. مرغني بالصابون.. وسبني.. أخذ الباقون وعلى رأسهم عدي يدورون حولي وهم يتراقصون ويضحكون في مجون.

تناول عدي شفرة الحلاقة من الحارس..لامس بها رقبتي.. مررها على وجهي إلى أن وصل إلى رأسي.. وأخذ ينزع الشعر كالمجنون من على فروتها.. بعد أن فرغ من الرأس استدار إلى الحاجبين والذقن.. أخذ يصفق وهو يتطلع إليّ.. ويضحك في صخب .. قرد شيعي..هاها.. هكذا وصفني بعد أن أهان شرفي.. قلت يائساً: سيدي.. أرجوك أقتلني.. قلتها بصوت واهن.

ألقى بالشفرة على أرض الزنزانة.. استدار دون أن ينطق.. غادرني.. وفك الحراس قيودي.. حملوني كخرقة بالية وقذفوا بي إلى الأرض الحجرية.. شدوني إلى الخارج.. ألقوا بي في المقعد الخلفي لسيارتهم.. سارت السيارة بنا بعيداً عن المعسكر.. كانت تسير في الطريق إلى منطقة الأعظمية.. مروا أمام بيتنا.. تمهلت السيارة في سيرها.. على بعد خطوات من الباب دفعوا بي إلى الخارج.. ثم انطلقوا.. جسدي المنهك ورأسي الذي أدمته شفرة الحلاقة الماني عندما ارتطمت بالأسفلت.. فقدت الوعي.. ثم جاهدت لأستعيده.. زحفت على الأرض إلى أن وصلت إلى باب بيتنا.. بقبضتي الواهنة أخذت أدق وأدق.. أجاهد ليسمع أحد دقاتي.. انخرطت في البكاء وأنا مهان ومحطم القوى.. امتزجت الدماء بالدموع.. وانفتح الباب.

وقفت أمي تتطلع إلى المكوم أمامها.. تراجعت قليلاً.. لم تتعرف عليّ..

تراجعت من الخوف.. ظننت أن الكم المكوم تحت قدميها أصلع الرأس دامي الوجه ليس إلاّ متسول من متسولي بغداد الذين حفلت بهم طرقات المدينة بعد الحرب.

ماما.. نطقتها بصوت واهن.. لكنها سمعتها.. تطلعت ثانية إليّ ولم تقوَ على معانقتي.. أخذت في الصراخ ثم هرولت إلى الداخل.. جاءني صوتها وهى تنادى اخوتى في هلع.. جاؤوا مسرعين.. حملوني إلى الصالون.. انصرفت جلالة إلى أمي تواسيها.. تكفكف دموعها.. أتوا لها بكوب ماء.. صرخ أخي الأصغر: نحتاج إلى طبيب.. لأمي وللطيف.. يجب أن نأخذهما إلي المستشفى على الفور.. رفعت يدى قليلاً.. قلت بصوت أقرب للهمس: لا.

قال: لماذا؟.. أجبته: لاتسألني، ساعدني فقط..

قال: أستطيع أن أساعدك إذا كانت لدى الوسيلة.

أخذ يحاول أن يضمد جراحي.. تطلع إلى ظهرى وقال لافائدة.. يجب أن آخذك إلى المستشفى.. لم أقوَ على المعارضة.. أخذونى إلى مستشفى خاص وسجلونى تحت اسم مستعار.

بقيت رهين الفراش. كانت حالتي بالغة السوء. فقرات الظهر ليست في موضعها الصحيح. الجروح المتقيحة المنتشرة على ظهري تجعل النوم حلماً عزيز المنال. تتسلل أصابعي إلى الجلد لتحكه.. تدميه.. تحاول أن توقف الآلام التي خلفها الماء القذر.. ليالٍ طويلة من المعاناة والألم والأوجاع المبرحة.. لولا الرعاية الفائقة التي بذلها أطباء المستشفى لطالت إلى أكثر من ذلك.. حالتي آخذه في التحسن.

وطدت العزم على أن لا أعود إلى دنياهم.. أن أنفلت من عالمهم

القاتل.. لكن كيف.. عليّ أن أتدبر أمري. أن أهرب من بغدادهم. لا بل من العراق كلها.. وطويت قراري في حناياها.. كتمته في صدري.. وأخذت أنسج تفاصيل خطتي.. عليّ أن ألتزم أشد جوانب الحيطة والحذر لأخرج من جحيمهم.

أخذني الأهل إلى دفء منزلنا بعد أن تعافيت.. أحاطوني بدفء عواطفهم ليمسحوا عن نفسي لوعتها وقسوة الأيام.. بعد أيام طُرق بابنا.. جاء رجال عدي.. عزام التكريتي وسلام العوسي وأحمد سيلمان.. قادوني إليه في سيارة خاصة.. قالوا:عدي ينتظرنك في مقر اللجنة الأولمبية العراقية.. شد على يدي في حرارة واحتفاء.. بالغ في الاعتذار عن كل ماسببه لي من معاناة.. أخذ يتملى ملامحي.. خاطبني بود:لطيف.. صديقي العزيز.. لم تكن بعيداً عنا.. كنت أتتبع أخبارك طيلة مدة رقادك رهن الفراش.. وكان يشغلني القلق عليك.. ولقد تمنيت أن تتعافى وتعبر محنتك.. أصدقك القول.. طيلة سنواتك معنا لم نر منك سوى الخير.. لم تقصر في أداء واجبك.. رغم كل شيء سوف تكون صديقاً لي.. وسوف تجدني عوناً لك.. بابي مفتوح دائماً في وجهك.. كل ماتحتاجه سوف ألبيه لك.

تمهل.. عاود التحديق في وجهي.. وألقى جملته المفاجأة قال وهو يضغط على الكلمات: من هذه اللحظة أنت حر.. لقد «سرحتك» من خدمتي.. ومن كل عمل حكومي.. أعاد التأكيد: من هذه اللحظة أنت حر.. تقافزت الأفراح داخلي.. حر.. تنفست بعمق.. بدت عليّ ملامح الارتياح.. وأضاف الماكر بعد أن ترك لي لحظات من النشوة: فقط عليك أن توقع هذا التعهد.

رياح الحرية التي تحوم حول رأسي.. نسماتها الندية التي تلامس

وجهي تنساب داخلي.. بلا وعيٌ صافحت نظراتي سطور الورقة التي امتدت بها يد عدي.. قرأت متعجلاً سطورها.. سطور عتقي من نارهم:

«أقر أنا الفدائي لطيف يحي أن أمتنع عن الافصاح عن أيٌ سر أو معلومة أو أي واجب قمت بــه وأنا في خدمة الأستاذ عدي صدام حسين.. وأن لا أبوح أيضاً بأيــة معلومات عن أيّ منطقة من المناطق الأمنيــة التي زرتها أو تدربت فيها أثناء خدمتي.. وأن أحرص على عدم الكشف عن أي اسم من أسماء منتسبي المخابرات أو جهاز الأمن الخاص.. وكذلك أيْ شخص تعاملت معه أثناء مدة خدمتي لدى الأستاذ عدي.. وأيْ مخالفــة مني لهذا التعهد تجعلني عرضــة لعقاب يصل إلى درجــة الإعدام».

رغم هول العقاب الذي لوح بــه التعهد وقعت.. لم أتردد.. بوابة الحريــة الواسعة تنتظرني.. لم أحفل بورقتهم.

أخذ التعهد مني.. دقق في الامضاء.. علت الراحــة ملامحــه.. قال متمهلاً: نحن نقدر جهود من يخدموننا بإخلاص.. وأفصح عن المكافأة:

- مكتب للاستيراد والتصدير في شارع فلسطين.
- مزرعة صغيرة يتوسطها بيت مجهز.
- سيارة سوبر يابانيــة.
- 300 ألف دينار.
- بطاقتان باسمـــه يتيحان لي التمتع بجناحين.. واحد في فندق بابل أوبروي والآخر في فندق الرشيد.. تنازل عنهما لي.

زاحمت فرحتي بالهدايا فرحتي بالحريــة.. آن لي أن أنعم بحياة رغدة.. أن أرفل في حلل السرور.. جاهدت لأتمالك نفسي. سلمته المفاتيح

التي أحوزها.. مفاتيح شقتيّ مجمع القادسية وعمارة الحياة.. تعانقنا.. وهممت بالرحيل.

قال قبل أن نفترق أود أن أقول لك شيئاً.. لطيف صديقي.. عندما تراني أدخل فندق ميليا منصور أو الرشيد أو أيّ مكان آخر عليك أن تغادر على الفور.. لاتنتظر أن ينبهك أحد إلى ذلك.. وأضاف: من الغد سوف أبعث إليك باثنين من حراس اللجنة الأولمبية.. حتى لاتتعرض لمشاكل.. أعرف أن الهدف هو إخضاعي للمراقبة وليس للحماية.. لم أحفل.. قلت في داخلي: سوف أتدبر أمري.. المهم أني أصبحت طليقاً.

غادرت إلى منزلنا.. جلست وحيداً أمعن التفكير فيما اعتزمت.. أرسم الخطط للفرار.. الانفلات من القفص.. عند الساعات الأولى من صباح اليوم التالي جاء الحارسان.. تيمور محمد ومروان هاشم.. قدتهما إلى الداخل وكنت قد أعددت نفسي للّقاء.. واستقر داخلي ماسوف أتبعه من سلوك في أيامي القادمة.. قالا إنهما يضعان نفسيهما تحت أمري.. قلت: وأنا بحاجة إلى المعاونة.. وشرحت ما أرمي إليه.. سوف ترافقاني بعد قليل إلى النهضة.. أود أن أعرض سيارتين للبيع واحتاج للمعاونة.. لم يظهرا ممانعة.. تحركنا أولاً إلى القصر لنأتي بالمرسيدس التي أهداني إياها صدام، ثم ذهبنا إلى مقر اللجنة الأولمبية لنأخذ السيارة المهداة من عدي.. وذهبنا إلى النهضة.. قدت أنا سيارة أخي.. وقادا هما الأخرتين.. توقفنا عند واحد من المعارض المنتشرة هناك.. دلفت إلي الداخل وحادثت صاحب المعرض.. أفصحت له عن غرضي.. وخرج الرجل للمعاينة.. شدت واحدة من السيارات التي تزحم الصالة انتباهي.. كاديلاك سوداء فارهة.. عندما عاد الرجل حادثته بشأنها.. قلت أود شراءها.. قال مفاخراً: إنها سيارة الرئيس البكر..

أتاني بها ابنه هيثم.. لم أجادله كثيراً حول السعر الذي حدده للسيارة.. قلت له: بعد ساعة واحدة سوف أعود إليك ومعي المبلغ.. ولم يطل انتظار الرجل.. دخلت عليه ثانية ونقدته ما اتفقنا عليه.. 80 ألف دينار.. حررنا العقد.. وتركت له سيارتيَّ ليعرضهما للبيع.

تركت السيارة الصغيرة لواحد من الحراس ليقودها.. وجلست أنا إلى مقود الكاديلاك.. كانت فخمة وواسعة.. يفصل حاجز زجاجي بين مقعد القيادة والجزء الخلفي.. في الخلف جلس الحارس الآخر مسترخياً.. ربما راودته في جلسته الأحلام.. تخيل أنه الرئيس البكر.. تسللت إلى ثغري ابتسامة واسعة.. قدت السيارة مسرعاً إلى المنزل.. دلفت إلى الداخل في استعجال.. نشطت أجمع أغراضي.. قلت للأهل: ذاهب أنا على التو.. سوف أذهب إلى مزرعتي في الراشدية.. كنت فظاً في مخاطبتهم.. اتسم سلوكي تجاههم بالخشونة.. خشونة لم يعهدونها في.. لم أتعمد ذلك.. لكن لاحيلة لي.. ذلك الساكن داخلي طبعني بسلوكه الخشن.. أمات داخلي لطيفهم الذي كنت.. وخلف صورته وسلوكه الشائن.. جعلني قرينه العدواني.. صرت عدياً آخراً.

أمرت تيمور أن يأخذ الأغراض إلى السيارة.. غادرت دون وداع لائق.. قلت والعجلة بادية عليَّ: سوف أمر لأراكم بين حين وآخر.. سوف أفعل كلما سنحت الفرصة.. ودعوني بصمت مجلل بالحزن.. ودعوا لطيفهم الذي طالما انتظروا عودته.. وهاهم يفقدونه من جديد.

ومع الحارسين كنت خشناً أيضاً.. تعمدت ذلك.. لقد قررت أن أكون هكذا.. فظاً وقاسياً.. أعرف أنهما يسجلان عليَّ سلوكي.. حركاتي وسكناتي.. هكذا دربوا وهذه مهمتهم التي أتيا من أجلها.. أتيا ليكونا عيناً لعدي.. بعثهم لمراقبتي وليس لحراستي.. أعرف ألاعيبه.. وهاأنا

ألاعبه بدوري.. سوف يصله عبرهما أن لطيف الذي يعرفه ولى.. وأن لطيفاً آخر في طور التخلق.. لطيف على شاكلة عدى.. عابث وماجن.. لاهم له إلاّ تجرع كأس الحياة حتى ثمالتها.. قدرت أن سبيلي إلى الانعتاق يحتاج إلى قدر من الحيطة ومكر الثعالب.

وكان عليّ أن أتمادى في مسلكي الجديد.. أقضي الليالي معربداً.. أدلف مع مطلع كل ليلة عبر بوابة فندق جديد.. ولكل ليلة فتاة جديدة أصحبها في نهايتها إلى فراشي.. وامتدت شباكي إلى سنيات كثيرات.. ومنهن من كانت على علاقة بعدى في وقت ما.

وهكذا مرت أشهر متعاقبة وأنا أدور في هذه الساقية المجنونة.. لاهم لي إلاّ الفسق والحياة الداعرة.

وازداد مسلكي خشونة.. في المرات القليلة التي قادتني قدماى إلى بيتنا لم أحرص على كبح جماح خشونتي.. كم من مرة دفعت بمسلكي الشائن أمي الحبيبة إلى بكاء حارق.. كنت أمزق بحالي فؤادها.. وأبي ذلك الحكيم المسربل بالصمت.. انصرف عني.. جاهد كي لاتفصح ملامحه عن ألم يعصف به.

عودتي إلى المجتمع البغدادي لم تفاجىء معارفي.. لقد تعود ناس العراق على مثل هذا النوع من المسرحيات.. لم تخل عليهم مسرحية إعدامي التي بثها تلفاز النظام.

الخطر لازال يحيط بي.. خرجت وبصحبتي واحدة من الفتيات آخر الليل نتطوح من السكر.. صعدنا وبرفقتنا الحارسان إلى السيارة.. لم نتحرك إلا أمتار بعيداً عن بوابة فندق بابل.. فاجأتنا طلقة قطعت سكون الليل.. استقرت في مقدمة السيارة ونجونا نحن.. جاءت الطلقة من سيارة بلا أرقام مرقت مسرعة إلى جوارنا.. أطلق راكبها نار

كلاشينكوفه يقصدنا لكنه أخطأ التصويب.. أو ربما لم يرد أن يدققه عامداً.. توقفنا.. أحاطتنا سيارات جهاز الأمن الخاص التي كانت تزحم المكان.. تعرف عليّ رجال الجهاز.. أدوا لي التحية العسكريـة.

لملمت أعضائي المبعثرة من أثر الخمر والمباغتـة.. أطلقت أوامري للحارسين.. قلت لواحد منهما: عليك أن تذهب بالسيارة إلى الكراج.. وأمرت الآخر بأن يصحب الفتاة إلى داخل الفندق.. ووقفت أحادث رجال جهاز الأمن الخاص.. رجوتهم أن لايحفلوا بالأمر.. وأن يتصرفوا وكأن شيئاً ما لم يحدث.. وعدت ثانيـة إلى جناحي.. أطلقت الماء على جسدي ثم تسللت إلى الفراش طلباً للراحـة.. أي راحـة؟!.. دق الهاتف دقات متتابعـة وكان الملعون على الطرف الآخر.. جاءني صوتـه وهو يتصنع الهلع لما تعرضت لـه.. قال: حمداً للـه على سلامتك.. سوف أرسل نمير وسائقي الخاص ليصحباك.. سوف أنتظرك في الرشيد.

عدى من جديد.. يا ألطاف الله.. لماذا لا يتركني ذلك الأفاق.. لماذا لماذا!!.. جلست على حافـة الفراش تدور السؤالات برأسي.. وجاء نمير والسائق.. تركت الفتاة ممدة في الفراش.. أمرتها بالنوم وذهبت بصبحتهما إليه.. دلفنا إلى الفندق.. وخطونا إلى القاعـة الواسعـة.. قاعـة ألف ليلـة وليلـة.. أجمل قاعات الرشيد.

كان كما أعتدتـه.. يعابث فتياتـه ويتطوح بفعل الخمر.. سارع إليّ. عانقني.. قال باسمـاً: مرة أخرى حمداً للـه على سلامتك.. أنت ذئب ولاخوف عليك.. لعبة أطفال كهذه لا تخيفك.. مرت عليك عشرات منها.. تعال ومتع نفسك.

لم أكن ذلك اللطيف الذي عهده في السابق.. لم أقبع في ركن أرقب الجمع الصاخب كما اعتادني.. أفصحت عن رغبتي في الرقص.. قال

معلقاً: تغيرت يا صاحبي.. قلت ضاحكاً: من يعاشر القوم.. ولم أكمل الجملــة الشائعــة.. أخذت فتاتان إلى وسط القاعــة.. خاطبت الفرقة التي تعزف.. قلت بصوت زاعق: أريد أغنية خاصة تمجد السيد الرئيس.. جاء عدى وراقصني.. دفعتــه النشوة لمسلكي إلى إطلاق نار مسدســه كالعادة إلى سقف القاعــة.. وفعلت أنا ذلك أيضاً.. حسن يا لطيف.. تجري خطتك في مسارها الصحيح.. قلت هذا لنفسي.. وأضفت: عليك أن تتمادى في خداع ذلك العديّ حتى يركن إليك ويأمن جانبك.. عليه أن يصدق أنك تحولت.. أصبحت مجرد صعلوك يحرص على المتعــة.. ولاخوف منه على الأسرار التي يحوزها بين جوانحــه.

قلت: عدى صديقي.. لقد هدني التعب. اسمح لي أن أعود إلى فراشي.. ودعتــه وعدت إلى الفندق.. استسلمت للنوم حتى عصر اليوم التالي.

عزمت على الإسراع في خططي.. يجب أن أجمع الدولارات استعداداً للرحيل.. نشطت في شراء آلاف منها من السوق السوداء.. خبأت نقودي في مكان أمين في بيت المزرعــة.. طلبت من حارسيّ أن يعرضا الكاديلاك للبيع وأن يأتيا لي بثمن السيارتين السابقتين.. واشتريت لاستخدامي سيارة أولدز موبيل أمريكية. وحافظت على مسلكي الجديد.. السهر والعربدة في كل ليلــة.

أدرت قرص الهاتف لأحادثــه.. قلت لــه بعد المجاملــة: عدى صديقي.. لقد مللت الحراســة.. أرجو أن تعفيني منها.. أريد أن أكون وحيداً.. قلت له ذلك ضاحكاً.. وكنت أراوغــه.. دعاني إلى المكتب رقم سبعة.. ذهبت إليه تسامرنا في ألفــة.. قال مستجيباً لرغبتي: مادمت لاترغب في الحراس ليكن لك هذا.. ودفع إليّ بجهاز لاسلكي.. قال: عندما

تحتاج إلى شيء حادثني عبره.. اجعله دوماً معك بديلاً عن الحراس.. شكرتـــه وتعانقنا.

ماذا عليَّ أن أفعل.. الأيام تتسارع.. والخطــة اكتملت ملامحها في رأسي.. نقودي لابد وأن أودعها إلى من أركن إلى جانبــه.. قادني التفكير إلى صديق طفولتي.. حادثته على مهمل.. أودعت ماأملك عندة.. قلت: احفظ لي نقودي عندك.. عندما احتاجها سوف أرسل لك من يأتيني بها.. سوف يأتيك ويرفقته خطاب ممهور بتوقيعي.. رجوتـــه أن يسلمها له على الفور.. وتعاهدنا على ذلك.. وعدت إلى السهر من جديد.. وكان صديقي دوماً في رفقتي. وحدثتـــه بحكايتي. رويت لـه ماجرى لي.. أزحت عن كاهلي بعضاً من همومي وألقيتها عليه.. وأفصحت لـــه أيضاً عن رغبتي في الفرار.

أصابه الهلع.. تمهل قليلاً.. حرص أن يرتب كلماتـــه.. قال إن في الأمرمخاطرة كبيرة.. قلت: لقد وطدت العزم على ذلك.. وأضفت: عليَّ أن أحاول.. وحاولت أن أقطع الطريق على معارضتـــه: هذه فرصـــة قد لاتتكرر.. النظام يعاني من هزة قوية تعصف بأركانـــه.. يفكر فيما هو أكبر من لطيف.. وأفصحت عن الموعد: استقر قراري على الفرار «ليلـــة رأس السنة».. قدرت أنها أنسب توقيت.. سوف يغرق أركان النظام في اللهو والعربـــدة.. وسوف تتراخى القبضـــة على مفارق الطرق.

قلت: صديقي لا وقت للمراجعـــة.. أطلب منك العون.. رجوتـــه أن يكون أميناً على حكايتي وأن ينقلهـــا قدر استطاعته لتتلقفها الشفاه بعد أن أنجح في المغادرة.. وخرجت ذات مساء أتجول.. كنت أقطع الطريق على مهل في منطقة المنصور.. ووجدتـــه في مواجهتي.. عادل الجنابي.. الصديق الجديد لعدي.. قواد مشهور أتخم في الآونـــة الأخيرة ملاهي بغداد بفتيات من الريف.. صنف جديد استهوى عدي.

قال الرجل مستفسراً: شاهدت سيارتك الكاديلاك في المعرض.. لكنك

بالغت في السعر المطلوب.. وأفصح لي عن رغبتــه في الشراء.. عرض سعراً أقل مماهو مطلوب.. قلت له لا أرغب في البيع وانصرفت.

قادتني قدماى في الليلــة التالية إلى قاعــة ألف ليلــة وليلــة.. جلست لتناول وجبة العشاء.. دخل عدى وحولـــه الزمرة.. النساء والأصدقاء.. ومنهم عادل الجنابي.

هممت بالرحيل.. تذكرت مأمر به عندما أعتقني.. قال: لطيف إلى أين؟! ذهبت وصافحتــه.. قلت: لقد أمرت أنت بهذا.. وذكرتــه بماقال.. ضحك بصوت عالٍ.. قال: يعجبني أنك لاتنسى وتحترم تعهداتك.. لاتذهب.. تعال شاركنا بعد أن تكمل وجبتك.. أطعتــه.. وحفلت الليلة بالمجون وشاركتهم فيه.. قبل أن أغادر دعاني إلى حفلـــة سوف يقيمها في المساء التالي في رحاب فندق ميليا منصور.. قال إنـــه يقيمها بمناسبة أن الوالد منحـــه أنواط الشجاعـــة تقديراً لجهوده في الكويت وجهوده في التصدي للأكراد.

الآلام تتقافز في رأسي من جديد.. قدت السيارة على مهل.. أىْ شجاعــة أيها المفتون.. لقد تعرضت أنا للموت هناك.. بينما أنت سادر في غيك ولهوك.. لكن لاحيلـــة لي.. لابد وأن أذهب.. أن أرسم على وجهي علامات السرور والبهجـة.. أن أجيد أداء الدور الجديد الذي أخترتــه طريقاً للإفلات من عالمهـــم.

1991 / 12 / 9

ذهبت في الموعد تماماً.. تعالت دقات الساعة.. التاسعـــة تماماً.. وأنا أدلف إلى داخل فندق ميليا منصور.. أخذت المصعد إلى الطابق الأخير..

دلفت إلى قاعـة الاحتفال.. أومأت بالتحيـة للمتحلقين حول الموائـد.. وأخذت مكاني.. ناديت النادل وطلبت زجاجـة ويسكي وثلج وسلاطات.. وقبل أن أهنأ بشراب كأسي الأول.. دلف إلى القاعـة.. طالعني.. كان متوقداً بغضب جامح.. تجاهلني.. فبقيت في مقعدي.. دارت الأفكار بي أخذت أفتش عن سبب لتغيره.. نصف ساعـة طالت ولم أجد جواباً لحيرتي.. تحاملت على نفسي وقصدت «التواليت».. هناك وجدت واحداً من حراسـه.. أحمد سليمان.. صافحني وقال هامساً: ماذا فعلت لطيف؟.. الأستاذ غاضب عليك!!.. أجبتـه: لاأعرف.. بالأمس كنا نضحك ونمرح معاً .. وجاء هو.. وقف قبالتي.. لم يتركني أكمل جملتي.. صرخ في وجهي: لطيف ماذا قلت لعادل الجنابي.. حدثتـه بماجرى في المنصور.. قلت له إن الرجل طلب مني شراء سيارتي وأنا أبيت.. عاد للصراخ: أنت كاذب.. لقد قلت إنك لاتبيع سيارات لقوادي عدي.

ياله من فاجر ذلك الجنابي.. لقد نجح في إيغار صدر عدي.. كاد لي عنده.

وعاد عدي يصرخ من جديد.. أمرني أن أظل في موضعي حتى ينتهي الاحتفال.. قال: لاتتحرك.. سوف آتي لآخذك معي.. فهمت.. كانت النيران المستعرة في حدقتيـه واضحـة التأجج.. التفت إلى الحارس أحمد سليمان.. أمره أن ينتبه لامتثالي للأمر.

رياح الخوف أخذت تعصف بي.. تقافزت صور مجرمي دورة الضبط «غالب» و«عبد الحسين» و «أبونبيـة» في رأسي.. أحسست من جديد بضربات كرباجـه الأسود.. لابد وأن تخرج من هنا يا لطيف.. كيف؟!.. عليك أن تحتال للأمر.. كتمت عواطفي المهتاجـة.. وجانبت أحمد أطراف الحديث.. أخذ أسامره قرابـة الساعـة حتى هدأت خواطره.. أدركت أن

الفرصة مواتية.. قلت: أحمد.. لماذا لا نشرب.. اذهب واحضر لنا ما يطفىء ظمأنا يارجل.. غالب خوفـــه وضحك.. وذهب ليحضر كأسين لنا.. على عجلـــة ضغطت زر المصعد وألقيت بنفسي إلى جوفـــه.. حملني إلى الدور الأرضي.. هرولت إلى سيارتي.. أدرت المحرك وقلت وداعاً بغداد.

انتبه بعض الحراس لصوت المحرك.. انطلقوا بسيارتهم ورائي.. أطلقت للسيارة العنان.. وظلوا يحاولون اللحاق بي.. نجحت في تضليلهم.. حاورت وداورت في شوارع بغداد الواسعـــة والضيقـــة حتى غابوا.. تنفست الصعداء وأخذت الطريق المؤدي إلى محافظـــة «نينوى».

ماذا أنت فاعل بالطيف.. كان عليَّ أن أحشد أفكاري.. لم يكن في حوزتي غير ثلاثـــة آلاف دينار ومسدسي الشخصي وجهاز اللاسلكي.. وبضع بطاقات بأسماء مستعارة.

أخذت دقات قلبي تتسارع.. حاولت أن أكون رابط الجأش.. لاحت أمامي نقطـــة عسكريـــة على الطريق.. أوقفت السيارة.. أنحنى الحارس يطلب بطاقتي.. أطفأت المصباح الداخلي.. تعرف على شكلي.. تقهقر إلى الوراء وأدى التحية العسكريـــة.. عدت لأتنفس الصعداء.. وانطلقت أنهب الطريق.. لم أتوقف إلاّ عند آخر نقطة عند مدخل نينوى.. وصلتهـــا عند الخامســـــة صباحـــاً.. الحراس لايدققون.. يكتفون بالتلويح علامـــة الموافقـــة على الاستمرار.

1991 / 12 /10

الآن عليَّ أن أختار إلى أي الأصدقاء أذهب.. استعرضت في رأسي مَن مِن الأصدقاء يمكن أن أركن إليه.. استقر تفكيري على أحدهم كنت

على ثقــة من قدرتــه على كتمان أمري.. قصدت بيتــه.. طرقت الباب والجرس معاً طرقات متواصلــة.. جاء مهرولاً.. وجدني أمامــه.. عانقني بشوق.. تسللت رياح الطمأنينة إلى داخلي.. أخذت أنفض خوفي وهواجسي.. قلت لــه: أفتح كراج المنزل وتعال لنخفي السيارة.. أدخلناها وأحكمنا عليها الغطاء حتى لا يكتشف أحد أرقامها.. عدنا إلى المنزل.. تهالكت على أول كرسي.. غاب قليلاً وأتى لي بكوب شاي طلبتــه.. أخذ يتطلع إليّ.. عاجلته بمايدور داخلي.. قلت له: أريد أن أرحل إلى كردستان.. ومنها إلى الخارج وأود المساعدة.. علامات القلق بدت على ملامحه.. قلت: لاأريد أن أسبب لك حرجاً.. لوكنت خائفاً سوف أرحل على الفور.. أجاب بحسم: لاتهتم سوف أدبر لك كل شيء.. النقود قادرة على فعل المستحيل.. أفصحت له عن ماأحوز.. قلت : لا أملك الآن سوى ثلاثة آلاف دينار ومسدسي.. قال: هذا يكفي لكي تصل إلى دهوك.. هناك سوف تكون في أمان.. لاحكومة هناك.. ليس سوى البشماركا.

في غبشة المساء أخذنا السيارة إلى غابات «الموصل».. تركناها بعيداً عن الأعين.. وقذفت بجهاز اللاسلكي قدر استطاعي ليستقر في جوف نهر الموصل.. تنفست الصعداء.. وقفنا على الطريق.. لوحنا لسيارة أجرة.. حملتنا إلى المنزل ثانية.. وجلس صديقي يستعرض أسماء المهربين ليجد من بينهم من يقوم بمهمة مرافقتي إلى دهوك.. وعندما استقر على الإسم تركني خارجاً.. عاد بعد ساعتين قال إنه اتفق مع اثنين.. قال إنهما سيقومان بالمهمة.. وأضاف: سوف يحضران في تمام العاشرة من صباح الغد لمرافقتك.. بت ليلتي أتقلب في الفراش غير قادر على النوم.. عاجز عن طرد المخاوف التي أخذت تحوم حول رأسي.. وجاء الرجلان في الموعد تماماً.. ودعت صديقي معانقاً وتقافزت الدموع في

الماقي.. قدمت له المسدس الذي بحوزتي.. قلت له كي تتذكر لطيف.. عاد لمعانقتي.. صافحت زوجته.. شددت على يدها شاكراً.. وانطلق ركبنا.. قاد السائق السيارة في طرق وعرة ليتحاشى التوقيف.. ساعة كاملة حسبتها دهراً.. وعند مشارف قرية صغيرة انتبهت على توقف السيارة.. وترجلنا.. تركنا السيارة على الطريق.. ثماني ساعات متواصلة قطعنا فيها طرقاً وعرة وغير مطروقة.. وممرات ضيقة.. هدنا التعب ونحن نجاهد لنحمي أقدامنا من الانزلاق.. طرق جبلية وعرة ومغطاة بالثلوج.. دخلنا إلى غار آمن طلباً لبعض الراحة.. ثم واصلنا.. إلى أن وقفت بنا أقدامنا عند مركز للمقاتلين البشماركا.. قابلونا بود.. حرصت على محادثتهم بالكردية.. أعطونا سيارة قديمة متهالكة لتعيننا على إكمال الرحلة.. الآن بلغنا بر الأمان.. قال ذلك قائد السيارة.. تطلعت إلى المعالم التي أمامي.. لاحت لي مشارف دهوك.. تنفست الصعداء.. وزايلني الخوف.. لامظاهر من حولنا تقول إننا الآن في العراق.. الجميع يرتدون الملابس الكردية المميزة.. يخطرون في سراويلهم العريضة.. جميعهم يحملون السلاح.. أعلام مختلفة وصور للقادة الأكراد تزين مداخل البيوت وتزحم نواصي الطرق.. همست لمجاوري باسم قريبي الذي أرغب الذهاب إليه وذكرت له العنوان.. أومأ علامة الموافقة.. أخذ يفتش عن الطريق إلى القرية التي أرغب في الذهاب إليها.. استعان بسؤال المارة.. وقفت بنا السيارة في مواجهة البيت.. طرقنا الباب وانتظرنا.. وقف قريبي لبرهة يتأملني ثم سارع بضمي إلى صدره في شوق عارم.. لم يصدق أن الذي تضمه أحضانه هو لطيف.. أطال العناق.. سرى الدفء إلى داخلي.. غمرتني الهناءة لفرط مودته.. جلسنا جميعاً إلى المائدة العامرة التي نشط أهل الدار في إعدادها.. عاد الدليلان في طريقهما إلى نينوى بعد أن نقدتهما

الألف دينار التي اتفقنا عليها.. وعدت إلى قريبي نتبادل أطراف الحديث.

---

12 / 12 / 1991

حدثت الابن الأكبر لقريبي عن رغبتي في زيارة مقر من مقرات الأمم المتحدة لألتمس عندهم المساعدة على الخروج من العراق.. قال: المنطقة الآن خطرة وتبدو هيئتك غريبة.. ونخاف أن تقع في أيدي الرجال المتناحرين هنا.. رجاني أن أمزق أي وثائق أحوزها قد تكشف عن علاقتي بدوائر الحكم في بغداد.. وقال بعد أن قلبنا الأمر معاً: في الغد آخذك إلى مصور ليلتقط لك صورة شخصية تعيننا في تدبير شهادة جنسية لك.. الأمر لن يكلف أكثر من مائة دينار.

حزت الشهادة التي دبرها ذلك الفتى النابه.. وتوجهت بصحبته إلى مقر الأمم المتحدة في دهوك.. خاطبتهم هناك باللغة الإنجليزية.. قادوني إلى مدير المقر لأشرح له أمري.. وقفت قبالته.. أخذت أتطلع إليه وهو يدون كل كلمة أنطق بها.. كان واضح النحافة وتميل بشرته إلى اللون الغامق.. بعد أن أفرغت له مافي جعبتي.. همهم بكلمات قليلة.. قال بفتور ظاهر: عد إلينا بعد أسبوع.. حاولت أن أستميله بمخاوفي لكنه أصر على الموعد الذي حدده.. عدت خائب الرجاء بغصة في القلب.

---

13 / 12 / 1991

قبل انتصاف النهار اهتز باب البيت تحت وقع طرقات متواصلة.. جاء من يسأل أهل البيت عن الغريب الذي عندهم.. خرجت إلى الرجال الذين جاؤوا في طلبي.. حدثتهم بأمري.. رافقتهم إلى مقر الجبهة الكردستانية..

حققوا معي.. اتسم مسلكهم بالرقة.. عاملوني بقدر واضح من الاحترام.. وقفت في مواجهة ستة من الرجال يمثلون الأحزاب الناشطة في المنطقة.. يمثل كل رجل من الرجال حزب من أحزاب المعارضة.. تلاحقت أسئلتهم ليختبروا صدق روايتي.. بقيت رهن الاستجواب حتى التاسعة مساءً.. أصابني التعب.

وتدافعت المخاوف من جديد إلى رأسي.. قال من وضح إنه يترأس جلسة التحقيق ـ وتبينت أنه مندوب الحزب الشيوعي العراقي ـ سوف تبقى هنا في السجن حتى نتحقق من روايتك.

مرة أخرى يالطيف.. يلاحقك السجن حتى بعد أن بعدت بينك وبين بغداد الشقة وحسبت أنك ودعت المتاعب.

لكن نجح أقربائي في الحيلولة دون سجني.. أكدوا للرجل أنهم يتعهدون بوضعي تحت أمر لجنة التحقيق في أى وقت إذا ثبت لديها أني مدان وأن روايتي فيها مايجعلني قيد المساءلة.

وعادوا بي إلى المنزل.. جلست على أول مقعد بعد أن هدني التعب من عناء الوقت الطويل الذي قضيته رهن التحقيق.. فاتحت قريبي في رغبتي استعادة النقود التي أودعتها أمانة في عنق صديقي في بغداد.. وبطريقتهم الحاذقة تدبروا الأمر.. أخذوني إلى من أشاروا إلى أنه كفيل بإنجاز المهمة دون مخاطر.. وسطرت رسالة لصديقي كما اتفقنا ومهرتها بتوقيعي.. وكتبت على ورقة منفصلة العنوان في بغداد.. أخذ الرسول الرسالةوانطلق.

---

15 / 12 / 1991

تلعب المصادفة أحياناً دوراً حسناً في حياتنا.. كنا جالسين في صحن الدار نقطع الوقت بالحديث.. طرق الباب ودخل علينا صديق لقريبي

عرفت أنه من تركيا.. بعد برهة من الوقت أفصحت له عن رغبتي الذهاب إلى هناك.. قال ناصحاً: لاأظن أن تركيا مناسبة لك.. وقال إن ساحاتها ومقاهيها تزخر بعراقيين كثيرين.. ولاتخلو من عيون لصدام.. وأضاف بلهجة الواثق: من الأنسب لك أن تذهب إلى مكتب التنسيق العسكري لقوات التحالف في قضاء زاخو.. سوف يسهل لك الأمريكيون الموجودون هناك الأمر.. لا تعول كثيراً على الأمم المتحدة.. إنهم يماطلون طويلاً.. قال ذلك بعد أن حكيت له عن موعدي معهم.

وتراقصت الفرحة في رأسي عندما عرض أن يصحبني في شاحنته.. قال: لدي سيارة كبيرة لنقل الكاز أقودها في طريق يمر بمكتب التنسيق.. وسوف آخذك معي في الغد.

---

16 / 12 / 1991

صحوت مبكراً.. جلست في الانتظار بعد أن أعددت نفسي للرحلة المرتقبة.. وجاء التركي في الوقت الذي حدده.. ودعت أهل الدار وأوصيت قريبي بالاحتفاظ بنقودي لوقدر لها أن تأتي.. قلت سوف آتيك لآخذها عند مايصلني منك الخبر.. وانطلقت بنا الشاحنة.. لم يمر وقت طويل حتى أشار الرجل إلى المبنى الذي وضحت ملامحه.. هانحن قد بلغنا مرادك.. توقف بالسيارة لأهبط .. ودعني.. وتمنى لي التوفيق.. وقفت في الباحة الواسعة.. بيتان كبيران تعلوهما أقراص الأقمار الصناعية.. تقف في ساحتيهما سيارات مدرعة وأخرى عادية.. قادتني خطواتي إلى البيت الأول.. ضغطت زر المناداة.. جاء من يستطلع القادم.. وقف في مواجهتي بملابسه الكردية قال بخشونة ظاهرة:نعم.. قلت: أريد لقاء المسؤول هنا..

أجاب بتعالٍ: لايوجد لدينا وقت.. وهم ليغلق الباب في وجهي.. قلت راجياً: أنا لست من هنا.. قادم من بغداد ولدي مشكلة.. طلب مني الانتظار ودلف إلى الداخل.. وقفت أمام الباب المغلق معلق بأمل أن يأتي من هو أكثر تفهماً.. خمس دقائق متلاحقة.. انفتح الباب ثانية وجاء آخر يرتدي ملابس عسكرية.. تبدو ملامحه أقرب إلى الملامح الأمريكية.. حدقت سريعاً في الشارة التي تزين حلته.. حروفها تدل على أن الرجل يحمل اسماً عربياً.. خاطبته بالإنجليزية ورد هو بالعربية بلكنة فلسطينية.. افتر ثغره عن ابتسامة واسعة وودودة.. قال مستفسراً: ماذا وراءك؟.. قلت: لدي مشكلة أريد لها الحل.. قال جملة واضح أنه دأب على ترديدها عند استقبال كل طارق: الأكراد لاتنتهي مشاكلهم.

قلت بصوت واضح وكلمات مرتبة لأقتحم سريعاً داخله: أنا لست من هنا.. لست من هذا القضاء.. ولا من الشمال كله.. أنا من بغداد.. التفت إلى الرجل الكردي الواقف إلى جوارنا.. أمره أن يدلف إلى الداخل.. ولما اطمأن إلى أننا وحدنا أضاف: لكن نحن لسنا جهة للمساعدة.. نحن فقط فريق حماية للأكراد ضد هجمات نظام صدام.. بغيتك هناك عند الأمم المتحدة.. شرحت له محاولتي معهم.. وكان على أن أدخل إلى منطقة المرمى.. قلت: ليست مشكلتي بالعادية.. وحياتي في خطر.. أخرج مفكرته وطلب أن أترك الاسم والعنوان.

: لطيف يحيى لطيف.. ملازم أول في جهاز الأمن الخاص.

وأصابت الكرة شباك المرمى.. لم يكمل الرجل تدوين النصف الثاني من الجملة.. حدق في ملامحي بعد أن باغتّه بجوابي.. اندفعت يمناه إلى مرفقي.. قادني إلى الداخل.. في منتصف الصالة الواسعة توقف بي.. قال غير مصدق: ماذا قلت؟.

أعدت تأكيد الرمية التي اخترقت مرماه: قلت لك اسمي وعملي.. وأنت سمعت جيداً.. أضفت لأمزق الشباك برمية أكثر إحكاماً: وأنا أكثر من ذلك.. أنا الفدائي الخاص لعدي صدام حسين.

ليس ثمة مجال للتردد.. شدني بترحاب إلى الغرفة الواسعة.. غرفة تزحمها الأجهزة.. أجهزة استقبال وهواتف.. أنواع متعددة أعرفها جيداً.. مثل التي تزحم هناك القصر الجمهوري.

وأفصح الرجل عن اسمه.. قال: اسمي سعدالدين حليم.. ويلقبونني هنا بـ «دين» وأضاف هل تود أن تحتسي شيئاً؟.

ذهب دين ليأتيني بكوب من الشاي وفق رغبتي.. عاد وعلى الوجه ابتسامة واسعة.. أصبح أكثر وداً.. قال عليّ أن أعتبر نفسي في بيتي.. أضاف في وضوح: لاتخف.. عندما نتأكد من هويتك.. سوف ننقلك إلى البلد الذي تريد، قلت أمازحه: هذا عمل الأمم المتحدة.. ضحك عالياً.. فطن إلى ماوراء الكلمات.. قال: نعم قلت أنا هذا في البداية.. أعذرني.. يطرق بابنا كل يوم عشرات من الناس.. يطلبون أن نساعدهم في الخروج من العراق.. يلحون في ذلك وكأنما نحن شركة للسفريات.

قام سعدالدين إلى الهاتف اللاسلكي.. هاتف عبره الكولونيل ناب مسؤول المكتب.. ولم تمر غير دقائق حتى كان الرجل في مواجهتي.. وقف بقامته المتوسطة يتطلع إليّ.. البشاشة واضحة على ملامحه.. امتدت يده للمصافحة.. شد على يدي بمودة.. جلس ودعاني لأجلس بدوري.. وبدأ في الإمساك بخيوط الحكاية.. أعدت له الرواية.. تحدثت بالعربية وتولى سعدالدين حليم الترجمة.. وقبل أن نغرق في التفاصيل دعانا إلى تناول وجبتنا.. ثم عدنا بعدها لاستكمال الجلسة.. وتوالت الأسئلة.. لم أخف شيئاً.. وكان الكولونيل ناب يتابعني باهتمام.. يسجل أدق التفاصيل على

الأوراق التي تزحم الطاولة الصغيرة.. وكلما امتلأت ورقة دفع بها إلى الجالس إلى جهاز الإرسال اللاسلكي ليبرق بها على الفور إلى واشنطن.. وتتابعت الساعات.. أخذت خلالها أحكي وهم يسجلون.. حتى الثامنة بقيت أتحدث.. أفرغت كل ما في جعبتي.

لحظات صمت قال بعدها ناب: إنها قصة غريبة.. تزحمها وقائع وأشياء فظيعة.. وامتدت يده إليّ في حنو بالغ.. قال: الآن عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة.. رافقني هو وسعدالدين إلى البيت الآخر.. قادوني إلى غرفة خاصة.. قال ناب باسماً: المنزل كله لك الآن.. خذ راحتك.. وأضاف مستدركاً وهو يضحك: فقط بعض الغرف ليست لك هى لجنود المركز.. وأشار إلى غرف مغلقة.. أومأت علامة الفهم.. تركني في ضيافة واحد من ضباطه.. النقيب تيد جولي.. جولي هذا شخص بالغ اللطف أسرتني رفقته.

1991 / 12 / 20

أربعة أيام متوالية.. تلاحقت فيها الأسئلة.. تفتش عن التفاصيل الدقيقة.. أجلسوني في مواجهة أشخاص ثلاثة يتحلون بالملابس المدنية.. قال ناب إنهم منتدبون للتحقيق النهائي بطلب من وزارة الدفاع الأمريكية.. تابعتني الكاميرا التي وجهها إليّ طوال الجلسية أحد الرجال الثلاثة.. وأرادوا قبل أن تنتهي الجلسة أن يدللوا على قدرتهم.

دس واحد منهم يده في حقيبـة وأخرج مجموعة صور.. وألقاها على المائدة.. أشار إلى إحداها باسماً.. هذه صورتك سيد لطيف.. أليس كذلك؟.. وأشار إلى الثانية.. وهذه صورة عدى.. أخذت أتامل صورتي..

كنت أرتدى بدلة عدى الخاصة.. لم تفارق الرجل الابتسامة.. عاد يخاطبني: نحن نعرفك من قبل.. لكن كان يجب علينا أن نتأكد.. شكراً لك.. وهب واقفاً وتبعــه رفيقاه.. شـد ثلاثتهم على يـدى.. وتركوني.

رافقهم الكولونيل نـاب وسعد الدين.. وبقيت أنا والنقيب تيد جولى وضابطــة أمريكيــة من جناح الطيران تدعى جولى نتبادل أطراف حديث عادي.

31/ 12/ 1991

مع اللحظات الأولى من صباح اليوم نشط كل ضباط المكتب ليعدوا لوداع العام.. قال سعدالدين سوف تشاركنا الاحتفال طبعاً .. سيأتي أيضاً ضيوف كثيرون من القاعدة الأمريكية في تركيا للاحتفال معنا.. في المساء ازدحمت حديقة البيت بالمحتفلين.. اختلط الضباط والضابطات.. نجحت زجاجات الويسكي في كسر موجــة الصقيع ودفعت بالحرارة إلى المحتفلين.

4/ 1/ 1992

بينما أنا جالس أتابع التلفاز مسترخياً في الصالة.. جاء ناب.. قال باسماً: كيف أنت لطيف.. وجلس.. قال ونحن نتبادل المزاح: ما رأيك.. هل تود أن ترحل إلى أمريكا.. نستطيع أن ندبر أمر ذهابك إلى هناك كلاجيء سياسي.. أدركت أنه جاد.. وأنه يختبر نواياى.. شكرتـه رافضاً العرض.. قلت أنوي الذهاب إلى النمسا.. لم أكن أعرف حتى أين يقع ذلك

البلد على خارطـة أوروبـا.. كل ما أعرفـه عنـه أن ابن عمتي هناك.. يعمل طبيباً في العاصمـة فيينا.. قال ناب إنه سوف يتولى تدبير الأمر.

1992 / 1 / 6

فاتحت سعدالدين برغبتي في الذهاب إلى دهوك.. قام واتصل بناب الذي جاء على الفور.. قال الرجل وعلامات الدهشـة باديـة على وجهـه: لماذا تنوي الذهاب؟.. لقد فاتحنا النمسا حول موضوعك.. قد تأتي الموافقة في أي وقت وتسافر.. صارحتـه بدوافعي.. قلت إن لدي هناك بعض المال.. أريده لأبدأ به حياتي الجديدة.. تطلعت إلى وجـه الرجل أنتظر الجواب.. قال نعم لكن بعض الكدر لاح على تقاسيم وجهه.. ربما راودته المخاوف.. يعرف أن الرحلة إلى هناك غير مأمونـة.. تأتيه أخبار الصراعات التي تدور في كردستان بين الأحزاب الكردية.. ولم يكن أمامه إلاّ الموافقة استجابة لإلحاحي.. قال سوف أبعثك في سيارة خاصة من المكتب تأخذك إلى مقصدك في دهوك.

وعدت ثانية إلى هناك.. استقبلني الأصدقاء بفرحـة.. ودعت سائق السيارة البوش الذي جاء بي.. حملتـه تحياتي إلى ناب وسعدالدين ورجوتـه أن يبلغهما أن يطمئنا.. أضفت: يومان على الأكثر أكون بعدهما عندكم في المكتب.

جلست إلى الأصدقاء وكان الوقت عصراً.. تحلقنا طاولة واسعة وانصرفنا إلى الورق نلعب «الكونكان».. تبادلنا أحاديث وحكايات.. سروا عندما أخبرتهم أني في طريقي إلى النمسا وأن الأمريكيين يسعون لمساعدتي في تدبير الأمر.

قادني قريبي إلى غرفته الخاصة وأغلق دوننا الباب.. أخرج من دولاب خشبي حقيبتي.. وقال باسماً: الأمانة.. قبضت على ساعده بيمنايْ.. تنفست الصعداء.. أعطيته العشرة آلاف دينار أجرة الرجل الذي جلب الحقيبة.. وعدنا ثانية للأصدقاء الجالسين إلى المائدة المزحومة بورق اللعب.

---

7 / 1 / 1992

الثامنة صباحاً ..طرقات قوية متلاحقة تدق باب البيت.. هرول قريبي يستطلع القادم.. رجال مدججون بالسلاح يزحمون الباب.. سمعتهم عبر باب غرفتي الموارب ينطقون اسم رئيسهم.. قالوا إنهم رجال رسول مامند رئيس الحزب الاشتراكي الكردستاني.. أضافوا ليفسروا مهمتهم.. قالوا إن رئيسهم يرغب في التعرف عليّ .. طلب أن أزوره.. وأنهم جاؤوا لاصطحابي.. حاول قريبي التملص.. قال إني نائم.. لكنهم تابعوا إلحاحهم.. وخرجت إليهم فاعادوا على مسمعي مطلبهم.. كانوا جميعهم يحملون الكلاشينكوفات.. لم أرتبْ لذلك. قدرت أن الأمر عادي.. كل الرجال هنا لا يفارقهم السلاح.. لقد فُرض عليهم أن يجابهوا النظام.. وكان عليّ أن أرضخ لإلحاحهم.. يبدو أنها دعوة قسرية.. قلت ذلك لنفسي وأنا أتهيأ للصعود إلى واحدة من سياراتهم الواقفة في الباحة المحيطة بالمنزل.. صعدت مصطحباً حقيبة المال.

قالوا إننا سوف نذهب للقاء الرجل في قضاء رانية في محافظة السليمانية الواقعة عند الحدود العراقية الإيرانية.. تحرك ركبنا في طريق وعر وشاق.. ضيق ومتعرج تحيطة الثلوج من كل جانب.. يطلق عليه طريق

«برزان».. بدأ الجالس إلى جواري محادثتي.. كان يسمى خالد.. قلت له بعد أن بدأت الوساوس تراودني: أريد العودة إلى دهوك.. هز رأسه علامة الرفض.. ملامحـه الخشنة أفصحت عن ماهو مخبوء.. أدركت أنني وقعت في مصيدة.. وأني مساق إلى المجهول.. لغتهم الملفوفة في الرقة انزاحت جانباً.

قال خالد في صفاقة: نحن ذاهبون شئت أم أبيت.. قال ذلك بحسم وعلامات القسوة والغدر تطبع ملامحـه.. فوهة مسدسه تلامسني.. فعل ذلك متعمداً إرهابي.. سألني فجأة: تحمل نقوداً كثيرة أليس كذلك؟.. ولم ينتظر الجواب.. تسللت أصابعـه إلى جيوبي.. أنتزعت ما فيها.. واستولى كذلك على ساعتي الذهبية وخاتم كان في يدي وسلسلة كانت في رقبتي.. فعل ذلك بصفاقة.. أحكمت قبضتي على حقيبة النقود.. أدركت المصيبـة التي تلوح في الأفق.. لصوص.. قطاع طرق.. أوغاد.. دارت بي الخواطر.. خرست ولم أطلق ما بداخلي.. لوفعلت ربما كانت رقبتي هي الثمن.. تزداد المخاوف.. اصطحبوني ربما ليقايضوا عليّ.. يسلموني إلى بغداد ويقبضوا الثمن.. ملايين الدنانير التي ربما رصدها عدى لمن يأتي بي بعد خروجي عن طاعته.. صرخاتي المحبوسة أخذت في التدافع إلى خارجي.. وكان عليّ أن أطلقها.. قلت لهم بغضب ظاهر.. من هو ذلك المسمى رسول مامنـــد.. أين هو؟!.. إن كان فعلاً رئيس حزب معارض فأنتم بالتأكيد لستم رجالـــه.. أنتم مجرد لصوص.. قطاع طرق.. لم يأبهوا بصرخاتي.. فقط لكمــة خفيفـة على الرأس أراد بها ذلك المسمى خالد أن يحذرني من مغبـة الاستمرار في الصراخ.

هدني التعب.. وهدني أكثر الرعب من المجهول القادم.. وأعيتني الرحلة الطويلة عبر الطرق الوعرة.. وأرهقتني خشونـة الرجال.. أربع عشرة

ساعــة حسبتها دهراً كاملاً .. عند العاشرة والنصف مساءً دخلنا قضاء رانية.. لم يأخذوني إلى مقر الحزب كما زعموا في البداية.. أخذوني إلى مبنى متهالك.. ألقوا بي في إحدى غرفــه المظلمــة.. انتزعوا مني الحقيبة التي تحوي مالي.. جردوني من كل شيء.. ثم انصرفوا.

عدت بالطيف ثانية إلى وحشة السجن.. جلست على الأرض في ركن من أركان الغرفة أحاول استجماع أفكاري.. البرد يجمد أطرافي.. كرات الثلج المتساقط تضرب سقف الغرفــة.. تزيد من توتري.. عدت بأفكاري إلى الوراء.. من هم زعماء المعارضة الأكراد.. مسعود البرزاني رئيس الحزب الديمقراطي للكردستاني.. جلال الطالباني رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني.. رسول مامنــد.. رسول مامنــد؟!.. لقد مر عليَّ هذا الاسم.. ربما عبر تقارير وثرثرات منتسبي جهاز الأمن الخاص..ماذا يريد الرجل مني.. ولماذا هذه المعاملــة الخشنة.

يجب أن أجــد مخرجــاً.. لكن كيف.. وحتى لو وجدت. إلى أين يمكنني الذهــاب ؟. المكان موحش.. مصيرك التجمد لوحاولت يالطيف مجرد السير مترجلاً في هذه الصحراء الجليدية.. أدركت عبث المحاولــة.. عدت إلى التقوقع في الركن.. جلست أنتظر معجزة ربما تسوقها الأقدار.. استسلمت للمصير المجهول.

بعد عدة أيام قاسية.. أدركت أني لست الوحيد في هذا المكان الموحش.. وجدت آخراً.. وجدتــه في غرفــة أخرى يعاني مثلي قسوة البرد وقرصات الجوع.. والانقطاع عن العالم.. طاعن في السن هو.. سألته بصوت خافت بكلمات كرديــة.. وأجابني بكلمات متقطعــة.. كان يشكو من آلام تخنق صدره.. قال إننا وقعنا في قبضــة من لا يرحم.. وقعنا في قبضة لصوص أفاقون.. وقعنا في قبضــة جماعــة رسول

مامنـد الحرامي.. قال أن الحرامي لقب لازم هذا المامنـد.. أطلق عليه لما يقوم به رجالـه من أعمال قرصنة وسطو.. وعدد لي بعضهـا.. كان أتباعـه وبأمر منـه ينتزعون أعمدة الكهرباء ليبعونها لإيران.. ينهبون كل شيء.. الآلات الزراعيـة.. آلات تعبيد الطرق.. كل ما تطوله أياديهم يبعونـه لمن يدفع الثمن.. قلت أتوكأ على حكمـة الحاج إبراهيم.. وكان هذا اسم رفيقي في المكان الموحش: بماذا تنصحني.. أطرق لحظـة.. ثم جاءتني كلماتـه واهنـة: اصبر.. الله في عونك وعوني.. قلت لـه: لماذا أنت هنا.. قال الرجل: لاأنتمي لأي حزب من هذه الأحزاب التي تزحم الفضاء.. ماجرني إلى هنا مجرد محاولـة اعتراض.. كلمات ضجرة.. تأتي إلى هذا الفضاء كل أسبوع عدة شاحنات تحمل الغاز السائل والنفط الأبيض ليوزع على أناس المنطقة.. رجال مامند يتحكمون في توزيعه.. يهبون بعض ماتحملـه الشاحنات لمعارفهم والأصدقاء.. ويبعون الباقي لحسابهم في السوق السوداء.. سوء حظي دفعني إلى مجادلتهم.. وها أنا هنا أعاني الجوع والمرض وقساوة الحبس.

1992 / 1 / 12

أخيراً جاؤوا.. دخلوا عليّ.. أسلحتهم مشرعة.. انتزعوني من الركن.. أحكموا شد العصابة حول عينيّ وكبلوا يديّ بالقيود.. جروني إلى واحدة من سياراتهم.. قادوني إلى منطقة اسمها «جار قرنة».. هبطوا بي إلى مكان موحش آخر.. ستة عشرة درجة أحصتها قدماي.. نزعوا العصابة وغادروني.. تركوا لي فانوساً صغيراً شاحب الضوء.

وجاء خالد وعصابته للمرة الثانية.. أطلق تهديدات عدة.. حذرني من

الكلام.. قال حازر أن تفصح عن شيء.. لاتقل إنّا أخذنا منك شيئاً.. لن أتورع عن قتلك لونطقت.. قلت واليأس يحوطني: لايهمني المال.. فقط أريد العودة إلى زاخو.. قال: لم يحن الوقت.. لم نفرغ منك بعد.. لايزال لدينا بعض التحقيقات بشأنك.. بعدها سوف نقرر مصيرك.. عدت إلى الانفعال والصراخ من جديد: منْ أنتم!! أريد رسول مامند.. أهاجتهم كلماتي.. أوسعوني ضرباً.. جردوني من الملابس.. عروني.. ورشوني بماء بارد.. ثم تركوني ولم يغفلوا عن إحكام إغلاق الباب من خلفهم.. ولعشرة أيام متواصلة عاودوا المجيء.. وأذاقوني خلالها العذاب أصنافا.

في صباح اليوم العاشر أخذوني إلى الخارج.. أعطوني ملابس نظيفة.. مغسولة ومكوية.. أمروني أن أرتديها على عجل.. استجبت.. البرد الذي جمد أطرافي دفعني إلى الطاعة.. دفعوني بقسوة إلى سيارتهم.. وعادوا بي إلى قضاء رانية.. أدخلوني بيتاً.. كان في داخله حلاق ينتظر.. دفعوني إليه.. قص شعري وهذب لحيتي وشواربي.. ثم قادوني إلى غرفة نصبت بها كاميرا فيديو.. أمرني خالد أن أجلس في مواجهتها.. أمرني أن أشكرحزبهم.. وأن يلهج لساني بالثناء على رئيسهم.. أن أنمق الكلمات ليطبعوها على الكاسيت لتكون في حوزتهم.

مسرحية أخرى.. يالهم من أوغاد أخرون.. إنهم يصنعون مايصنع عدى.. يحاكون النظام الذي شقوا عليه عصا الطاعة.. لاحيلة لي.. لابد وأن أطيع رغباتهم.. جلست ورددت ماطلبوا.. رسمت بسمات مصطنعة لتلتقطها العدسة.

ثم عادوا بي إلى محبس «جار قرنة».. أدخلوني إلى الغرفة ذاتها.. لكن هذه المرة منحوني فراشاً وأغطية.. وجلبوا طعاماً جيداً لم يأتوني به في المرة السابقة.. لاأعرف سر هذه المعاملة الجديدة!!

1992 / 1 / 25

فتح باب الحبس.. جاؤوا معهم هذه المرة برجال ثلاثة.. دفعوهم إلى الداخل بقسوة.. كوموهم وسط الغرفة المظلمة.. وأحكموا إغلاق الباب.. حاذرت في البداية أن أحاول محادثة القادمين الجدد.. توجست أن يكونوا رجالاً من رجالهم.. دسوهم عليّ.. يومان بطولهما أرقبهم ويرقبونني.. في منتصف نهار اليوم الثالث تلكأت الكلمات على الشفاه.. لكن لم يكن هناك بد من خروجها.. عرفت أسماء الرجال وعرفوا اسمي.. أولهم كان يدعى بختيار والآخر أحمد.. والثالث اسمه حسن خوشناو.. وعرفوا أني من بغداد.. تساءلوا عن سبب وجودي.. قلت أني حقيقة لا أعرف.

وقبل أن يغرب هذا اليوم الذي تعارفنا فيه بعد تردد خرج بختيار وأحمد.. سحبهما اللصوص إلى الخارج وتركونا أنا وحسن خوشناو.. أفصح لي عن الظروف التي قادته إلى هنا.. قال إنه كان منتسباً إلى مديرية الاستخبارات العسكرية «شعبة الاستطلاع العميق».. كان يتسلل أثناء الحرب مع إيران إلى طهران.. يذهب إلى هناك ليزرع المتفجرات.. كرر الأمر مرات متلاحقة نجح في أغلبها.. وكوفىء من قبل نظام صدام على ذلك.. أجزل له العطاء.. بعد غزو العراق للكويت عاد إلى رانية.. أهله فيها.. رغب في الانضمام إلى المعارضة.. لكنه وقع في أيديهم.. أيدي رجال رسول مامند.. اتهموه بأنه لايزال يعمل لحساب النظام في بغداد.. أرادوا أن يبيعوه لإيران التي تطلبه حياً أو ميتاً.. وصل إلى علمهم أنها رصدت لمن يأتي به خمسة ملايين من الدنانير العراقية.. هو إذن صيد ثمين وفرصة مواتية لعصابة رسول مامند.. قال حسن وعلامات اليأس

تحوم حول رأسه: إنهم يفعلون ذلك دائماً.. يصيدون الرجال ليقبضوا الثمن.. من بغداد أو طهران.. الأمر لديهم سيان.

عادت المخاف إلى رأسي.. ربما لهذا حرصوا على إجلاسي في مواجهة الكاميرا.. الآن تتجسد ملامح خطتهم في مخيلتي.. يسعون بالتأكيد إلى بيعي إلى رجال صدام.. ويحتفظون بالكاسيت ليتقوا غضبة الأحزاب الكردية.. يحتفظون بدليل على أني كنت ضيفهم وأكرموا وفادتي.. غادرتهم طوعاً والكاسيت خير دليل لمن تساوره الوساوس أنهم أبرياء طاهرون براءة الذئب من دم يوسف.

---

29 / 1 / 1992

ولم أنعم طويلاً بصحبة حسن خوشناو.. جاؤوا وانتزعوه كما انتزعوا بختيار وأحمد.. لكن لم يأخذوه إلى الخارج.. قادوه إلى زنزانة أخرى.. دلتني عليها صرخاته العالية المتوجعة.. أسمع عبر الجدر الصلدة فرقعات سياطهم وهي تضرب المسكين.

عدت وحيداً.. يقتلني الخوف ويحوطني اليأس.. تمليت الجدران مرات ومرات.. لازالت عليها آثار شعارات البعث.. لقد كان محبسنا مقراً من مقراته.. شغلته في السابق منظمة من منظماته.. الآن حولوه بعدما أحكموا قبضتهم على كردستان إلى سجن يقودون إليه الرجال بلا ذنب أو جريرة.. لافرق بينهم إذن.. لافرق بين نظام أو معارضة.. كلهم سواء.. وكأنك ياأرض الوطن أرض هرمة لاتنبت إلاّ الأشواك الشيطانية.. سوف لا أعود إليك أيتها الصحراء التي خلت إلاّ من الظلم والجور إذا قدر لي الانفلات من هنا.

1992 / 2 / 2

قبل منتصف الليل جاؤوا من جديد.. سمعتهم وهم يسبونه ويدفعونه دفعاً إلى الداخل.. تركوه ومضوا.. تطلعت إليه.. رغم الضوء الشاحب بانت لي ملامحه.. شاب في مقتبل العمر.. لا تتخطى سنوات عمره الثامنة عشرة أو تدور حولها.. حاورته على حذر.. تيقنت أنه ليس من رجالهم.. قال إنه من أتباع مسعود البرزاني رئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني.. حكى لي كيف أقتيد إلي هنا.. ألفت الشاب وألفني.. قال إن نفسه تحدثه أنه لن يبقى هنا طويلاً.. قال إن مشكلته ليست بالمشكلة الكبيرة.. لاأعرف لماذا وثق محمد زيرك – وكان هذا اسمه – في أن الرجال سيطلقونه بعد مدة لن تطول.. لكني أمسكت بالأمل.. أمل الاعتماد على معونته إن تحقق ظنه.. رجوته إن حدث ذلك أن يسعى إلى مساعدتي.. أكد أنه سوف يفعل.. قال إنه فور الإفراج عنه سوف ينقل الأمر عبر مسؤوله ليصل إلى رئيس الحزب مسعود البرزاني.. قال ليبعث الطمأنينة إلى نفسي: لاتقلق.. أقسم بشرفي ومقدساتي أنني سوف أفعل.. سوف أفعل كل مافي طاقتي لإطلاق سراحك..

تدافعت الطمأنينة إلى قلبي.. بددت سحب الخوف واليأس والقنوط التي تحوم حول رأسي.. وتمنيت له من كل قلبي أن يفك أسره.. من أجله ومن أجلي.

1992 / 2 / 7

وصدقت تقديرات محمد زيرك.. مع الساعات الأولى للصباح جاؤوا.. دلت ملامحهم على أنهم جاؤوا لإطلاق سراحه.. ودعني.. همس في أذني على عجل: لاتقلق سوف أتدبر الأمر.. وقالت ذلك أيضاً نظراته المشجعة

وهو ينسحب إلى الخارج.. جلست بعد أن غادرني يحدوني الأمل.. جلست على حافة الفراش أنتظر الخلاص.

---

10 / 2 / 1992

قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء سمعت أصواتاً تقترب.. سيارات يتعالى هديرها.. تقافزت لأتشوف.. أرقب ماهو آتٍ.. الفرج أم الكرب.. لم أصدق ماأخذ يطرق أذنيّ.. صيحات عالية تردد اسمي.

لطيف.. لطيف.. أين أنت يالطيف.. كانت واضحة لا لبس فيها.. إسمي.. إنهم لا ينادون على آخراً.. ينادون عليّ أنا.. يفتشون عن مكاني.. قبل أن أصيح مستجيباً.. قال صوت تبينت نبراته: إنه في الملجأ.. ميزت الصوت ولم يختلط عليّ.. إنه صوته.. صوت ذلك الأفاق الذي يدعى عبدالكريم.. عبدالكريم الذي تفنن في التنكيل بي عندما جعلوني هدفاً لإجرامهم.

غمرتني الفرحة الطاغية.. لقد نجوت يالطيف.. لن تموت هنا.. لن تأكلك الوحدة ويجمدك الصقيع.. سوف تواصل رحلتك التي بدأتها لتنفلت بعيداً عن عالم الأشرار.. لقد فعلها الفتى.. صدق محمد بما وعد.

سمعت أقدامهم وهي تتسارع هابطة.. وقفوا في مواجهتي.. حياني شاب كان في مقدمتهم.. قال وابتسامة واسعة تحلي محياه: أنا الدكتور سربست.. من الحزب الديمقراطي الكردستاني.. لقد أبلغنا محمد زيرك أنك هنا.. جئنا على الفور.. أنت الآن ضيفنا.. وامتدت يده تصافحني في مودة.

أنت الآن ضيفنا.. قالها في مودة واضحة وهو يقودني إلى النور..

أخذ يأسف لما أصابني ويعتذر كما لوكان هو وجزبه من تسبب في ذلك.. الساحة الواسعة.. كانت محشودة بالرجال تحليهم ملابسهم الكردية المميزة.. لم تخطئهما نظراتي كما لو أنها كانت تفتش عنهما.. خالد وعبدالكريم.. سارعت إليهما والغضب والقرف يزاحمان فرحتي بالخروج من السجن.. بكل مافي من قوة بصقت في وجهيهما.. أفاقون وقتلة.. سوف أفضحكم أنتم ورئيسكم اللص.. ووددت أن أطبق عليهما.. أكيل لهما بعض الذي لقيته على أيديهما.. لم يمنعني غير الود المرتسم في عيون بقية الرجال الذي جاءوا من أجلي.. لم أود رغم غضبي أن أطبع في أذهانهم صورة شائنة لي.. كان على أن أتسم باللياقة.. وأن أترك لهم تسوية الأمر مع هولاء اللصوص الذين ينتسبون زوراً إليهم.. وقادني الدكتور سربست باسماً وهو يحاول تهدئة خواطري وثورتي إلى سيارته اللاندكروز.. سار ركبنا خمس ساعات متواصلة.. قطعنا خلالها طرقاً وعرة.. حتى وصلنا إلى مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني في قضاء شقلاوة في محافظة أربيل.

أمام المبنى توقفت السيارات.. هبطنا جميعاً.. دخلنا من البوابة الواسعة. طالعت صورة كبيرة تزين المدخل للسيد مسعود البرزاني.. وإلى جوارها أخرى لوالده السيد ملة مصطفى البرزاني.. أكد لي الدكتور سربست ونحن جالسون في الداخل أن حزبهم لن يترك حزب مامند يواصل جرائمه التي تشوه نضالهم.. واصل الحفاوة بي والاعتذار عما أصابني ونحن مقبلون على الطعام الذي ازدحمت به المائدة التي أعدت لنا.. أقبلت على الطعام.. أكلت بشهية.. ليس الجوع أو رائحة الطعام كانا وحدهما فقط وراء تمتعي بالطعام.. وإنما سبقهما في تحريك شهيتي ماهو أهم وأعظم.. إنها الحرية التي خطوت إليها بعد عنت دام أياماً

طويلة وقاسية.. وأسهم في ذلك أيضاً ود الرجال وحفاوتهم.

أفصحت لمضيفي عن رغبتي في الرحيل إلى زاخو.. قال ضاحكاً: إن شوقك إلى الرحيل عارم.. لقد بحثنا طويلاً وهانحن قد وجدناك أخيراً.. فور أن تلقينا البرقية التي بعث بها الكولونيل ناب سارعنا بالبحث في كل اتجاه.. سألنا كل الأحزاب.. ومن بينها حزب رسول مامند.. وهاأنت الآن معنا.. مع مطلع الغد سوف نصحبك لتصل إلى مبتغاك.. بت ليلتك هادىء البال والخاطر.. خذ قسطاً من الراحة لتغسل عن نفسك بعض همومها ووعثاء الترحال.. وتركني عند أطراف الفراش الوثير الذي قادني إليه.. دخلت إلى الحمام لأغتسل.. أطلقت الماء لأنفض عن جسدي قاذورات السجن.. سجن اللصوص الأوغاد.

جلست على طرف الفراش.. حرصت قبل أن أغرق في النوم أن أسطر الأحداث التي تعرضت لها في الآونة الأخيرة.. ولم أنس تدوين الأشياء التي نهبها اللصوص الأوغاد مني.. أعددت ذلك ليكون دليلاً أدفع به ليكون تحت نظر رئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني في مواجهته لجرائم وتجاوزات حزب رسول مامند.. وسطرت أيضاً رسالة شكر وامتنان للسيد مسعود البرزاني.. ولما انتهيت أحسست براحة عميقة ثم استسلمت لنوم هادىء.

1992 / 2 / 11

استيقظت من النوم على طرقات وادعة تدق في رفق باب الغرفة.. دخل أحد الرجال يحمل في يمناه طعام الافطار.. قال وهو يضع الطعام على الطاولة المجاورة للفراش: أرجو أن تكون قد تمتعت بنوم هادىء.. رجاني أن أفصح عن رغباتي.. قال مضيفاً في ود زائد: لاتخجل أنت في

بيتك.. أسرتني مودته.

قمت فاغتسلت.. بدلت ملابسي.. أكلت بنفس الشهية السابقة.. ومع آخر رشفة من الشاي الساخن جاء آخر.. حياني ودعاني لمصاحبته.. قال إن السيد نيجرفان في انتظاري.. أضاف موضحاً: السيد نيجرفان هو مساعد السيد مسعود البرزاني وابن أخيه.. عندما دخلنا عليه وجدناه واقفاً خلف مكتبه مستعداً للقائي.. صافحني مرحباً.. أفاض في الاعتذار والأسف لما حل بي.. شكرته.. ورجوته أن ينقل تحياتي للسيد مسعود بعد أن أعلمني أنه في مهمة في تركيا.. وقال باسماً: إنه لوكان هنا لكان في استقبالك بنفسه.. وأضاف: إنه شدد على ضرورة إنقاذك.. ثم مازحاً: أياً ماكان عملك في بغداد.. مادمت قد وليت هارباً من هناك فنحن نعتبر أنك الآن واحداً من المعارضة للنظام الظالم.. واجبنا أن نسامحك ونساعدك.. وفي نهاية اللقاء ودعني بالمودة نفسها.

صحبني الدكتور سربست إلى السيارة التي وقفت عند الباب تنتظرني.. صعدت في رفقة السائق وأربعة من الحراس إلى السيارة اللاندكروز.. وانطلقنا في طريقنا إلى دهوك.. سلك السائق بنا طريق برزان.. وعند الثامنة مساءً كنا عند مشارف دهوك.. وصلناها بعد أن هدنا التعب وأرهقنا الطريق الوعر.

اصطحبوني إلى منزل واضح الفخامة.. قابلنا صاحبه بترحاب زائد.. قدموني إليه.. قالوا إنه السيد بابكر أحد المسؤولين في الحزب الديمقراطي الكردستاني بالمحافظة.. قال الرجل والابتسامة الواسعة مرسومة على محياه: لطيف ضيفي هذا اليوم.. قال ذلك للحراس وأمرهم بالعودة.

1992 / 2 / 12

في الصباح دق بابكر باب غرفتي.. قال باسماً: عليك أن تتهيأ

لرحلتك.. على مائدة الإفطار تبادلنا أطراف الحديث.. وصحبني مودعاً عندما جائت السيارة إلى حيث تقف.. شد على يدي وتمنى لي السلامة.

عند الحادية عشرة وقبل أن تبلغ الشمس موضعها في كبد السماء توقف هدير السيارة عند الباب.. باب المقر.. خرج على صوت الطرقات الرجل ذاته.. ذلك الكردي الذي طالعته في المرة الأولى التي جئت فيها إليهم.. قابلني هذه المرة باسماً.. بغير الجهامة السابقة.. قال إن الكولونيل ناب ليس هنا.. خرج ومعه سعدالدين في جولة.. وجاء النقيب تيد جولي.. عانقني بحرارة.. قادني إلى الداخل.. جلسنا نتسامر.. حتى جاء ناب وسعدالدين..أخذوني إلى أحضانهم الحارة.. قال ناب: لقد بحثنا عنك طويلاً.. طلبنا من البرزاني والطالباني أن يفتشوا عنك في كردستان كلها.. وهاأنت الآن بيننا.

توالت المعلومات السارة على لسانه.. قال: سوف تبقى هنا فقط إلى الغد.. في الصباح سنعلم الأمم المتحدة أننا عثرنا عليك.. وأضاف: لقد وافقت النمسا على منحك حق اللجوء السياسي.. ضحك بصوت عال: لقد قايضناك بعائلة مسيحية تعيش في فيينا وترغب في الرحيل إلى أمريكا.

قال معتذراً: غرفتك في البيت يشغلها الآن ضيوف قدموا من أمريكا.. لكن سوف نتدبر الأمر.. على الفور هاتف السيد جلال الطالباني ليوفر لي مقراً لإقامتي المؤقتة في زاخو.

وصحبوني إلى هناك.. كان في انتظارنا شخص يدعى «حسين أغا».. تركني ناب وسعدالدين في ضيافته.. صحبني الرجل إلى داخل منزله.. تبادلنا حديثاً ودياً.. عرفت منه أنه يعيش في أوروبا.. ويأتي إلى هنا عدة مرات في كل عام ليسهم في العمل الحزبي.

عشرة أيام قضيتها في ضيافة الرجل.. أسرني خلالها بوده وكرمه..

وثقافته الواسعة.

1992 / 2 / 23

عدت من جديد إلى المقر.. جاء ناب وأخذني إلى هناك في سيارته.. قال ونحن نقطع الطريق إلى مكتبه أن الإجراءات جميعها قد تمت.. وقال في تمهل ليعرف وقع الخبر على مسامعي: سوف تسافر الأسبوع القادم.. تقافزت فرحاً وأنا أسمع النبأ الذي طال انتظاره.. وقال موضحاً: كان بالإمكان أن تسافر قبل ذلك الموعد.. لكنني فضلت التريث لأؤمن لك السفر جواً.. لقد رتبنا انتقالك إلى تركيا على متن إحدى المروحيات.

1992 / 3 / 2

وقف على باب غرفتي.. أخذ يتأملني قبل أن ينطق.. وتطلعت إليه بدوري.. مذا وراء ناب.. انتظرت أترقب ماسوف ينطق به.. استعد للمفاجأة.. قالها ضاحكا.. أجبته مبتسماً: هات ماعندك.. قال : سوف تطير اليوم إلى تركيا.. اليوم؟.. سارعت إلى معانقته.. وتسارعت الدموع إلى مقلتيّ.. قفزت ملامح أهلي إلى مقدمة رأسي.. تذكرت بغداد بحلوها ومرها.. الحلم تمهل طويلاً.. تلكأ لكنه في النهاية أتى.. سوف أغادر عالمي.. عالمي بكل مافيه.. المتعة والألم.. الأوفياء والأوغاد.

وقف ناب صامتاً.. أجلُّ مشاعري التي انطلقت من عقالها.. تركني لحظات لمايدور في داخلي.. وعاد ليقودني إلى غرفة أخرى.. أطلعني على هدايا كثيرة أعدها من أجلي.. زجاجات عطر وأشياء أخرى.. أراد ورفاقه أن يطبعوا في رأسي ذكراهم.. ولم ينسَ إخراج الكاميرا من جرابها ليلتقط لي بضع صور تذكارية.. قال ضاحكاً: سوف أعود إليك بعد ساعة

من الآن لنحتفل بوداعك مقرنا.

جاؤوا جميعاً.. ناب وسعدالدين وضباط المقر.. الرجال والنساء.. تحلقوني.. أخذنا نضحك ونمرح.. نتقارع بالكؤوس حتى ارتفع صوت المروحية هادراً ينبىء بالرحيل.. وخرجت في صحبتهم إلى المطار الصغير.. عانقتهم جميعاً قبل أن أصعد لأغوص في بطن الطائرة.

لوحت لهم وأنا عند نهاية السلم.. لهم ولأرض الوطن.

وجلست تهدني المشاعر المختلطة.. مشاعر الفرح المختلطة بمشاعر الألم.. وارتفعت الطائرة.. حدقت عبر النافذة الصغيرة لألقى آخر نظرة على الوطن.

وهبطت الطائرة في واحدة من القواعد الحربية في تركيا.. وجدنا في انتظارنا سيارتين تحملان علامات الأمم المتحدة.. صافحت رجال المنظمة الدولية الذين جاؤوا لاستقبالي.. وصحبتهم إلى مقرهم في ديار بكر.

بعد أن مكثت لبعض الوقت حملني سائق إلى الفندق.. كان واضح الفخامة.. شدد السائق على موظف الاستقبال ضرورة تلبية كل مطالبي.

1992 / 3 / 3

في الصباح جاء رجلان من موظفي المنظمة إلى الفندق.. صحباني إلى مطار ديار بكر.. صحفيون كثيرون كانوا هناك في الانتظار.. تحلقوني.. لمعت أضواء كاميراتهم لتطبع ملامحي على الرقائق الفيلمية.. حاولوا أن ينتزعوا مني الكلمات لكني تسربلت بالصمت.. جائت الطائرة لتنقذني من إلحاحهم.. لوحت مودعاً.. وطرت إلى أنقرة.. على أرض المطار وجدته في انتظاري.. قدم نفسه.. قال إنه مسؤول الأمم المتحدة هنا واسمه براين.. أخذني في رفقته إلى فندق «كوناك».. ولقيت رعاية مماثلة لتلك التي أحاطوني بها في ديار بكر.. شدد الرجل على أني ضيفهم.. ولم ينس قبل أن يتركني أن يدس يده في حقيبته.. منحني ألف

دولار قال إنها لاحتياجاتي الطارئة.. وترك في رفقتي اثنين من رجاله ليلبيا مطالبي.. ولم ينس أيضاً أن يترك لي أرقام هواتفه.. قال: ربما تحتاجني.. خابر في أى وقت.

---

6 / 3 / 1992

صحبني براين إلى السفارة النمساوية.. ختموا لي هناك تصريح الدخول إلى بلدهم.. فعلوا ذلك على الجواز الدولي الذي أعده براين.. الجواز الذي أعد لسفرة واحدة.

---

9 / 3 / 1992

عند العاشرة صباحاً ذهبت برفقة براين إلى المطار.. جلسنا في انتظار الطائرة التي سوف تنقلني عبر اسطنبول في طريقها إلى ڤيينا.

دقات الساعة تشير إلى منتصف الثانية ظهراً.. حطت الطائرة على أرض مطار ڤيينا.

الآن أخطو على أرض الحرية.. تنفست الصعداء أخيراً.. من اليوم سوف أبدأ في تصفية حسابى مع نظام بغداد.. هكذا قلت وأنا أخطو إلى خارج ساحة المطار الجميل.

وأذاع الأتراك الخبر بعد أن غادرت إلى النمسا.. قال راديو أنقرة في نشرته المسائية.. إن البديل لابن دكتاتور العراق نجح في الفرار إلى أوروبا.. وتصدر الخبر الجرائد التركية.. وتناقلته الوكالات العالمية.. على أبواب المطار كان مندوب وكالة الأنباء النمساوية في انتظارى.. في انتظار البديل الذى خرج من خلف أسوار مملكة الرعب.

سوف يحفر التاريخ في ذاكرتى هذا اليوم.. 9 آذار 1992.. يوم البداية لحياة جديدة بلا خوف.. بلا عدى.

■■■

المحتويات

هذا الكتاب

جمعت سنوات الدراسة الأولى بين لطيف يحيى المتنمي الى واحدة من عائلات بغداد العنية وعدي الإبن الاكبر لصدام حسين دكتاتور العراق... ثم فرقتهما الأيام حتى التقيا من جديد... عيول عدي المثبوته في أرجاء العراق أنت بلطيف ،إنتزعته من جبهة القتال بعد أن أختارة الفتى ليكون فدائيا له يواجه الخطر الذي يترصده...

ينوات خمسة قضاها لطيف قريبا من العصابة التي تحكم بغداد لأتاحت له الولوج الى عالم الرعب الشائك... عرف خبايا القصر ورجال الحكم... عاش مجولهم وتكشفت أمام ناظرية فضائحهم... طوعوه على غير ارادته ليكون في خدمتهم... عرف الالم والعذاب وهو بينهم... تحين الفرص لينجو من قبضتهم. الى ان أتت حرب الخليج الثانية... سلك الدروب المتعرجة الى الشمال ومن هناك فر بعيدا .

نجح في اللجوء الى النمسا... عندما حطت أقدامه على أرض مطار العاصمة فيينا تنسم ريح الحرية.

على صفحات هذا الكتاب يحكي لطيف القصة ليكشف ما يدور خلف الستار الحديدي... يروي مأساة شعب وسجون عصابة... ويكشف فوق كل هذا هشاشة النظام المتربع على عرش بغداد .


الناشر